جماعة نشر الثقافة
بالاسكندرية

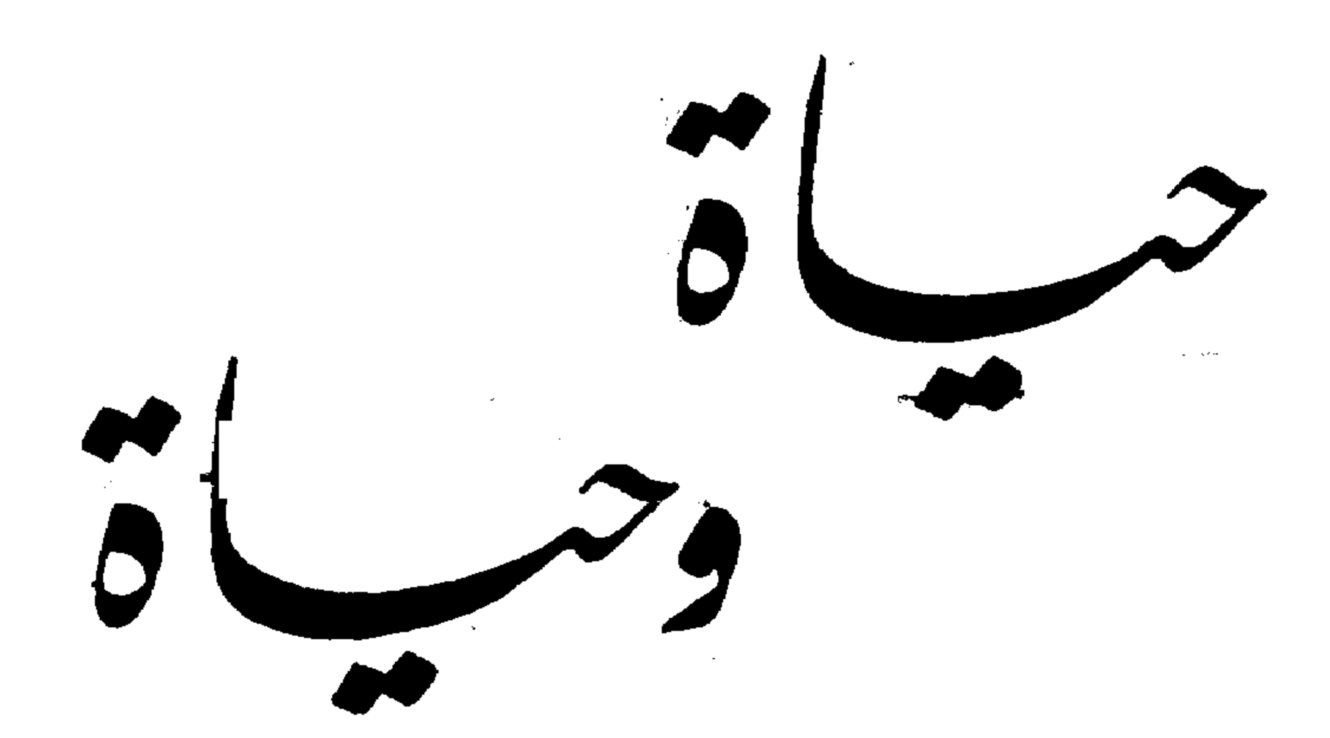


حياة وحياة

دكتور
محمد كامل الصبي
(دكتوراه فى العلوم الطبيعية)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

جماعة نشر الثقافة
بالاسكندرية



حياة وحياة

دكتور
محمد كامل الصبي
(دكتوراه فى العلوم الطبيعية)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الاهداء

الى فتيات مصر وشبانها ...

الى ذكرى ماضى مصر المجيد ...

وحاضرنا الغامض ...

واملنا فى المستقبل .

محمد كامل الصبى

وكيل إدارة ابحاث المصايد

باسكندرية

القـــرية

فى شمال الوجه البحرى وعلى بعـــد كيلو مترين من شربين أحد مراكز مديرية الغربيـــة تقع قرية دنجواى على الشاطىء الأيسر لترعـــة الساحل التى تشق مجراها فى هـذه البقعة تقريبا محـــاذية فرع دمياط وتبعد عنه مايقـرب من خمسمائة متر

أعترف بعجزى عن معرفة تاريخ هـــذه القرية القديم وعن معرفة مؤسسها ومن بدأها وأكتفى بوصفها كما هى الآن فإنها عندى تصلح مثلا للحياة الريفيه فى مصر .

أول مايلفت نظر القادم إليها بطريق النيـــل (من جهة الجنوب تقريباً) أو بأحـــد الطرق المؤدية إليهـا من الشرق أوالغـــرب قصر شامخ البناء مترامى الأطراف ذو ألوان زاهية تعكس ضوء الشمس المشرقـة ؛ يبرهن على قوة من بنـاه وشيده فإذا ما اقترب منه الرائى لاحظ أن هـــذا البناء الفخم يقوم بمفرده على الضفةاليمنى للترعة ويصله بالقرية ممر خشبى صغير .

أقيم حول القصر سور من البناء له مدخل عام من الجهة الشرقية يتكون من أبواب خشبية ضخمة محلاة بابتكارات

الصانع المصرى . بعضهـــا حديث والبعض الآخر من الفن العربى الذى يشاهـــد على أبواب أبنيتنا القديمة وخاصة المساجد ودور العبادة .

هـذا المدخل يحجز خلفه بهوا صغيرا على احـــد جانبيه باب لحجرة واسعة وكلاهما يحوى بعض الأثاث وكثيراً من المقاعد . وهذا الجـــزء من القصر يستعمله القرويون والعمال الذين فى خـــدمة صاحب الدار ، ومن لا حيثية لهم عند احتياجهم لمقابلة سيد المنزل وعمدة القرية لعمل من الأعمال .

إذا سنحت الفرصـــة لزائر هـذا البناء أن يجتاز تلك الردهة الصغيرة إلى البناء الداخـــلى فأول مايراه حديقة واسعة مترامية الأطراف بها قليـــل من الشجر والشجيرات هيئتها تدل على الإهمال وعدم الاعتناء . لافن فيها ولاحب للطبيعة فإن فى مثل هذه الحـــديقة الرحبة مجـــالاً لمن يحب الطبيعة ويعشقها فيمكنـه ؛ دون أن يبـــذل فى ذلك جهداً كبيراً ـ أن يغرس فيها كثيرا من النباتات والأزهار الباسمة ذات الألوان الفاتنة والرائحة الذكية المنعشة .

ولكن شاءت الظروف أن يكون مثـل هذا الإهمال هو إحدى ظواهر الحياة فى مصر ؛ وقليل من أهلها من يحب الطبيعة . ويقدر جمـــال سمائها الصافية ، وشمسها المشرقة ، وقمرها

المضيء، وأزهارها الزاهية، وطيورها الفاتنة المكسوة بمختلف الريش والتي تنشد أناشيد الطبيعة بنغمات عذبة موسيقية وذكاء حيوانها مع الإخلاص في خدمة الإنسان الذي يؤدي قليلا من الواجب عليه نحوه من الشفقة والرفق. والذي لا يُرى فيه أي جمال أو ذكاء أو إخلاص. وإنما يعتبر مسخراً لخدمته وتحت سيطرته فإن كان في حاجة إليه استخدمه بغير شفقة أو رحمة، وإلا أهلكه بمنتهى القسوة وبغير اكتراث.

على الجانب الأيمن لتلك الحديقة يطل على الترعة بناء من طبقتين (سلاملك) متوسط الحجم جميل المنظر جدرانه محلاة بنقوش حديثة، كان يستعمل فيما مضى لاستقبال الزائرين ذوي الأهمية عند رب الدار. ولكن بعد موته امتدت إليه يد الدهر فأهمل من الأسرة حتى سقطت أسقفه ولم يبق منه سوى تلك الجدران الشامخة التي تنطق بعظمة من بناه. وبعد أن كانت تضم بينها رجالا ذوي حيثية ومكانة أصبحت تظل طيورا لا مأوى لها .

خلف الحديقة يقع البناء الأساسي أو القصر يصعد إليه الزائر على سلم رحب الدرجات مصنوع من أجود الرخام. هذا السلم ينتهي بردهة متوسطة الاتساع في كل ركن من

أركانها الأربعـــة عمود من الرخام الأيطـــالي النفيس وفيها بابان يوصـــلان إلى بهو كبير يحمل الهواء الذى يملؤه هيبـــة ووقاراً وفى وسطه صف من أعمدة المرمر الأيطالى الثمين : جدرانه محلاة بنقوش فنية ، ونحوت ثمينة ، وعلى سقفه قضى النقــاشون والمصورون كثيراً من وقتهم ، كل يجتهد فى اظهار فنه وسعة مخيلته وحذقه ومهارته .

على هـــذا النحو من العناية وأظهار الحديث من جمال فن العمارة ، وما وصل إليه من تقدم ـ أقيم هـذا البناء ويتكون من ثلاث طبقات وفى كل حجرة من حجراته آية من آيات الفن إما ابتكرتها عبقرية من قاموا بزخرفة هـــذا القصر المشيد أو نقلوها عن غـــيرهم . وقد فرش بأحدث الأثاث وأجوده وأغلاه ثمنا من السجاد العجمى النفيس إلى كثير من المرايا والزجاج المصقول والمقـــاعد الوثيرة . ثم إلى طقوم الذهب والفضة التى تزين حجرات الأكل وغيرها .

وعلى الجمـــلة فانه يبدو أمام الناظر جنة الدنيا وبهجة النفوس . ويقوم دليلا ساطعا على قوة وجبروت وثروة طائلة وعلى ما ينعم به أصحابه من عز ومكانة . حتى ليخيل إليه أن الدنيا قد خلقت لينعم بها هؤلاء . وحتى يتعذر عليـــه أن يدرك كيف وعلى أى شكل يشكو ساكنو هـــذه الجنان ألما أو تمتد

إليهم يد المنيـــة فيدفنون تحت الثرى وينتهون إلى مصير ذلك العامل القروى الفقير . أما الذى يقدر الفن والجمال فربما يعتبر أن ساكنى هـــذه المؤسسة العظيمة قد سلبوه بعض جماله فكدسوه بالأثاث من غـــير تنظيم أو تنسيق . لاقدرة لهم على اختيار الموافق من الألوان التى تلائم الذوق السليم .

وكيف يُعتبر هـــذا القصر جميلا دون أن يحوى آلة للموسيقى التى هى غـــذاء النفس وسر جماله . . . ؟ عندما يترك القـــادم هذه السراى إلى القرية يشعر بالفرق العظيم وكأنه قد هوى من السماء إلى الأرض فى الثـــوانى التى عبر فيها ذلك الممر الخشبي الصغير .

تمتـــد القرية نحو كيلو متر على شاطىء الترعة وتتكون (واجهتها) من مبان مختلفة لاتناسق فيها ولاجمال تتراوح بين أكواخ مبنيـــة من اللبن أو الطين لايزيد ارتفاعها عن مترين ونصف متر بجانب منـــازل متوسطة الحجم من الطوب الأحمر لم تفِد شيئاً من جمـــال فن العمارة أو تقدم الأيام بل لاتزال تحتفظ بفكرة المـــنزل التى فكر فيها الإنسان الأول وهي عبارة عن حوائط قائمة ؛ الغرض منها الوقاية والحفـــظ وليس هنـــاك منزلان فى ارتفاع واحد أو تنسيق واحد .

إذا ولى الزائر وجهه شطر داخل القرية ولم يكن عرف

شيئا عن الحيـــاة الريفية فى مصر فربما يذهل لما يراه . داخل القرية (كواجهتها) من حيث المبانى فهناك منازل فى ارتفاع عشرة الأمتار تغطى مسافة لابأس بها . وبجانبها أكواخ من الطين وضيعة ضيقة لاتصلح أن تكون سكنا لإنسان . وجميعها مغطاة بالقاذورات لم تمسسها الحضارة ولم يعرف أهلها أن « النظافــة من الأيمان » . وعلى السقوف أكداس من حطب الوقود تزيد من خطر النيران فى مثل تلك القرية المتراكمة المساكن العــديمة الشوارع . أما حوارى القـرية فليست فى مستوى واحد بل هى تجرى بين مرتفعـــات ومنخفضات ، وبين ضيق واتساع ، ملآى بالأتربة والقـــاذورات وهنا وهنـاك تشاهد أكداس السماد وفضــلات الماشيـة التى هى مأوى لكثير من الميكروبات ومصـــدر لكثير من الأوبئة .

ومما يلفت النظر كثرة المساجد فى القرية ، والنظام السائد فيها على عكس قواعد الصحة. فهى مصـــدر لانتشار الأمراض المعـــدية الفتاكة ، وخطر على صحة الأهلين . فتجد الجميع يغتسلون فى حوض صغير ممـــلوء بالماء . والبراز أما أن يخزن فى خــــزان معرض للجو بجانب المسجد ، أو يجرى فى مجرى ضيق ليصب فى الترعـــة التى يستعمل ماءها القرويون فى مشربهم ، ومأكلهم ، واستحمامهم ، وجميـــع مرافقهم وحاجتهم

المنزلية دون تنقية أو تطهير.

أما القرويون فينقسمون الى طبقتين: طبقة الملاك وهؤلاء يعدون على الأصابع ويشاركون السراة و « الخواجات » (الاجانب من الفرنجة) فى امتلاك الأرض ويعيشون عيشة محدودة متوسطة بما لديهم من مال وثروة لا بأس بها ولو أن معظمهم يجهل معنى الحياة. إلا أن الثروة فى هذه الدنيا تخبأ كل جهل وتخفى كل عيب.

أما الطبقة الأخرى فهم الفعلة والعمال وفريسة الجهل، ومحط الاحتقار، والأزدراء من سادتهم الملاك يعاملون بالشدة والقسوة. هؤلاء قد خلقوا لا ليعيشوا العيشة الحقة ولا ليعرفوا أنهم مصدر القوة، وبجهودهم تتكون ثروة الأمة، وبعرق جبينهم تبنى: مما يجعل لهم الحق فى أن ينالوا بقدر مايعطون من جد وكد فى فلاحة الأرض وزرعها. بل تركوا فى ظلمات الجهالة محافظة للقديم على قدمه واحتراما لذلك الفرق الشاسع بين السيد والخادم. المالك الصغير يستوى فى ذلك مع العامل فليس لهم من حول أو قوة سوى طاعة أولى الأمر منهم. ولكى يكون وصف القرية كاملا أرى لزاما عليّ أن أصف حياة أسرة من هذه الطبقة.

بجانب منزل كبير تبلغ مساحته مايقرب من ثلاثة أرباع الفدان تسكنه إحدى أسر الملاك يلتصق فى زاويته الشرقية كوخ صغير مبنى من الطين لا يغطى أكثر من خمسة وعشرين متراً مربعاً ولا يزيد ارتفاعه عن مترين . يتكون من سرداب ضيق سقفه السماء ينتهى بشبه غرفتين لا فرق بينهما وبين جحور الحيوان الذى يعيش فى الخلاء . لا نافذة لهما . أحداهما مسقوفة « بالبردى » والأخرى بالغاب وبالجملة مثل هذا المأوى يذكرك بالخطوة الأولى التى خطاها الإنسان الأول فى وجوب الوقاية من تقلبات الجو ومطاردة الحيوان المفترس فلجأ إلى الكهف ثم إلى الكوخ .

فى هذا المكان كما أعرفه يسكن الزوج ووالدته وإحدى نسائه وأطفالها الأربعة « والماشية » أما الزوجة الثانيه فتعيش مع والدتها فى مكان آخر . الوالدة عجوز شمطاء قد سلبتها الأيام كل قوة ونشاط والأطفال أكبرهم سنا يبلغ ثمانى سنوات . وأصغرهم عدة أشهر . وعلى هذا فانهم يحتاجون كل وقت إلى أمهم لترعاهم ولترضع صغيرهم وتسهر على تربيتهم .

أما الزوج فهو كل ما تملكه تلك الأسرة من مساعد ومعين وكفيل وهو يعرف ذلك حق المعرفة لا من قانون تعلمه أو إنسان أوحى به إليه وإنما هو قانون الطبيعة الذى

لايكسر فهو يسرى فى دماء الكائنات الحيــــة سواء أكان الكائن إنســـاناً أو حيواناً وهو المحافظة على دمه والذود عن حياضة ووجوده ووقاية أهـــله وبنيه . وربما ورث ذلك عن الإنسان الأول الذى تعـــلم الصبر والجلد وحب التضحية ومقابلة الاخطار ففى تلك الأيام كان الرعاة يشيدون من الأحجـــار أكواماً أو أسواراً ليحفظوا فيها نساءهم وأولادهم وما لديهم من ماشية .

هـــذا الزوج يشتغل تقريبا كل يوم من أيام السنة سواء أحب ذلك أو لم يحب وســـواء شعر بالقـوة اللازمـة لتأدية عمله أو لم يشعر .... ويبلـــغ متوسط أجره عشرين قرشا فى الأسبوع . بهـــذا الأجر يعيش هو وأسرته .

فعلى أى نوع تتصور أن تـكون هذه المعيشة ...... ؟ ؟

الحياة الأولى

منـازل الملاك فى تلك القرية كما هى الحـــال فى جميـع القرى المصرية . وتتـكون الأسرة فى العادة من شيخها الهرم أو ابنهـا البـكر يدبر أمورهـا ويتصرف فى أموالهـــا ويدير دفتهـا . إما إلى بر السلامة أو الهلاك ومثـــل معظمها كمثل

« السركى » الذى لا ترتيب فيه ولا نظام .

أما باقى أفراد الأسرة فليس لهم فى الغالب حول ولا قوة ولا مناص لهم من طاعة أمر رب الدار والعمل بما يراه شط أو اعتدل . قد قتلت فى نفوس شبابها ورجالها فضيلة التفكير والاعتماد على النفس وحب التجربة والمخاطرة حتى إذا ماقضت الأيام على أحدهم أن يفكر لنفسه وجد عبء الحياة ثقيلا وفى كثير من الأحيان يكون نصيبه الخيبة والفشل .

فى أحد تلك المنازل وُلِدت وقضيت أيام طفولتى وجزءاً من شبابى .....

أما أيام الطفولة فهى صحيفة سوداء ليست فى حياتى فقط ولكن فى حياتنا الاجتماعية المصرية . وكيف يُنتظر من أم جاهلة مهما كان لديها من حول أوثروة أن تستكشف من تلقاء نفسها ما فى هذه الحياة من سعادة وجمال لتقوم بغرسه فى نفوس أبنائها . يعيش الطفل غالبا بين أكداس من القاذورات عقلياً وجثمانياً . حياته سلسلة من الأيام المتشابهة المملة . ففى المنزل تعودت عيناه عدم النظافة والترتيب ورؤية القسوة والشدة . وأذناه الصياح والعويل وكثيرا من ألفاظ السباب والشتم (وما أكثرها

فى لغتنا العربيـــة . . . . ! !) لا يعنى بنظافة جسمه كما يجب وفى خارج المنزل ليس أمامه سوى أن يختلط بمثـله من أطفال القـرية فيشـــاركهم فى اللعب بالطـين وذر الرماد بعضهم فى أعين البعض والجـــلوس لسماع الخرافات . وفى كثير من الأحيان المشـــاجرة حتى يســـيل دمه وتتقطع ثيـــابه .

فى « الـكُتّـاب » أو المدرســـة الأوليـة تعود الخوف والجبن فهو يرى معلمه كما يرى السجين جـــلاده لما يلقاه على يديه من قسوة وشـــدة وأن هو ذل أو أخطأ أو هَمَس كان نصيبه العصى والتعرض لـكثير من أصناف العذاب والعقاب .

وليس غريباً أن يكون بغض الأطفال وكرههم التعليم ونفورهم منه ظاهرة عامـة حتى أن بعضهم ليرى أن أكبر عقاب ينـــاله من والديه أو القائمين بأمره هو إرساله إلى أمثال تلك « الـكتاتيب » و « المدارس »

أما مايحصل عليـــه من العلم فهو قليل من الحفظ عن « ظهر قلب » مماتيسر له من القرآن الكريم وبعض القطـع الشعرية والنثرية دون أن يفهم لها معنى ومَثَله فى ذلك مثل الببغاء تهرف بمالا تعرف ، أومثل الآلة الحاكية . هذا عدا ماتعود من الـكذب والخداع والذى اضطره لذلك هو أنه إن

قال الصدق فى فعلة فعلها أو ذنب أتاه نال العقاب صارماً وإن كذب ولم يُقِر فربما نجا من الجزاء .

قضيت خمس سنوات طوال « فى كُتَّاب » القرية واحتملتها بما فيها من قسوة ومرارة وليس فى ذاكرتى منها سوى آلام التعذيب والضغط والخوف من العصى وسائر أنواع مالحقنى وغيرى من العذاب وفى رأيى أن كل يوم من أيامها كان قرناً فإن تلك النفس الصغيرة التى تحب بطبيعتها الخلاء واللعب واللهو البرىء كان يتحتم عليها أن تجلس من خمس ساعات إلى سبع طوال دون حركة أو همسة فى غرفة مزدحمة بأمثالى من الأطفال .

بعد ذلك اندمجت فى سلك إحدى المدارس الابتدائية التابعة للجمعية الخيرية الاسلامية فوجدت أن الفرق بين الحياة فيها وبين كُتَّاب القرية شاسع . فبناء المدرسة جميل يطل على النيل روعى فيه الكثير من قواعد الصحة من حيث غرف التدريس ذات المقاعد المريحة ووسائل التهوية وكمية الضوء . وبالجملة خطوت خطوة واسعة فى سبيل النظافة التى ألزمتنى أن أتطور فى ملبسى واعنى به ليلائم هذا الانتقال ولأنجو من العقاب الذى ينالنى أن أنا خالفت .

أما طريقة التعليم فى تلك المدارس وأمثالها من مدارسنا

الابتدائية فهى فى روحها طريقة الكتاب والعريف (سيدنا) فإنها مازالت جافة تعتمد على قسوة العقاب وشدته ووجوب طاعة الأوامر مهما كان فيها من غضاضة ومرارة وشطط وحفظ « المنهج » عن ظهر قلب سواء أفهمت ماتحفظه أولم تفهمه ، وعمل الواجب المنزلى سواءاً أأمكنك ذلك أو نقلته عن غيرك من أقرانك التلاميذ ، وإن أنت وفقت فى إجابة أسئلة الامتحان سواءاً أكنت كفئا أو غير كفء ظهر اسمك فى قائمة الناجحين ، وعدّك الأهل والأقارب والأصدقاء بطلا من الأبطال الفائزين ، وإن لم يظهر اسمك نظر اليك بعين الاحتقار وعدّك الأهل غبياً مهملا ، وتحتم عليك اعادة عامك الدراسى بما فيه من ملل وسآمة .

قضيت فى هذه المدرسة أربع سنوات أخرى من حياتى لا أذكرها إلا بالخوف والملل من ساعات أيامها الطويلة المملوءة بالحفظ و « التسميع » والامتحان تلو الامتحان ومنظر العصى تتكسر علىّ وعلى أقرانى وسماع ألفاظ السب واللعنة التى تنهال علينا والتهديد بما هو أسوأ من ذلك من الرسوب فى آخر العام ، إلى الفصل من المدرسة وخلافه .

فى آخر أعوامى الأربعة أقر أن هذا النظام قد أكسبنى مقداراً لا بأس به من اللغتين العربية والانجليزية ومن الترجمة

والحساب والخط والرسم المنظور . إلا أن هنـــاك جزءا كبيراً هو فى الحقيقة سر الحياة وعمـــادها لم أتلق منه شيئا . .

لِمَ أهمـــلت تلك المدارس ونحن فى القرن العشرين ما استكشف قبـــل التاريخ وبعده وما أقره فلاسفة الأغريق وباحثو مختلف العصـــور الذين عقبوهم وجروا على سنتهم وهو وجوب حصر أغراض التعليم وأسبابه ومختلف وسائله حتى تنتج غرضين مهمين . . . ؟ ؟

الغرض المـادى . ولتحقيق هذا يجب أن يكون هناك عقل سـليم فى جسم سليم ليتمكن الطالب من كسب رزقه وحماية نفســه وتحقيق مالديه من آمال فى وسط مجتمع مملوء بالشرور والاطماع .

والغرض الثـــانى هو أن يستمد النشئ من التعليم غذاء لروحه فيملأها بالفضائل حتى يمكنها أن تتغلب على طمع النفس وقهـــر ماحولها من مظاهر خداعة مغرية .

فأين تربية الجسم السليم فى مثـــل تلك المدارس . . . ؟ ؟ أهى ساعـــة « الجمباز » فى كل أسبوع تلك التى يبغضها معظم التلاميذ لمـا يقترن بها من قسوة العصى والفـــاظ السباب البذيئة التى تـكال لمن يزل فى حركة من الحركات كأنهـا حراب تصوب إلى صدره يضيق بهـــا ذرعا ويزداد نفورا

من الرياضة البدنية . . . ؟ ؟

أم هى مراقبة الضابط لبث الهدوء والسكينة فى أثناء الفسح القصيرة بين ساعات الدروس . . ؟ ؟ أم هى وقت الليل المكدس بالواجب المنزلى الذى ربما يلزم هذا النشء الصغير أن ينفق فى أدائه الساعات الطوال وبهذا يفقد جزءاً من وقت نومه الذى قرره له أطباء الصحة وعلماء التربية . . ؟ ؟

وأين هو غذاء الروح الذى يلقنه التلاميذ . . . . ؟

يشب النشء ؛ تحت هذا الضغط ـ على الخوف كما ذكرت . ويجرى فى دمه داء الكذب والخداع . وعندى إن الكذب هو أسوأ ماتتصف به النفس ، فلا يزال فريسة لأحاديث الجهل والخرافات والخوف من كل شىء (حتى أن البعض ليخيل إليهم أن ظلالهم . . . . إنما هى عفاريت تتبعهم) والتقاليد الزرية التى علقت بالدين وليست منه ، ولا يعرف معنى للحب والجمال أوالشفقة والرحمة .

ليس يُلام مثلى ومن فى سنى ممن يعيشون فى بيئة كالتي وصفت ، إذا لم يُقدروا جمال الطبيعة فى أزهارها الساطعة الألوان ، ومياهها المتلألئة الفضية ، وسمائها الصافية ، وطيورها الغردة ، وحيوانها الذكى . وليس لأحد أن يوجه

إلى لوماً إذا كنت لاأعــــرف استعمال آلات الموسيقى ، أو لم تتعود أذنى نغماتها الشجية ، وروحهــــا الفياضة التى تصغى إليها قلوب الحيوان قبل الانسان. فهى رسول العاطفة ونداء القلب بل هى ذلك الشعور الفياض الذى يتدفق من قلب العــــازف فيتقبله قلب السامع وسرعان ماتبدو عليــــه أعراضه . حتى أنها بتلك السرعة المدهشة ، ربما حولت ذلك الشخص إلى صـــورة نفسية ثانية لمصدرها . فإن كان مصـــدرها الفرح ظهرت أعراض الفرح ، وإن كان مصدرها عاطفـة أخــــرى ظهرت أعراض هـذه العاطفة فهى كما قيـــل فى وصفها قادرة على أن تضحك وتبكى وتسر وتحـزن وتسر سروراً حــــزيناً وتؤلم ألماً لذيذاً وتثير فى النفس الشجاعة حتى لتدفع إلى الموت .

لم أتعـلم شيئاً من الجمـال فى حيـــاتى الأولى التى هى وقت الغرس خالية من كل هذا .

بعد إتمام الدراسـة الابتـدائية التحقت بإحـدى مدارس الحكومة الثـانوية . لم أشعـر فيهـــا بفـرق كبـير بينهـا وبين ماتعودت فى دراستى الابتدائية من حيث شـــدة المعاملة ، وجفاف التربية ، مع زيادة فروع التدريس وحشو المنـــاهج بمعلومات عقيمة لاتفيـــد فائدة تذكر ، فقـــد كثرت مواد الدراسة وكثرت معها ساعات العمـــل تبعا لذلك والواجب

المنزلى وأزمة الامتحانات التى يتـــلو بعضها البعض ، وملء الآذان بأحاديث كثرة الرسوب فى الامتحـــانات العمومية ، حتى أن نسبة الناجحين فى بعضها لايزيد عن عشرين فى كل مائة

كل هذا شحذ همتى لأن أجـــد وأجتهد ، وأحفظ وأرتل ، سواءاً أأحببت الموضوع أو لم احبه . أصبحت اشتغل النهـار وجزءاً من الليـل لأنى أخاف شبح الرسوب وربما كانت النتيجة التفـكير فى الخـلاص من تلك الحيـــاة المؤلمة كما هى العـــادة سنوياً وانتشار الأخبـار بأن عدداً من الطلاب « انتحر بسبب رسوبه » وهـؤلاء قد صادفهم ســـوء الحظ فوقعوا فريسة لطريقة الأمتحـــانات العقيمة وجهـل بعـض الآباء وقصر نظرهم فى أنهم لايرون عـــذراً لولدهم سوى الأهمال وعـدم الألتفات . يزيد على هـــذا ماتتفوه به ألسنة الأهـل ؛ ومن لهم بهم معـرفة من أنتحال أحـــط الاسباب وحبـــك خيوط الأشاعات التى تخيلتها عقليتهم والتى أصبحت جزءاً من حياتهم وهى حب تدخـــل بعضهم فى أمور البعض والوشاية والنميمة .

« حيــــاة كلير الأولى »

فى ضاحية من ضواحى مدينة ليفربول الواقعـــة على نهر المِـرْزيزى « Mersey » الذى يخط مجراه فى مقاطعة لانكشير على الساحـــل الغربى لأنجلترا ولدت كلير من والدين من الطبقة المتوسطة . مركـزهما فى حياتهما الاجتماعية على وجه التقريب يماثل أو يزيد قليلا عما لوالدىّ من مكانة فى وسطهما . إلا أن مانالته كلـــير من تربية وتثقيف يفوق كثـيراً ماحصلت عليه لأنهـــا ربيت ونشأت فى وسط مدنية تقوم على أساس قوىّ متين من تجارب الأيام ، والجـــد والاجتهاد فى حل مايلاقيه الفـــرد والأسرة والأمة من صعوبات الحياة وتغيّر الأحوال تغيراً سريعا يتطلب يقظة وحرصا .

الشعب البريطانى من خـــيرة شعوب الأرض : عـرف معنى الحياة فقدرها وأقسم كل فرد من أفراده يمينا مقـــدساً على نفسه أن يؤدى الواجب عليـــه لنفسه ولأمته إلى آخـر قطرة من حياته .

ولـكى يفهم القــارىء شخصية كلير فى شبـــابها يجب علىّ

أن أحاول وصف العوامل التى أثرت فى تربيتها الأولى ؛ وكيف أن التربية المنزلية وما يتلقاه الطفل فى حياته الأولى يكوِّن الأساس لبناء المستقبل ، والنواة لسرحة الحياة .

شبت كلير مشمولة بعناية والدة أخذت قسطها من التربية والتعليم فعرفت أن عليها واجبا لابنتها الصغيرة الناشئة أكثر من حب الأم لبنتها . فعملت على أن تكون حياة الفتاة الصغيرة تبعا لقانون الصحة والتربية ؛ وإن أول مايرتسم فى ذهنها الخالى وما يطبع على عقلها الناشيء هو حب الفضيلة والوطن وجمال الطبيعة .

شبت كلير قوية صحيحة لم يقف فى طريق نموها مرض أو ألم . والحياة فى عينيها الصغيرتين وفى عقلها الذى هو فى دور التكوين أشبه بوصف الكتب المقدسة لجنة رضوان .

عندما بلغت السادسة من عمرها أصبحت عادتها ألا تقول إلا الصدق ولا تتفوه بدنىء اللغة وجافها وألا تشعر إلا بالحب الذى غرسته فيها والدتها لمن حولها سواءاً أكان انساناً أو حيواناً . فان أحب ساعة إليها فى حياتها الأول هى الساعة التى تقضيها مع « چينى » كلبها الصغير ذلك الحيوان المخلص الأمين الذى شارك تلك الفتاة الصغيرة فى عاداتها وقلدها فى حركاتها وسكناتها ؛ وأخذ على نفسه عهد وقايتها وحراستها ـ

تعودت الأم أن تأخذ الفتاة « كلير » يصحبها « جيني » إلى حديقة الضاحية الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف التى تقع على شاطىء النهر ، فيواصلون السير فيها : هنا وهناك تغرس الأم ذوقا سليما فى ابنتها ، فتلفت نظرها إلى جمال الطبيعة الذى يفوق كل جمال، فى ألوانها المختلفة ، وطيورها ذات النغمات الشجية : وصفاء مائها وغير ذلك مما حولها . و بطبيعة النشىء الصغير وحب المعرفة والاستطلاع تنهال من ذلك الفم الصغير أسئلة ساذجة .

لِمَ هذا يا أماه . . . ؟؟ وكيف ذلك . . . ؟؟ وما اسم تلك الزهرة أو النبات أو الطير أو الحيوان . . ! ؟ . . إلى غير ذلك مما يقع عليه نظرها أو يجول بخاطرها .

تبتسم الأم عادة فى وجه ابنتها ثم تحاول الاجابة على ما طلبت فى صوت منخفض عذب وفى لغة سهلة واضحة حتى تتمكن الفتاة كلير من فهمها وطبعها على ذاكرتها .

تسمع كلير شرح ما طلبت فى هدوء وسكينة ثم تفتر شفتاها الصغيرتان عن ابتسامة شكر وينطق لسانها « أشكرك يا أماه . . ! »

فى المنزل ترى الفتاة كلير الصغيرة إما تقرأ فى مكتبتها الكتب العديدة المؤلفة للأطفال فى سنها ، أو تروح وتغدو فى الحديقة يصحبها « جيني » أو هى على « البيانو » تمرن أصابعها

الصغـــيرة وتسمع أذنيها نغمات الموسيقى. فان أجادت مدحتها والدتها وأن أخطـــأت لفتت نظرها لذلك بكل لطف وهدوء

أما مارأته كلير من والدها فهو قليـــل: حيث أنه فى العادة يترك المنزل قبل الثامنة صباحا إلى العمل ويعود حوالى الخامسة وفى هـذا السن يتحتم عـــلى كلير أن تذهب إلى الفراش قبل الساعة السابعة ولـــكن بالرغم من الوقت القصير يجتهد الوالد فى أن يقـوم بنصيب من الحب لابنته. وأن يطفىء ظمأ الشوق إليها فيضمها إلى صـدره ويقبلها قبـــلة أبوية حارة ثم يضعها عـــلى أحدى ركبتيه فتتخذ منها كلير مقعداً مريحا وتبدأ بسرد مخاطراتها طول اليوم وما يمكن أن يجول بخاطرها.

وبعد أن تنتهى يستمر الوالد فى الحديث في سكينة وهدوء فيشرح ماجرى من الحـوادث الخارجية التى يهم كلير سماعهـا بطريقة تجعـــل فتاته الصغيرة متشوقه لسماعه وأذنها مصغية لما يقول.

حوالى السابعة مساء تقبّـــل الفتـاة أبويها ثم تذهب إلى الفراش.......

عندما بلغت السابعة من عمرها التحقت بمـدرسة الضاحية الابتدائيه للبنين والبنات. وهنا لاتزال الحياة حلوة جميلة ملؤهـا العناية والعطف والحب. فاتخذت كلير من معلمتها صديقـة وفية

وتشبعت بحبها حتى صعب عليها الاجابة عندما سئلت .

« أيهما تفضل : عناية الأم وحبها فى المنزل ـ أم صداقة معلمتها ووفاءها فى المدرسة .. ؟؟ »

أخذت قسطها من التعليم والموسيقى وفن التصوير واستعمال الألوان المختلفة والتمرن على اخراج ما حولها من جمال على اللوحة والورق .

أعطيت الوقت الكافى لتشبع جسمها النامى الصغير المملوء بالحركة والنشاط فأصبحت تتمرن على لعبة « التنس » « والهوكى Hokey » والجباز وعلى قليل من ألعاب الجولف والكركيت « Golf & Cricket » وكرة السلة « Basket Ball » وغيرها من الألعاب المختلفة .

أجتهدت معلماتها فى معرفة ما خلقت له ، وما لديها من مواهب ، وأى العلوم أحب اليها من غيرها ، ليُحاولن تنميته واظهاره والاستكثار منه دون غيره فان كانت نفسها تميل إلى حب الفن والجمال زيدت لها ساعات الموسيقى والفن والتصوير . وان كانت تحب التفكير والبحث والتنقيب زيدت لها ساعات العلوم ؛ وغير ذلك من مختلف علوم التربية فى أمثال تلك المدارس

مضت « كلير » فى تلك المدرسة خمس سنوات من أسعد أيام حياتها لم تعرف سأماً او مللاً ، او قسوة او شدة ، لاتحمل

كرهاً أو بغضاً لمخلوق من المخلوقات . بل كثر عدد أصدقائها من البنين والبنات والمدرسين والمدرسات وأصبح الكل اخوة تحت سقف بناء واحد . وقد اتفق الجميع على أن الكذب والخيانة رذيلة . والصدق والشجاعة والعطف وأداء الواجب وحب الوطن . . فضيلة .

بعد ذلك التحقت « كلير » بمدرسة ثانوية للبنات واستمرت دراستها فى جو أشبه بما ذكرت من العطف والحب . فنما جسمها وعقلها ودبت فى نفسها آمال الشباب ووجوب الكد والجد لتحقيقها فاختارت قسم العلوم لما تشعر به من القدرة والكفاية للبحث والتفكير واتسعت دائرة اطلاعها فأصبح الكتاب لا يفارقها فى غدواتها وروحاتها وكثر عدد أصحابها ، وامتازت على أقرانها فى لعبة « الهوكى Hokey » حتى أنه وقع عليها الاختيار وهى لا تزال فى سنتها الثانية أن تكون « كابتن » فرقة المدرسه لتلك اللعبة ؛ وازداد نشاطها الرياضى فأصبحت تجيد « التنس » « والعوم » ولم تنس الموسيقى والتمثيل والدرام وقراءة تاريخ شعبها المجيد لتروى من آن لآخر ماغرسه فيها والداها ومعلماتها من حب الوطن ووجوب التفكير فيه والعمل على رفعته وسعادته

على هذا النحو مضت « كلير » خمس سنوات أخرى فى تلك المدرسة جازت فى آخرها إتمام الدراسة الثانوية (Matriculation) الذى يؤهلها للحياة الجامعية .

السفر

نظام الجامعة المصرية ، كما هو الآن - فكرة تناولتها أيدى الوزراء السابقين ، وتكدست بأوراقها وتصميمها قماطرهم، ونالت من الاهمال ماتناله معظم مشاريعنا الاجتماعيـــة على أيدى وزاراتنا المتعددة وسياساتنا المتغيرة حتى أتاحت شجاعة ماهر ، مع تعضيد المليك ؛ أن تخرج المشروع من حيز القول الى حيز العمل وكنت من أول فرقة اندمجت فى سلكها ، فى عامها الأول؛ حيث قضيت فى كلية العلوم التى هى إحدى كليات الجامعة، أربع سنوات مشيت فى آخرها وأنا أقدم رجلا واؤخر أخرى إلى امتحان درجة البكالوريوس ، لا لأنى أقل من اخوانى الطلاب فى المستوى العقلى قدرة وكفاية بل لأن عامى الأخير قضيته بين اللعب والمرض وكتابة الخطابات الشـــديدة الى والدى لبدئه اهمال إجابة مطالبى مع أنى كنت أعرف حق المعرفة ظروفه التى اضطرته الى ذلك

تركت القاهرة وأنا فى يأس من نفسى ؛ أفكر كيف ارتب وقتى فى الحفظ والاستذكار فى العام القادم . . . وماذا يكون عذرى للأهل والأقارب . . . ؟

استقر رأيي أن أتحاشى مجتمعات القرية التى تنهال عادة فيها الأسئلة من أناس سواءاً أكان يعنيها الأمر أو لا يعنيها ، وان أنا أحرجت فسيكون جوابى « انني لم أجلس الى الامتحان ذلك العام » ـ فى الوقت نفسه صارحت والدى بالأمر فتغيرت ملامحه قليلا ثم أنسل من الغرفة دون أن يفوه بكلمة وتركنى لنفسى .

مرت بعد ذلك أيام قلائل قل فيها أكلى وكثيراً ماشعرت بدوار . وفى الليـــــل اعترانى الأرق حتى بدأ التغير فى صحتى والانحلال فى قوتى . لاحظت علىّ ذلك والدتى فأمسكت قلبهـا بيدها ثم أرادت أن تعرف السبب .

ماالذى اعتراك وليست هى عادتك ذلك الخلو الطويل بنفســـك والوحدة والسكون . . . ؟ ابتسمت شفتاى شاكراً وتحرك لســـانى

ليس هناك شىء يا أماه سوى أنى أشعر بقليـل من التعب بعد العام الدراسي الطويل .

فى صباح يوم من أيام أوائل يونيو وجدت والدتى بجانب الفراش تريد أن توقظنى لتقول أن صديقـــا لى وهو أحد أقاربهـا قد حاز دبلوم الطب وانه وصل الى القرية منذ يومين وللآن لم أذهب لتهنئته .

ابتسمت لها كعادتى ووعدتها أن لسانى سينطق له بتهنئـاتى

القلبية بأسرع ما أستطيع .

غادرت منزل هذا الصديق إلى غرفتي، وكانت الشمس محرقة وما بقي من النسيم على الأرض ساخنا لا يطاق . فسرت أتنقل من مكان إلى آخر؛ ومن ركن إلى ركن ؛ وليست لي شهية إلى الأكل أو النوم .

حوالي الساعة السادسة بعد ظهر اليوم ؛ وكل شيء ساكن هادىء ـ سمعت دقة على الباب . . خرجت لأرى من هذا .

تلغراف . . . ! ! لمن . . . ؟ لحضرتك . . . . ! ! لحضرتي . . تمتمت في نفسي واهتزت جميع أطرافي ولا بد أن الغلام قد لاحظ عليّ ذلك فقال على الفور

هذه أخبار ساره يا افندي وأنا أريد البقشيش

صحبته إلى غرفتي حيث أعطيته نصف ما معي من النقود بعد أن وعدني أنه لن يتفوه بشيء لأحد

« أهنئك ونفسي »

مختار

أهو حلم أم معجزة من المعجزات . . . ربما يكون مختار قد أخطأ . تسللت من الغرفة وأرسلت اليه ولصديق آخر برقية لأسألها ما إذا كان هذا صحيحاً فتسلمت الرد صريحاً بما جعلني أصدق . . .

مضت بعد ذلك أيام قلائل خلوت فيها إلى نفسى مفكراً . .

الآن وقد قطعت الطريق بما فيه من صعوبات متراكمة وانتهت الوسيلة التي تؤدى فى نظر طلاب العلم فى مصر إلى غاية واحدة وهى وظيفة الحكومة سواءاً أستفدت بعلمك فيها أم قبرته . وكأنك لم تجلس على ذلك الكرسى الخشبى الجامد الساعة تلو الساعة، واليوم بعد اليوم، والسنة بعد السنة، أما مصغيا لأستاذك ، أو مكبا على درسك . . . فماذا أختار لنفسى . . . ؟

تركت القرية إلى القاهرة وأنتهى الأمر بعد سعى حثيث بأن أتيحت لى الفرصة أن أغادر مصر إلى انجلترا عضواً لبعثة دراسية

فى أوائل ديسمبر سنة . . . ركبت إحدى بواخر «المساجيرى ماريتيم» . ولما كانت هذه أول رحلة لى على مياه البحر الصافية الزرقاء فكل شىء وقع نظرى عليه ملأنى غبطة وسروراً . . . نسيم البحر العليل ؛ منظر شروق الشمس وغروبها : الأمواج تتحطم على مقدمة السفينة .

أما الحياة الاجتماعية على ظهر السفينة فرأيتها فى وقتها ملأى بالانشراح والاغتباط . ولكن أقدرها الآن أنها كانت غاية فى الهدوء نظراً لقلة عدد الركاب . وكان بينهم كثير من رجال الدين عائدين من الشرق الأقصى إلى وطنهم فرنسا . متعت نفسى أحسن تمتع مدة الرحلة وانفتحت شهيتى لذلك الطعام الجيد

الذى يفوق بكثير ماتعودته خصوصا حل « البراندى» محل الماء .

تنفست الصعداء دليلا على ماشعرت به من ارتياح وسرور عند وصولى الى الشاطىء البريطانى لأنى لاأتكلم سوى الانجليزية . وكنت بعد ساعات قلائل بلندن حيث قضيت الليلة بها وغادرتها فى الصباح الباكر إلى ليفربول والتى بجامعتها التحقت وانخرطت فى سلك طلابها .

ليفـــــربول

قضيت ما يقرب من الاسبوعين قبل أن أتمكن من تعرف طريق من الجامعة إلى البيت ، ومن البيت إلى مختلف محــــلات البيع والشراء ودور التمثيـــــل وما أحتاج لزيارته من الأماكن . ربما يدهش القارئ من صرف هــــذا الوقت الطويل فى معرفة مدينة منظمة كليفربول . ولكن عذرى فى ذلك أن معظم شوارع المدينة متشابه وكذلك منازلها . فالشارع مهما امتد تقوم على جانبيه منازل فى حجم واحــــد ، وفى ارتفاع واحد . وعلى وجـــه التقريب فى هندسة واحدة ـ وتلك ماتمتاز به العمارة المنزلية الحديثة فى انجلترا سواءاً أكان ذلك فى المدينة أو فى القــــرية . وأهم مايشاهد فيها أن جميع مبانى كل حي من

أحياء المدينة فى ارتفاع واحـــد . وكذلك شوارع الحي على نمط واحد . وجميع المنـازل الواقعـــة على أحد جانبي الشارع فى حجم ونظام وهندسة واحدة . فيرى الزائر أن بكل منزل حديقة مهما صغر حجمها - وكذلك لايسكن المنزل فى كثير من الأحيان أكثر من أسرة واحدة .

مثل هذا النظـام لايدل فقط على ذوق سليم فى فن العمارة وجمالهـا فى توخى البساطة والتشابه بل أن له معنى روحياً كبيراً ؛ وقيمة وتأثيراً فى نفس الرائى لأنه يجعل التميز صعباً ؛ وفى بعض الأحيان مستحيلا - بين الحـالة المعيشية لأسرتين متجاورتين ، بل لعـــدد كبير من الأسر التى تسكن على طول الشارع أو فى المنطقة بأسرها لأن الجميع تحت غطاء متشابه .

هـــذه حالة لم تعتدها عيناي فى مصر . فى القرية المصرية الكوخ بجـانب القصر - أو الفقـــر المدقع بجـانب الثروة الطائلة - وفى المدينة قلما يرى النـاظر منزلين متجاورين فى حجم واحد أو ارتفاع واحد وقليل جداً من المنازل ما تسكنه أسرة واحدة.

أما منظر الأهلين فالكل فى زى واحـــد من الرأس إلى القدم . فهنا القبعة (البرنيطه) غطاء لرأس الجميع - إذا قورنت بالعمامة على اختـــلاف أنواعها وأوزانها ، والطربوش الذى لايغطى شيئاً من الرأس سوى الجـــزء المغطى بالشعر والذى

هو أحوج الأجـــزاء إلى الكشف والتهوية - واللاسة واللبدة والقلنسوة .... إلخ .. أما لباسهم فهى (البـــذلة) كما نعرفها - وهى آخر ما وصل إليه بحث الانسان من حيث سهولة الحركة فيها والراحة وحسن الهندام .

وغطـاء القدم الحـــذاء يشترك فى ذلك الوزير والحقير ولست أذكر أن نظرى وقع على قـــدم عارية فى الطريق مدة الثلاث السنوات التى قضيتها بليفربول .

يتعـــذر على الأجنبى وخصوصاً الشرقى منهم أن يفرق بين بعضهم والبعض الآخر لشدة التماثل فى أجسامهم وألوانهم حتى وفى معظم حركاتهم - فى القطار أو الترام سكون عام لا يتخلله سوى أقـــدام الصاعدين أو النازلين - وفى الشارع مهما ازدحم واكتظ فان أجنحة السكون تظل ترفرف عليه - الكل يخطو بكل هـــدوء وسكينة إلى الجهة التى يرغبها فى غير تردد أو تلفُّتٍ إلى خلفه أو يمينه أو يساره وربما لأول نظرة تتصور عقليـــة الشرقى منا لعـــدم تعوده ذلك المنظر أن هؤلاء القـــوم من رجالهم إلى نسائهم وأطفالهم مثلهم كمثل تماثيل تتحرك لاروح فيها ولا حياة .

سأنتقل الآن إلى مجمل وصف الحياة الجامعية وأود أن أعبر عما يجب علىّ من اعطاء كل ذى حقٍّ حقـــه فأذكر معالى على

ماهر باشا وسعادة الأستاذ الجليــــل والمربى الكبير احمد بك لطفى السيد ومن ساعدوهم على اختيار أكفـاء الأساتذة الأجانب الذين استقدموا إلى جامعتنا المصرية بكل مــــدح وثناء . فان كان فى الجامعة عيب أو نقص فانما يحمـــــل معظمه الطلبة . وهؤلاء يُعـــذرون لأن أساس تربيتهم وُضع خلافا لما تحتاجه الحياة الجامعية .

فكرة الجـامعة فى أساسها هى حرية القـــول والعمل فى دائرة القانون ؛ تشمل معهداً أو معاهد لبنـاء الشباب وتثقيفهم . ومفروض فيهم أن كل فرد من أفرادهم يعرف الواجب عليـه ويعمل لأدائه ـ وأن الجميـع يشترك فى ذلك: العميد والاستاذ المسن والطــــالب المبتدئ اجتمعوا لغرض واحـــــد وهو البحث والتنقيب فى مختلف فروع العـلوم والآداب والفنون . تربطهم فى ذلك الاخوة والصداقة والمحبـــــة التى تولدها فيهم الروح الجامعية ـ فهى فى كلمتين « روح التعاون » .

وفرق ما بين الحياة فى جامعة ليفربول وما بين ما تعودته فى جامعتنـا المصرية شاسع . ففى وقت الدراسة والعمــــل الأستاذ أستاذ يشرح درسه ويلقيـه بكل وضوح وجلاء دون أن يقف فى سبيل ذلك همس أو جلبـــــة من شأنه افساد ذلك السكون والهدوء . وفى الوقت نفسه الطالب يطلب العلم بجميع

حواسه وفى رغبـــة شديدة يظهر أثرها على ملامحه فترى عينيه مقيدتين بالأستاذ ؛ وحركاته وأذنيه مصغيتين إليه ؛ وقوة تفكيره وذهنه حاضرة .

خارج الدراسة سرعان ما يُنسى الفرق ؛ فتجـــد الطالب يُدخن من علبة سجاير أستاذه ، وترى أن معاملة بعضهم لبعض هى فى جميع وجوهها معاملة الصديق لصديقه ، لافـــرق فيها لسن أو مركز أوجاه .

أما وقت فراغ الطلبة وهو أهم ما أريد وصفه من نواحى حياتهم الجامعية ـ هو فى الحقيقـه مقياس هذه الحياة عندهم . فعنـــد انتهاء المحاضرات تمتلئ بهم فروع مكاتب الجامعة كلٌ يبحث ويطلع فيما يعنيه ـ وان هو تعب من قراءة فرع تخصصه ولنفرض العلوم ؛ طرق باب الآداب أو التاريخ أو الشعر . . . أو غير ذلك كلّ بحسب ميـــله ورغبته مِمّا يجعـله ملما بشىء من كل شىء . ولهذا تجـــد أن متوسط مايعرفه الطالب البريطانى من المعرفة العـــامة « General Knowledge » يفوق أمثاله فى الأمم الأخرى .

أما مايتنـاوله الطالبات والطلبة من الحديث فيدور معظمه حول محور واحـــد وهو « السبورت Sports » الألعـاب الرياضية ، والفن من القطع الموسيقية الحديثـة والفكاهة

والدرام والجو المتغير من ســـاعة لأخرى له نصيب كبير في حديثهم .

الألعاب الرياضية على اختلافها تُكوِّن معظم المجادلات والمناقشات التى تجرى فى صوت هادىء ، حتى أن حبها امتزج بدماء الحياة الانجليزية . فالذى تسمعه فى الصباح هو مثل ما تسمعه طول اليوم ، وفى المساء سواءاً أكنت فى القطار أو الترام أو فى مجتمع خاص . وأهمها مناقشة أخبار نتائج كرة القدم ـ « والرجبى Rugby » « والجولف Golf » ـ والتنس ـ والعوم ـ والجرى « والكركيت Cricket » وسباق الخيل والمراهنات عليه وغيرها

يصعب على أن أتصور أن هنـاك طالبة أو طالباً لم يمارس فى وقت من أوقات حياته إحدى هـذه الرياضات « السبورت Sports » التى ذكرت .

فشتان بين قضاء وقت الفراغ عندهم وعندنا . . . ! !

وقت فراغنا ينقضى بين قراءة الجرائد التى تحتوى على قليل من الثقافة ـ والاشتباك فى مجادلات سياسية لافائدة فيها ـ ضياع معظم الوقت فى مختلف المقـاهى بين حديث التناســـل وأى الطرق أصلحها لاجتذاب المرأة ووقوعها فريسة للشهوة الدنيئة . وبهـا لعب النرد « الطاوله » و « الضمنو » و « البوكر » و « الكونكان » وشرب القهوة واحتساء الكحول على مختلف

أصنافه وأنواعه . . وكثير من ذلك ممـــا يعرفه كل مصرى زار المدينة : ـــ

فى الجـــامعة

انتظمت فى سلك الدراســـة وبدأت أحضر محاضرات قسم . . وكان به خمس عشرة فتـــاة وأربعة من الشبان : الكل مُصْغٍ لمـا يشرحه المدرس أو المدرســـة ـ أما أنا فلعدم اعتيادى هذا المنظر فى كثير من الأحيان لم أدر ما يُقال . بل تنتقل عيناى من فتاة الى أخرى ، ومن وجه الى وجه ، ثم أسبح فى سلسلة من الأفكار . . أيهن أجمل وجهاً . . ؟ أيهن أرشق جسماً . . أيهن أكثر جاذبية وأخف روحاً . ؟ أيهن . . وأيهن ؟ . وأخيراً أيهن ترضى أن ترافقنى وتصادقنى فى وحدتى وغربتى . ؟ ثم لايلبث أن يأتى الجواب المؤلم من عميق نفسى مع زفرة حارة لا واحدة . . ! ! ولِمَ . . ؟ لأسباب كثيرة . . أهمها ـ أولا انه ليس فىّ شىء من الرشاقة والجمال : فقصر قامتى وملامح وجهى العادية ذات العينـــين الصغيرتين السوداوين تكفيان لغض الطرف عنى ـ ثانيـــاً انهن ينظرن نظرة خاصة إلى الأجانب وخصوصا الشرقى منهم الذى لايرى فى المرأة سوى فريســـة

لشهوته النفسية الدنيئة مهما كلفها ذلك من السقوط إلى الحضيض، وهتك عرضها، وضياع شرفها. وثالثا أنني لست من أرباب المال حتى يتيسر لى أن أضيعه بغير حساب وأستعمله فى اجتذابهن، وشراء عطفهن، ومودتهن. لم اكتف بتلك المحادثة بينى وبين نفسى مرة أو مرتين، بل تكرر ذلك وتعدد بتعدد المحاضرات وساعات الدراسة. وربما كان لى العذر فى ذلك فان معظم ماسمعته من حكايات وأقاصيص وحديث خاص فى السنوات الأربع الماضيــــة زرع فى نفسى حب المرأة، وكم وددت الجلوس مع واحدة أو اثنتين منهن فلم أستطع فى كثير من الأحيان إلى ذلك سبيلا، وها أنا الآن بين خمس عشرة منهن . . !!

فى يوم من الأيام احتجت كتاباً فصعدت إلى المكتبة للمرة الثالثة فى مدة الشهرين تقريبا لأنى - كما تعودت، لا أحب القراءة كثيراً ولا أكلف نفسى إلا حفظ ما ألقى علىّ من المحاضرات: لعلمى أن الامتحان لن يخرج عنها. . وغرضى الوحيد هو أن أنجح وأحوز الشـــهادة. . كما هى الحال بين إخوانى الطلبة المصريين.

دخلت بخطوات متثاقلة انظر من رف الى رف ومن قمطر إلى قمطر فلم أجد الكتاب. لاحظت أمينـــة المكتبة (وهى فتاة فى مقتبل عمرها) علامات الارتبـــاك والحيرة بادية على

وجهي فتركت مقعدها ، ودنت مني في هدوء وسكينة ، لئلا تزعج القارئين والقارئات . . وهمست . . هل في قدرتي مساعدتك . مســـتر . . ؟

« أكون لك شاكراً إن استحضرت لي كتاب « فلســـفة البيولوجيا لمؤلفه جونستون »

ذهبت الفتاة إلى مكان الكتاب فلم تجده . ورجعت وبيدها قائمة الكتب المستعارة وقالت « الكتاب الذي طلبته مستعار مســـتر . . . ! ! »

« أشكرك . » ثم وليت وجهي نحو الباب ووضعت يدي عليه لأفتحه فسمعت من ورائي همساً فاتلفت .

ـ « الآنسة التي استعارت الكتاب جالسة هنا ـ فاذا لم يكن لديك مانع أكون مسرورة بتقديمك لها وسؤالها أن تسلم اليك الكتاب بعد أن تنتهي منه » ـ همست الفتـــاة بذلك في أذني واشارت بأصبعها نحو الفتاة الاخرى

رددت في نفسي وقد خفق قلبي قليلا . « عندي مانع » . ! ! افترت شفتاي وتحرك لساني بسرعة ولهفة على الفور .

« لا ـ ليس عندي مانع ، بل بالعكس أكون لجميلك هـــذا شاكراً . . ! »

اتجهت الفتاة نحو الجانب الشرقي من المكتبة حيث تجلس

فتاة فى نحو الحادية والعشرين من عمرها كثيراً ما لحظتها بنظرى فى أثناء المحاضرات ، وأوقات العمل ، لفتنة جمالها وحسن قوامها . شعرها ذهبى أصفر لامع تزيده رونقا وبهاء أشعة شمس الصباح التى تتسلل من النافذة ـ وهى ذات عينين زرقاوين ووجه مستدير كل أجزائه دقيقة متناسبة ـ ذات قد أهيف ومنظر جذاب ويبلغ طولها نحو خمسة أقدام ونصف . وقفنا بجانبها ما يقرب من نصف دقيقة وهى مكبة على الدرس والتحصيل ـ فدنت منها أمينة المكتبة وهمست . ! أطلب منك السماح والعفو أرجو ألاَّ تكون ازعجتاك

رفعت الفتاة رأسها فى عظمة وجلال ونظرت قليلا إلى اليمين وكأن فى نظراتها سهاماً مصوبة . استمرت الأمينة وأشارت بيدها اليسرى الى الفتاة الجالسة .. هذه مس « كلير اسمث » . تقدمت بيدى اليمنى وأحنيت رأسى قليلا ونطقت على الفور . اسمى . . فقدمت الى الفتاة يدها وقالت : كيف حالك . . ؟

أشعر بسعادة لمقابلتك ـ مس . . !

تركت المكتبة فى حالة أسوأ جداً منى وقت دخولها . . ولست أدرى إذا كنت قد نزلت ماصعدته من السلالم درجة درجة أو كل ثلاث درجات أو أربع فى قفزة واحدة . . ذهبت إلى مقعدى وأنا أردد . . لقد كلمت أحداهن . . !! وهى جميلة

جذابة . . فى صوتها الشفقة والحنو . . حديثها إلىّ عن الكتاب كأنه ماء زلال . . وصوتها موسيق عذب . . و . .

غرقت فى بحر من التفكير ، وجلست إلى مجهرى « ميكرسكوب » صامتاً لاحراك بى ، ومكثت على تلك الحال حتى أيقظتنى هزة بيد على كتفى الأيمن . . التفت حولى . .

« ما الذى تفكر فيه ـ أتشعر بألم . . أم هو ألم الغربة Home Sickness . . ! »

« لا أشعر بشىء صحتى جيدة ، أشكرك يادكتور » . فرد قائلا

« ولكن ليست عادتك أن تتأخر عن الخروج للغذاء بعد الواحدة » . . ! أجبت

« عفواً ـ سيدى ـ أقول لك الحق أنى نسيت نفسى » وقمت مسرعا . .

تعودت أن أتناول طعام الغذاء مع صديقين وأحيانا ثلاثة من اخوانى الطلبة المصريين فى محل لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن الجامعة ـ وفى هذا اليوم وصلت متأخراً حوالى نصف ساعة فبعد أن حييتهم . قال أحدهم واسمه « . . . . . » على الفور

نحن على وشك الانتهاء ، وكنا نفكر فيك وفى صحتك خصوصاً قد ذكرت لنا بالامس انك تشكو عسر هضم من كثرة أكل البطاطس والرستبيف (Roastbeef) الذى لم تتعوده بعد

أجبت ـ « أشكركم ـ ليست صحتى هى السبب فى تأخيرى وأنما .... » وأخذت فى سرد ما حدث بالمكتبة . قبل أن أنتهى من حكايتى قاطعنى صديق آخر بقوله « يا شيخ سيبك من الجامعة وبناتها ـ ليس فيهن فايدة .....!! بملؤهن الكبر وهل نحن هنا رايحين نشغل عواطف ـ هوَّ فيه أحسن من بنات قهوة ... ومحل رقص ... والطريقة العملية ...!! »

فأجبت ـ أوف ـ الطريقة العملية ـ هى كل ما نفكر فيه . وبعد الانتهاء يعقب ذلك ملل الحديث وسآمة ـ مثل تلك الصديقة لا تعرف معنى للحياة ولا تفكر فيما حواليها إلا بعين ضيقة . ومحور حديثها يدور حول المسرح والخيالة « السينما » ونجومها . والفساتين الجميلة .... والمشروبات المنعشة و......

لم أنته من الرد عليه حتى اشتركنا نحن الأربعة فى جدال عنيف . وبدأنا نتكلم جميعاً فى وقت واحد ، كل منا يعزز رأيه حتى ابتدأ صوتنا يعلو . ونظر إلينا من حولنا ـ فهمَّ أحدنا من مكانه وقال : « اعملوا معروف! اقفلوا باب هذا الحديث فان جميع الناس ينظرون إلينا فى دهشة واستغراب » .

الى هذا الحد انتهت المجادلة ولم يقنع أحدنا الآخر ـ وليست هذه الحادثة هى الأولى من نوعها فانه كثيراً ما

حدث منا ذلك ـ ولست أتذكر أنه فى خلال الشهرين خرج معظم حديثنا عن « النساء والفتيات » ومخاطرات كل منا مع بعضهن .... وعن الأفلام السينمائية .. وبالجملة كنت أشعر أن جو وقت الغداء لم يتغير عن مثل ما تعودته فى مصر سوى أن أحتلتنا كواكب السينما ونجومها محل سياسة الوفد والأحرار الدستوريين والاتحاديين وغيرهم من الأحزاب المصرية المتعددة .

« مارى »

فى شهر مارس شعرت بحاجتى الشديدة إلى تعلم اللغة الألمانية : لأن معظم مراجع علم الحياة مكتوبة بها ولان علماء الألمان لهم القسط المعلى فى محاولة فهم مختلف « ظاهريات علم الحياة أو البيولوجيا » واتساع ميدانها . فهو علم يشمل جميع ماتحاط به الكائنات الحية من ظواهر طبيعية أو عوامل مفروضة عليها بحكم الوسط الذى تعيش فيه . لجأت إلى استاذ اللغة الألمانية بكلية الآداب بالجامعة فاعتذر فى رقة ولطف بعدم امكانى ممارسته ذلك العام لتأخر طلبى .... ثم صمت برهة وقال :

هناك فتــاة وصلت من ألمانيا هــذا العـــــام وهى تدرس آداب اللغـــــة الانجليزية ، كانت قـــــد أبدت رغبتها فى إعطاء دروس خصوصية فى الألمانية . . . . أتحب ذلك . . ؟

أجبت « هل لها خبرة فى التدريس قبل الآن . ؟ »

نعم . فهى حاصلة على دبلوم فى التربية من جامعـــــة همبرج . وفوق ذلك فإنى أؤكـد لك أنك ستكون مسروراً بالنتيجة . . . . . « إن أنت حفظت ما أخذت » . . ؟

ابتسمت من جملته الأخـيرة وشكرته ثم أعطانى العنوان لأكتب لها .

بعد يومين وصلنى خطاب تدعـونى فيه لتنـــــاول الشاى فى منزلها وتسأل أى وقت يوافقنى لذلك . . . ! والأمضاء . . . مارى شُـلَر .

فى اليوم وفى الساعة المحـــــددة كنت على باب منزلها فضغطت الجرس . . . وإذا بفتاة معتدلة القوام يبلغ طولهـــــا نحو خمسه أقدام ونصف ، تغطى رأسهـــــا خصائل من الشعر الكستنى اللون ذات وجه مستدير تسطع فيه عينان زرقاوان . وفم صغير تتوجه شفتان رقيقتان وبالجملة فهى رشيقه جذابة .

ابتسمت الفتاة فى وجهى وقالت « أظنك مستر . . . . »

نعم . . . . . . قالت : تفضل بالدخول . . ؟ قلت أشكرك

وبعد أن أغلقت الباب وكان المطر يهطل غــزيراً كما هي عادته فى هـــذا الوقت من السنه ، خلعت المعطف والبرنيطة وحملتها الفتـــاة إلى حيث علقتها قرب النار لتجف . ثم رجعت إلىّ وقالت « هل لك أن ترافقنى إلى غــرفة الجـــلوس . . ؟ »

صحبتها إلى غرفه كبيرة تحتوى على أساس فاخر يدل على سعة العيش ورخائه . وفى منتصف الحائط القبلى موقـــد التدفئه ، وقد وقف أمامه رجل وسيدة ، عنـــد وقوع نظرهما علىّ تقدما نحوى بخطوات مسرعة . قدمت الفتاة كلاً منـــا للآخر . « مســـتر . . . . » « مسز جونس » وزوجها « الدكتور جونس » . بعـــد أن تبادلنا التحية التفتت الفتاة إلىّ وقالت :

مارى شُلَر . . . . اسمى . فانحنيت قليـــلا ثم أجبت « مسرور لمقابلتك مس شُلَر » . جلست بجانب الموقد وبدأت الحديث مسز جونسن عن حالة الجو . وانها تتصور أن من الصعب على ساكن مصر أن يتحمل الجـو الانكليزى لبرودته وكثرة أمطاره ثم سألتنى اسئلة عدة ـ هل تحب هذه البلاد . . ؟ كم قضيت هنا وهل تحب ليفربول ومن فيها . . ؟

اشترك فى الحديث دكتور جونس وتناولنـا موضوعات

شتى من الجو إلى الألعـــاب الرياضية إلى الموسيقى إلى . . .
إلى . . . حتى إلى الحالة السياسية فى مصر .

فى أثنـاء ذلك كانت مارى قـــد اختفت وقتا من الزمن ثم عادت تحمل الشاى مع مايتبعـه من الحلوى ومختلف أنواع «البسكويت» . واصلنا الحديث أثنـاء تناول الشاى . واشتركت فيه مارى قليلا وكنت كلما تعمقوا فى نقطة من النقط وبدأ جهلى فيها يظهر لقـــلة محصولى ، حاولت أن أنقذ موقفى بتغيير مجرى الحديث إلى موضوع آخر . وعند الانتهـاء وقفت مسز جونس وتبعها زوجها ثم قالت :

« أظن أن بينك وبين مِسْ شُلَر حديثاً خاصاً فأرجـــو أن تسامحنى وزوجى ان نحن تركناكما لانهائه »

رددت على الفور : المسألة ليست سراً من الأسرار ويمكننا التحدث فيها فى وجودكما » .

فابتسمت مسز جونس وقالت : « نعم . ولـكن فى نظرى أنك ستشعر بحـــرية أكثر فى الـكلام » وتوجهت مع زوجها نحو الباب .

جلست مع « مارى » ما يقـرب من نصف ساعـة شرحت لها ما أريد وأى وقت أنسب لـكلينا . ثم جاءت أزمة المـكان وأين يتيسر لنا المقابلة دون ضياع الوقت . وأخـــيراً اتفقت

معها على أن تحضر الى غرفتى التى أشتغل فيها بالجامعة .

مَرّ على ذلك ثلاثة أسابيع اعتـــدت أن أرى « مارى » فيها مرتين فى الاسبوع ولاحظت عليها بعض الملاحظـــات أهمها :ـ أن ملابسها الخارجية (المعطف والبرنيطة) هى بعينهـا لم تتغـــير طول المدة . وأنها شديدة المحافظة على الوقت فهى دائماً تحضر فى ميعادها كما أنهـا تخرج بعد انتهاء الساعة مسرعة ولـكنها فى خـــلال مدة الدرس تشتغل بكل أمانة واخلاص حتى يبـــدو على ملامحها فى كثير من الأحيان النشوق الشديد بأن ترانى أجيد الألمانية فى أقصر وقت ممكن .

فى خلال ذلك الوقت كنت قد أكثرت من التردد على المكتبة ومحادثة « كلير » من آن لآخـــر حتى أنست منهـا أو ربما هى أشفقت علىّ لوحدتى فتطوعت بنفسها أن تسلينى وتسرى عنى وتزيل ذلك الصمت الذى كان يشملنى بين أوقات العمل .

وفى أحـد الأيام بينما كنت جالساً أمام « مارى » بأذنيـين صـاغيتين وعينين مفتوحتين لأرى حـــركات فم « مارى » وكيفية اخراج الحروف ونطق الكلمات ـ سمعت دقة على الباب فأجبت ـ اتفضل ادخل . . .

ـ هالو « كلير » ووقفت ـ نخطت « كلير » إلى الوراء ونطقت على الفور : آسفة جد الأسف لازعاجكما ـ لقـــد ظننت أنك

تشتغل وحيداً وعندى شيء أقوله لك » قلت : « بالعكس نحن مسروران لقدومك ـ أتشرف بأن أقدم لك مِسْ مَارِى شُلَر معلمتى الألمانية التى حدثتك عنها » ـ والتفت نحـــو « مارى » ـ وقلت : وهـــذه مِسْ « كلير اسمث » صديقتى ونحن فى فرقة واحدة . . .!

فبعد أن حيت إحـــداهما الأخرى نطقت كلير : « هناك جماعة من الطلبة والطالبات سيذهبـون إلى دربشير بعـــد غد (الأحد) للمشى على الأقدام وصعـود تلالهـــا ومرتفعاتها . يوم فى الخـــلاء (Rambling) وأنا سأذهب معهم ، فهـل تريد أن تحضر ؟ فأجبت « نعم أكون مسرورا »

ألتفتت كلير إلى مارى وقالت : « يكون لنـا عظيم الشرف إن أنت أردت مشاركتنا مس شُلَر . . !

فردت مارى : إن من أحب الأشياء إلىّ السير على الأقدام وسأبذل جهدى فى مشاركتكم .

ابتسمت كلير وقالت : « أتعشم » أن يكون « كامل » طالبا مجتهدا مطيعا يحفظ كل ما يأخذه »

فردت مارى بثغـر باسم : نعم . أنه مجتهد . واعتقـــد أنه سيتكلم الألمانية ويقرؤها فى وقت قصير .

ضحكت لهذا الرد لأنى لغـــاية الآن لم أؤد واجبـاً

منزليا ولم أحفظ درساً . وكثيراً ماوعدتها بأداء الواجب والمذاكرة وأخلفت ذلك .

فى الخــــلاء

فى صباح الأحد كانت « كلير ومارى » وكثير من الطلبة والطالبات على رصيف المحطة حيث شغلنا عربتين متجاورتين فى القطار الذى أقلنا إلى (بدربسبروك) فى القطار تعارف كل بمن جلس معه فى أجزاء العربة ، وعند تحرك القطار فاض البشر والسرور على وجوه الجميع وابتدأ الحديث عن الألعاب الرياضية ونتائج معظمها آخر الاسبوع (فالأرسينال قد غلبت البارحة ليفربول فى لعبة كرة القدم : إصابتين لواحدة وهكذا) ثم أعقب ذلك مختلف الأغانى واللعب على مايحمله بعضهم أو بعضهن من الآلات الموسيقية ، ثم إشترك الجميع فى الأناشيد الوطنية والأغانى الجامعية .

تركنا القطار والمطر منهمر فلبس كل معطفه وحمل على ظهره حقيبة بها مايحتاج اليه فى يومه من المأكل والمشرب .

قاد الجميع شاب فى الخامسة والعشرين من عمره فتركنا تلك البلدة الأثرية والتى تشتهر بأحد معابدها القديمة إلى الخلاء وهو

بين مرتفعات يبلغ بعضها الثلاثمائة قدم يغطى سطحها شجر وشجيرات قد نضرت غصونها وتفتحت أزهارها لقدوم الربيع وحملت أوراقاً كثيرة ذات لون أخضر زاه لم تر مثله عيناى فى جمال خضرته الذى يجذب الأنظار إليه . وأما المنخفضات فتكسوها الشجيرات والحشائش . وهنا وهناك مجار ضيقة يلفت النظر إليها خرير الماء فيها . وشدة انعكاس الضوء منها لصفاء مائها . وبالجملة فان الطبيعة قد خلعت على هذا الجزء من الفضاء حلة تبهج كل عاشق ومحب .

بعد أن قطعنا مايقرب من ثلاثة أميال بين صعود وهبوط أنس كل إلى صديقه أو صديقاته ، وتجاذب كل منهم أطراف الحديث فيما بينهم . وكان طبيعيا أن أكون ومارى فى صحبة « كلير » حيث لا أعرف صديقا أو صديقة إلا إياهما .

بدأنا حديثنا عن الجو وتمنينا لو كانت الشمس مشرقة فتكسب تلك البقعة جمالا فوق جمالها وتنعكس أشعتها على تلك الأوراق الناضرة والتلال العالية وذلك الماء الصافى النقي الذى يشق مجراه بين تلك الصخور. وابتدأت أعرض (أنكب) بالجو الانكليزى وكيف أن الشمس ربما غابت اسبوعاً تحجبها سحب كثيفة تدر علينا فى معظم الأوقات بالمطر والرذاذ - هذا عدا برودة الجو والتعرض فى كثير

من الأحيان وخصوصاً فى فصـــل الشتاء، وبدء الربيع برياح شمالية قارصه ونزول البرد والثلج .

سادنا بعد ذلك صمت وسكون ! كلمنا ينظر الى ماحوله بعين الاعجاب والاغتبـاط حتى كاد ينسى صاحبيه وإذا « بكاير » تلتفت إلى مارى وتسألها :

هل تعجبك هذه الديار مس شُـلَر . . ؟

نعم . انى أحب المعيشة فيها .

متى حضرت . . . . ؟

فى أوائل هذا العام الدراسي قبل « كامل » بثلاثة أشهر .

كم من السنين تعتزمين أن تمـكثى هنا . . . ؟

لست أدرى لأن هذا يتوقف على الظروف .

هل سنحت لك الفرصـة بالتنقل فى بلادنا المختلفة فى أثنـاء فرصة عيد الميلاد او عيد الفصح (Easter) ؟ .

لا .

هل لك أصـــدقاء بليفربول حتى لا تشعرى بالوحدة وألمهـــا . . . . ؟

لست أعرف أحداً خارج المنزل ـ وقد عرفتكما الآن .

إذن لى الشرف أن أدعوك لتناول الشاى معى غداً .

أشكرك كل الشـــكر مس « اسمث » ولـكن ظروفى تحتم

على عدم قبول أية دعـــوة خارج المنزل . فإن الوقت ليس وقتي . « ليس وقتك ؟ » تمتمت « كاير » ثم قالت : « أرجو أن تعفو عني إذا سألتك « كيف ذلك ؟ » فردت ماري : « طالما أردت أن أصارح « كامـــلا » كيف أعيش هنا لأنه ربما لاحظ عليّ المحافظة الشديدة على الوقت وها أنا الآن انتهست بك فأتشرف بسرد حكايتي عليكما :—

أن أبويّ لايزالان على قيد الحياة ، وسن كل منهما حوالى الخمسين . وأنا الابنة الكبرى لهما ولى أخوان وأخت ، أما الأب فقد قضى أربع سنوات من حياته فى صفوف الجهاد بكل أمانة واخلاص لرفع علم المانيا ورد غارات الحلفاء فى أثناء الحرب العظمى ، وجرح ثلاث مرات كان فى أحداها على وشك الموت ، إلا أن الله قد مد فى عمره ونجا من موت زؤام . بينما كان الوالد يقاتل تحت علم المانيـــا كانت الأم تشتغل ليلها ونهارها فى خدمتنا ، لا تألو جهداً فى التـــدبير للحصول على مايلزمنا من المأكل والمشرب ، ولو أننا كنا أتذكر ذلك جيداً فى أوائل عام ٩١٨ بعد أن ضيق الحلفاء كل خناق ونفدت جميع موارد الغذاء ، تحتم علينا أن نعيش مايقرب من عام على اللفت المغلى والماء . أصبحت الأسرة بعد الحرب الكبرى فى حالة يرثى لها فلم نمتلك شيئا من حطام الدنيا سوى نصف المنزل الذى نسكنه وقليل من الأثاث

ولكن الله لطف بنـــا وأتاح لوالدى أن يجد وظيفة مدرس فى مدرسة البلدة . (ثم هو لم يأل جهداً فى شغل ماالديه من وقت الفراغ فى الرسم أو التصوير أو الكتابة ـ ولد بطبيعته ابناً للفن ، وعبداً للجمال ، حتى استسلمت اليـه الطبيعة وفاضت روحـــه بحبها ، فأسلمت اليه قيادها ، تصورها فرشته على الورق ، أو يعبر عن جمالها قلبه ، أو تلعب بأناشيدها العذبة نغمات بيانونا القديم .)

على هذا الحال كما ذكرت ترك والدى ميدان المدفع والقنبلة والغاز الخانق الى معمعة الحياة ومعركتها الأبدية وليس له من معين سوى والدتى التى ينم وجهها على الحزم والعزم والشجاعة وسداد الرأى .

أما أنا فكنت بالمدرســة وكذا أخواى وأختى لاتزال صغيرة ، وكنا لانرى من الحياة سوى جمالها . لم يظهر لنا ابوانا شيئاً من عنائهما وما يلاقيانه من صعوبات وآلام . بل بالعكس لم يقع نظرنا عليهما الا وتلك الابتسامة فى وجوهنا مصحوبة بنظرة أبوية ملؤها الشفقة والحب والعطف .

عندما أتممت دراستى المدرسية أردت أن أجد عملا رفقا بوالدى الذى أجهده العمل حتى بدا لى أن كل سنة تمر عليه تزيد فى سنه أكثر من خمســة أعوام ، لم يوافق والدى على الفكرة وألح علىّ أن أستمر فى دراستى الجامعية ، فبعد ثلاث سنوات

قضيتها بجامعـــة « همبرج » تخرجت فى قسم الآداب وكان لى نصيب فى أن أجد عملا كمدرسة لمبادىء الانجليزية والألمانية والموسيقى فى أحدى المدارس الابتدائية .

وجدت أن ما أحصل عليه من المرتب يكفى لحاجتى ويزيد عنها قليلا . وسرعان مااستكشفت أن علىّ واجبا مقدسا لن أتمكن من اداثه ان أنا ظللت فى تلك الوظيفة ، فبدأت أفكر فى الحاضر والمستقبل ـ هناك والد قد أضناه التعب يشتغل نهاره وجزءا كبيراً من ليله ، ومع كل ذلك فان مايحصل عليه من أجر قلمـــا يكفى لحاجتنا ـ وأم لاحول لها ولا قوة غير أنها فى أى لحظة من اللحظات لاتبخل براحتها أن كان فى ذلك أية منفعـة لأى فرد من أفراد الأسرة ـ وأخوان أحدهما قارب الانتهاء من دراسته بالمدرســـة ، والثانى لايزال بأولها . وأما الأخت فهى أيضاً بالمدرسة .

الـكل يحتاج إلى مســـاعد ومعين . ليس فى الأسرة فرد لايستحق الشفقة به والرحمة ومد يد المساعدة اليه ،

جلست فى يوم من الأيام أسائل نفسى ، كيف مركزى فى هـذه الأسرة . . وبعد برهة رد صوت عميق من قلبى :

الآن وقـد كبرت وترعـرعت فواجبى أن أنضم إلى صف الحماة والمدافعين عن هؤلاء الذين لم يبلغوا السن القانونية بعد .

علينا أن ندافع عن هؤلاء كما تدافع الأسود عن أشبالها .
سألت نفسي ولكن ما الحيلة . ؟

بعد قليل من الزمن تذكرت أن أحد الموظفين كان قد ذكر لى أن مدارس البنات الثانوية فى حاجة الى مدرسات للغة الانجليزية ، وانه ليس لى أى أمل فى الالتحاق باحداها إلا إذا كان علمى بتلك اللغة ثلاثة أضعاف ماهو عليه الآن ،

بعد ذلك بدأت فى التقتير على نفسى حتى أصبح لديّ مايكفى مصاريف السفر إلى هذه الديار

استقلت من وظيفتى وبعد يومين من حضورى الى « ليفربول » أعلنت بجريدة الأكو « Echo » عن رغبتى فى الالتحاق بأسرة متوسطة الحال كخادمة ، وانتهى الحال إلى قبول تلك الوظيفة فى منزل دكتور انجليزى وزوجته ـ ذلك المنزل زارنى فيه « كامل »

وهنا قاطعتها بالسؤال : ولكن مارى كيف يمكنك أن تقومى بواجب الخدمة وفى الوقت نفسه تحضرين جميع محاضرات اللغة الانجليزية وآدابها بالجامعة ؟ فردت « نعم يمكننى ذلك بكل سهولة ، فلقد شرحت حكايتى للدكتور ومسز جونس حتى أننى بدل أن آخذ يوما كاملا ونصف يوم فى الأسبوع « الأجازة المقررة لخادمات المنازل » أصبحت الآن آخذ هذا القدر

من الوقت ساعات متقطعة أقضيها فى حضور ماذكرت من المحاضرات وفى اعطائك الدروس ، أما وقت المذاكرة فان الكتاب لا يكاد يفارقنى فى المطبخ أو فى غرفة النوم ، وبطبيعة الحال لم أتذكر أننى نمت أكثر من ست ساعات فى الليلة منذ وطئت قدماى هنا » . تنهدت عميقا ثم قاطعتها بقولى :

يخيل إلىّ ياماری أن حكايتك حلم من الأحلام فأنى لا أكاد أصدق أن فتاة فى سنك تفكر فى مخاطرات كالتى ذكرت فى سبيل تأدية الواجب .

هنا تحركت رأس « كلير » نحو كتفها الأيمن ونظرت إلى نظرة حادة ثم قالت : « لِمَ يدهشك أن فتاة فى سن «مارى» تلبى نداء الواجب عليها وتضحى براحتها وسعادتها فى أدائه ؟ » .

كان ذلك سهماً صائبا فلقد شعرت بحرج شديد وخجل عميق ، ثم انفتحت شفتاى ونطقت بصوت منخفض « لاشىء . سوى . . سوى . . » وهنا انعقد لسانى . . ولا بد أن لاحظت علىّ « كلير » حرج الموقف فنطقت على الفور « سوى أنك لم تتعود ذلك فى مصر ـ أليس هذا صحيحاً . . ؟

نعم ـ « هى الحقيقة المرة »

ولو أنها الحقيقة المره إلا أن الذنب فيها ليس على المرأة فان طمع الرجل وجشعه سلبها حقها الاجتماعى وشعورها

بالاستقلال ووجوب التفكير لنفسها واستخدام ماوهبتها الطبيعة من قوة العقل والتدبير . . » وهنا قاطعتها ماري ثم لفتت نظرنا إلى وجوب الحذر فى صعود أحد التلال مع الاسراع حتى نتمكن من اللحاق بباقى الجماعة .

مضت فترة من الزمن فى صمت وهدوء لم أسمع فيها سوى ازدياد حركة التنفس (النهجان) حتى وصلنا إلى قمة التل وقد أعيانا التعب وأجهدنا المسير . وهناك شاركنا باقى الجماعة وقد افترشوا الارض برهة من الزمن للاستراحة واطفاء ظمئهم بتناول الشاي الساخن الذى يحملونه معهم فى أقداح معزولة (ترمو Thermo) وأكل البرتقال وبعض السندوتش وتجاذب أطراف الحديث عن جمال تلك البقعة : خصوصا فى تلك الآونة التى فيها تبددت السحب ، وظهرت الشمس فأضاءت تلك المرتفعات ومايكسوها من شجر وشجيرات ، وانعكس ظلها على ماحولها من خضرة ، فظهر ذلك البساط الأخضر فى كثير من الألوان بين الخضرة الفاتحة الناصعة ـ والقاتمة .

قام دليل الجماعة وأشار علينا باستئناف المسير وذكر لنا أن الاستراحة الثانية ستكون بعد خمسة أميال من هذه البقعة ، فنظرت اليه فى دهشة ثم ساءلت نفسى : « ولم جئت إلى هنا . ؟ أنى لم أتعود السير كثيراً ولقد بدأ التعب يضنينى ـ ولكن ماالحيلة . ؟ لقد قبلت الدعوة . ليس هناك سوى الصبر والجلد . »

المرأة

نهضت من مكانى وشاركت « كلير » و « مارى » واستأنفنا المسير فى هدوء .

بعد أن انفرط حبل الجماعة وأنس كل برفقـــائه ورفيقاته واستأنفوا أحاديثهم التى قطعت فى فترة الاستراحة : بعد السير برهة نظرت إلى « كلير » وتحدثت بصوت موسيقى النبرات واضح : « أتسمح بأن تذكر لى شيئاً عن حالة المرأة فى مصر فأنى منذ نشأتى أخذت على عاتقى وجوب مســـاعدة جنسى ورفع مستواهن إلى حد المساواة مع الرجل وأن يخلقن لأنفسهن شخصية مستقلة تصطبغ بما وهبن من القوى العقليـــة وحب الفن والجمال » .

حـرت فى الرد عليها ثم قلت

ليس من شيء أقوله لك سوى أنه فى معظم الأحيان لم تتغير حالة المرأة عما كانت عليه فى بدء التاريخ . ووظيفتها هى أشباع شـــهوة الرجل النفســـية وحمل الأطفال والخدمة فى المنزل أو فى الحقل ـ لم يكتف بذلك الرجل فى مصر أو فى الشرق عامة وخاصة فى العالم الاسلامي ، بل عدها كسلعة تباع وتشترى وأن

هو رغب فى تركها نطق لسانه بكلمة واحدة وهي « الطلاق » وتخلص منها أسرع من تخلصه من حذائه القديم ، دون أن يعير نفسه لحظة واحدة للتفكير فى مركزها ، وأنها هى فى الحقيقة نصف الانسانية ، وأن لها من الحقوق مثل ماله .... قاطعتنى مارى بقولها : « ربما كان عذر معظم الرجال الذين يعاملون المرأة بمثل ماذكرت هو الجهل ولكن كيف حال رجال الدين ومركزهم أزاء ذلك ؟ »

فرددت عليها : رجال الدين ـ كما أعرف ـ يعلمون المرأة أن لافرق بين المرأة وبين الرجل فى الحقوق والواجبات أمام الله فأن تحلوا بالفضيلة والعمل الصالح كوفئوا ، وأن أذنبوا عوقبوا ـ ولكن فى الحياة الاجتماعية والقوانين الانسانية أنكروا عليها تلك المساواة وصارت تعامل كسلعة حتى أن بعضهم يشك بل يجادل بكل ما أوتى من قوة عما إذا كان للمرأة روح حقيقية لتستخدم مالديها من المواهب :

نطقت « كلير » « وكيف تنتظر من الرجل الذى سلب المرأة حقها فى جميع عصور التاريخ سواء أكان هذا الرجل ينتمى إلى الهيئة الدينية أو الهيئة الحاكمة : أكثر من هذه الأنانية وهذا الطغيان »

رددت عليها بصوت منخفض : « أخاف ألاَّ أعــرف شيئاً عن تاريخ علاقة الرجل بالمرأة » .

ابتسمت ماري وقالت : « لقد قرأت عن ذلك الشيء القليل أنا الأخرى - ولكن يظهر أن «كلير» تعرف عنه الشيء الكثير ؛ وأعتقد أن في قدرتها تنوير الطريق لنا قبل أن نصل إلى حكم في هذا الموضوع الحيوي الهام - فهو في الحقيقة عماد الانسانية وحجرها الأول » .

نظرت الينا « كلير » وقالت « نعم لقد قرأت عنه وسأحاول أن أسرد عليكما ما يزال يعلق بذاكرتي ولكن أسألكما الصفح والعفو إن أنا أخطأت في ذكر حادثة من الحوادث فأن ذاكرتي ليست قوية كما كنت أريدها » .

ضحكنا نحن الثلاثة ثم ردت عليها ماري « ليس لك أن تخافي فأننا نعرف عن هذا الموضوع الشيء القليل وفوق ذلك ليس أمامنا مراجع التاريخ ومجلداته » .

« إذن لنبدأ الآن - هل تعرفان ماحصل لآدم وحواء ؟ »

فأجبتها على الفور : هــذه الحكاية أعرفها جيداً فلقد سمعتها في « الكتَّاب » وهي أن حواء دفعت آدم الى الاقتراب من شجرة المعرفة والاقتطاف من ثمرها - ذلك هو السبب في طرد الجميع من الجنـــة وكنت أسمع كثيراً من التعليق على تلك الحكاية -

أن المرأة مصدر السوء لأن حواء بعملها هـــذا قد حرمت الانسانية من التمتع بالجنة ونعيمها .

ردت عليّ « كلير » بابتسامة عذبة « حواء لم تكن مصدراً للسوء وذلك دليل حي على أن التاريخ قد بدأ بنفوذ المرأة وقوة تفكيرها - آدم نفذ ما أمر به : قضية مسلماً بها - ولم يجهد نفسه في مناقشـــة تلك الأوامر - ولكن حواء بقوة عقلها جلست إلى ركن من أركان الجنة تفكر في سبب المنع من الاقتراب من الشجرة - وأخيرا فان قوة عزيمتها وحب المخاطرة فيها جعلاها توحي إلى آدم بالاقتراب من الشجرة .

ظهر بعد ذلك الانسان الأول يغدو ويروح على الأرض . ذلك الانسان لم يصلنا من تاريخه إلا الشيء القليل جدا في عادياته (Antiquities) . شاركت المرأة الرجل على قاعدة المساواة من حيث القوة العقلية والجسمانية ، فعاش الجميع بين الحيوان المفترس يطارده ، وأصبح للمرأة كما للرجل صفات المدافعة عن النفس ، ووقاية النسل ، والصبر والجلد على صعوبات الحياة .

ظهر بعد ذلك طمع الرجل وحبه لنفسه الذى دفع به إلى توزيع العمل - فبينما هو يمارس الحروب التى ولدت فيه الشجاعة وقوة الجسم والبدن كان قد سلب المرأة حقها وأصبحت له فريسة فى تلك الناحية .

ذلك لم يضعف من قوى المرأة العقليـة : ففى عهد الأغريق كان كثير من النساء رفيقات وصديقات وفى كثير من الأحيان الساعد الأيمن للفلاسفة وأهل العلم منهم حتى أن بعضهن قد أنرن الطريق لهؤلاء الفلاسـفة فصرن وحي ضمائرهم والنور الذى تهتدى به حكمتهم .

هؤلاء النسوة فى كثير من الأحايين تعدين حدود الوظيفة التى اختارها لهن الرجل على ضيقها « وهى الزوجية » إلى مثل أو أكثر مما اتصف به الرجل من عظمة النفس وحب الفضيلة والانسانية ففى (Pythias & Sibyls)و (Vestals & Valas) مثل ينطق بماوصلت اليه المرأة من مـكانة ورفعة وما تحلت به فى تلك الأيام .

تاريخ العصور الوسطى يشـهد أن ماتحلت به المرأة من الصفات لا يقل عن مثـل ما اتصف به الرجل من التدين وطهارة النفس وقوة القلب . وفى أيام عصر التجـديد الأول (Renaissance) ظهر عدد ليس بالقليل من النساء شاركن الرجال فى نشر الآداب (Classic Culture) وأحياء العلوم وأخذن قسطهن من الحرف والعلوم والفنون وتجولن فى ميادين السياسة والدين وكن عضداً للرجال الذين دافعوا عن الانسانية بوجوب التطور والارتقاء فى طريق الاصلاح .

شعرت المرأة فى ذلك العصر بوجوب مساواتها بالرجل فى ميدان الحياة ، ولو أن تلك الروح لم تخمدها مطامع الرجال وحبهم لأنفسهم والعمل على قتلها وهى لاتزال فى مهدها ـ لما كان هناك اليوم أو قبل اليوم بقرون عدة أى فرق بين المرأة والرجل من حيث تنازع القوة والمساواة .

وفى أيام الـ(Counter reformation)والحروب الدينية والأرثوذكسية الجديدة اضمحل مركز المرأة وانحصر واجبها « فى أنها كزوجة وزوجة فقط » فوظيفتها لم تتعد الزوجية وانتاج أكبر عدد من الاطفال للرجل الذى اختارها ، وأصبح الرجل السيد والحاكم المطلق فى المنزل : وبذلك ظن أن منزلته أقرب إلى الله من زوجته كما هى الحال الآن فى معظم بلاد الشرق .

عقب ذلك ظهرت تلك القاعدة الأساسية للبروتستانية وهى قاعدة « الاستقلال الشخصي » وأن لكل إنسان الحق المطلق فى التعبير عما يعتقد أنه الحق .

كانت حرية التفكير فى ذلك العصر هى النواة الأولى للحضارة الغربية وأساس نهضتها ومنبع ثروتها وبذلك أصبحت أداة للتقدم والنجاح وانتشار العلم والعرفان بخلاف ما أخذت به الحضارة الشرقية التى سبقتها من الجمود وضغط حرية الرأى وعدم الاستقلال الفردى .

ظهر في انجلترا في ذلك العصر « ملتون » الذى كتب عن حق الطلاق « وديفو Defoe » الذى أيد وجوب تعليم المرأة وتمرين قواها العقلية وتغذية نفسها بالعلم والعرفان ـ عقب ذلك (Comenius) في ألمانيا و (Fenelon) في فرنسا اللذان ألحا في وجوب تعليم المرأة .

ففي فرنسا في أوائل أيام النور (Age of Enlightment) كانت الصالونات التي أسستها جمعيات النساء هي التي أثرت في الحياة الأوروبية في ذلك العصر ـ وظهر نفوذ المرأة وقوة روحها في السياسة والفلسفة والعلوم . ولقد حل بعضهن في المركز الثاني للفلاسفة ورجال الدين والسياسة وأصبح لهن رأى جلي واضح حتى أخذن قسطهن في أثناء الثورة الفرنسية وكانت نتيجة هذه اليقظة وحيـــاة شعورهن انشاء (Women Lyceum) في باريس عام ١٧٨٦ على ما أذكر . والذى أخرج كثيرا من الطالبات اللاتي عضدن الثورة .

خلف ذلك عصر التجديد الثاني (Revival of feeling 2 nd Renaissance) الذى استهل بمختلف الكتابات الدينية ثم ألح في وجوب إطلاق حرية الرأى والتعبير عن الشعور وكان من ذلك ما كتبه « روسو » عن الدين والطبيعة والحب والأم ـ وشاركه في ذلك كثير من أدباء الانجليز والألمان حتى وصلت

الحركة إلى منتهاها فى كتابات شاعر الألمان الخالد « جيتا » وكانت نتيجة ذلك الأحياء للشعور كثرة عدد الكتاب ومحبي الفن ، وأصحاب الحرف من النساء ، وأصبح لهن شخصية مستقلة يفكرن لأنفسهن فيما هو أصلح لهن وللحياة الاجتماعية حولهن .

استمرت تلك الحركة على بطئها وما لاقته من روح الرجعية فى أثناء القرن التاسع عشر ، ولكن كان نصيبها الفوز والنصر فى بدء القرن العشرين ، وأصبح للمرأة فى معظم ممالك الغرب حق المساواة مع الرجل فى المنزل والأسرة والمجتمع ، وجلست مع الرجل كتفا إلى كتف فى دور العلم والجامعات ، وأصبح لها حق منافسته فى الحرف التى احتكرها لنفسه زمنا طويلا وفى بعض الأحيان بزته وبدت مواهبها وظهر ما أعطيت من قوة التفكير والا . . . .

وهنا سمعنا صيحة عالية تبعها هرج ومرج فأمسكت « كلير » عن الكلام واتجهت نظراتنا نحو مصدر الصوت واذا بالجماعة وبيننا وبينهم مايقرب من نصف كيلو متر قد تزاحم بعضهم مع بعض . فاسرعنا فى السير وعند اقترابنا منهم وجدنا أحدى الفتيات قد زلت قدمها فى أثناء صعودها فوقعت من منحدر يبلغ العشرين قدما ولكن من حسن الحظ لم يصبها عطب أو كسر سوى أنه قد حصل خلع فى قدمها اليسرى ـ ساعدها أحد

الشبان الأقوياء على المسير واستأنف الجميع السير وكانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد الظهر وقد أضنانا التعب فلزم معظمنا الهدوء والسكينة .

بعد حوالى نصف ساعة من تلك البقعة وصلنا إلى فندق صغير (Inn) حيث جلسنا جميعا للاستراحة وتناولنا بعض الطعام وشربنا الشاي ، وبعد أن استرحنا مدة قصيرة تركنا الفندق للسير مايقرب من أربعة أميال إلى المحطة التى وصلنا إليها حوالى السادسة مساء بعد أن أعيانى التعب وكدت أن أقع على الأرض مغشيا علىّ فى حين أن الشبان والفتيات يظهر على وجوههم الأنشراح ولم تبد على أحدهم أو إحداهن أية علامة من علامات التعب .

بطاقه

وصلت إلى المنزل حوالى التاسعة مساء وكاد التعب يضنينى فارتميت على مقعد مريح بجانب النار فى حجرة الجلوس ، ثم أخذ نظرى يتنقل من صورة إلى أخرى من الصور المعلقة على جدران الحجرة ومعظمها مناظر طبيعية أو صور من صور الجمال أوحاها الخيال إلى محبى الفن فتحركت أيديهم وبها الريش الدقيقة لتصوير هذا الوحي وأظهاره فى أجمل ثوب ، بعد أن أشبعت نفسى

من النظر إلى تلك الصور التى طالما رأيت فيها شـــيئاً جديداً يأخذ بلبي ، ويبتهج له قلبي ، تقلب نظرى بين تلك التحف القديمة التى تحتفظ بهـا سيدة المنزل والتى بعضها ـ كما قالت ذات مرة ـ لاتزال فى الأسرة منذ مايقرب من القرن والنصف يرثها الابن عن والده والبنت عـن أمها وهكذا . . . ! وبينما أنا غارق فى التفكير أحاول مقارنة القديم الذى يتمثل فى تلك المجموعة الصغيرة من التحف من دقـــة الصناعة ، ومهـارة الصـانع ، وصبره وجلده ، مع ما حولى من المصنوعات الحديثة التى هى وليدة الآلة (الحديد والنار) وعنوان السرعة ووفرة الاخراج (Mass Production) وفى بعض الأحيـان لم تلمسها يد بشر منـذ أن وضعت قطعـــة الخام فى الآلة إلى أن تظهر تحفة فى ثوبها وشكلها ـ لقد تغيرت الأيام ، وتحولت الجهود ، فبعد أن كان الانسان يجلس الساعات الطوال بل الأيام والشهور فى كد وجد لصنع قطعـــة واحدة ، حلت محله آلات البخار والكهرباء لاخراج أمثال تلك القطعة وآلاف منها فى زمن يعد بالدقيقة لا بالساعة واليوم . غرقت فى بحر تلك الأفكار وإذا بالخادم تدق البـاب فانفتحت شـفتاى وبصوت منخفض يدل على التعب والأعياء قلت « اتفضلى أدخلى » فقالت « ألك فى شىء من الطعام والشراب لاستحضره اليك سيدى ؟ » نعم ـ أنى أشعر

بظمأ ، فان أنت تفضلت فاسمحي بفنجال من الشـــاي مع قليل من الســـندوتش والحلوى . غابت الخادم برهة من الزمن ثم أحضرت إليّ ماطلبت ، وبعد أن وضعت كل شيء في محله على المائدة ، التفتت إليّ وامتدت يدها اليمنى تحوى ببطاقة صغيرة ثم قالت : هذه البطاقة لك «سيدى» تركتها فتاة كانت قد حضرت لزيارتك بعد ظهر هذا اليوم حوالى الساعة السادسة مساء ؛ هنا نسيت كل شيء من تعب واجهاد وامتـــدت يدى بلهفة نحو الخادم وأخذت منها البطاقة ونطقت على الفور فى رنة ووضوح :

« أشكرك . . . أنى لا أريد شيئاً أكثر من هـذا » وتسللت الخادم وأغلقت باب الحجرة . وراءها على الفور كانت يدى على البطاقـة ففتحتها وإذا بهـا تحوى بطاقـــة للزيارة على أحدى وجهيها اسم صاحبتها « كاتلين رتلف » وعلى الوجه الثانى

« حضرت لزيارتك فلم يسعدنى الحظ بمقابلتـك أرجو أن أراك فى وقت آخر » . كاتلين

مرت علىّ فـــترة من الزمن هاجت فيها عواطفى ، وسبح فكرى فى عالم الخيال ، ثم استيقظت من ذلك وأنا أقول فى نفسى كاتلين . . . كاتلين . . . لم أكد أصـــدق أنها حضرت لزيارتى . . نظرت إلى البطاقـة مرة ثانية وأنا فى شك وريب وإذا بيدى على الجرس فضغطته فحضرت الخـادم على الفـور

ثم قالت :

« نعم سيدى ؟ » فسألتها : « هـــل رأيت تلك الفتـاة التى حضرت هنا لزيارتى . . ؟ » « نعم سيدى - لقد فتحت لها الباب وطلبت منها أن تتفضـل بالدخول فى هـذه الحجرة لتتمكن من كتابة بطاقتها » - « أذن هل لك بوصفها ؟ » :

« نعم .. سأحاول ذلك . هى فتاة معتدلة القوام ، حسنة الطلعة ، ذات عينين ساحرتين ، وفم يكاد يتناثر منه اللؤلوء ، تغطى رأسها خصائل من الشعر الذهبى ، وعندما أمسكت قلمهـا للكتابة لاح لى أن أصابعها الطويلة الرشيقة كأنها قطع من العاج المصقول ، وبالجملة فأنها فتاة رشيقة جـذابة تتكلم بكل هـــدوء ووضوح كالآنسة المثقفة المهذبة .

فقلت لها بصوت خافت : أشكرك . - فخرجت

صرت بعد ذلك أتجول فى الغرفة من جانب إلى جانب ، ومن ركن إلى ركن ، حتى كدت أنسى الطعام على المائدة وأنا أقول فى نفسى « إذن هى كاتلين » ما أسعدنى هذه الليلة . . . ! !

لقد تشوقت إلى تلك اللحظة منذ أن وقع نظرى عليها عند ما قدّمت إليها وكان ذلك منذ خمسة عشر يوما فى منزل أحد أصـدقاء الأسرة التى أسكن معها .

جلست على المائدة وأمسكت بيدى واحدة من السندوتش

والتهمتها التهاما دون نظر أو تفكير . عقب ذلك شربت قدحين
من الشاى الساخن فشعرت بدفء . بعد أن أشبعت نفسى
من الأكل والشراب انحنيت برأسى على المائدة حتى استراحت
على كفى ؛ شمل جميع أعضاء جسمي سكون تام ، ثم سبحت فى
عالم الخيال عندما زارنى طيف كاتلين ، ذات القوام البديع ،
والوجه الجذاب ، وتلك الابتسامة العذبة التى سحرت نفسى
وجعلتنى أسيراً لها فى اللحظة التى عرفتها فيها ، فكنت أردد فى
نفسى ! الحب لأول وهلة .... ! ! هذا قد قرأته وسمعت
عنه الشيء الكثير ورأيته على اللوحة الفضية والخيالة المتكلمة .
ولكن كنت دائماً أعتقد أن لا وجود له وأنه لاشيء
سوى مخيلة المؤلف ، وتصوير الكاتب . الآن وأنا على أبوابه
أو فى الغالب قد اشتبكت فى حباله فيجب علىّ أن أومن به
وأصدق الحب لأول وهلة .... !

فى تلك الليلة الأولى التى عرفت فيها كاتلين ، شعرت بسهمه
القاتل قد صوب إلى قلبي فأحدث به جرحاً ربما يعي تضميده
كبار الأطباء ومشاهير علماء النفس والسيكولوجيا .... ولكن
نظرة واحدة إلى كاتلين تكفى لأن تنزل عليه بردا وسلاما ،
وبلسما شافيا . لقد أفرغت جميع حيلي فى الاقتراب منها فى تلك
الليلة الأولى والتحدث إليها وكم كان فرحى كثيراً ، وسرورى

عظيما ، عندما قبلت دعوتى إياها إلى تناول العشاء فى المدينة وتبع ذلك مصاحبتي إلى « تياترو الامبراطورية » لحضور رواية « أغنية الصحراء » (Desert Song) ولا تزال ذاكرتى تردد حديثها العذب فى ذلك الصوت الموسيقى البديع ، وبينما أنا سابح فى عالم الخيال وإذا بدقة على الباب أيقظتنى ، وقلت : « تفضل أدخل » .

« هل متعت نفسك هذا اليوم ؟ » ـ فاهت بذلك سيدة المنزل بصوت هادىء

« نعم . متعت نفسى كثيراً ، أشكرك . . »

« هل تريد شيئا هذه الليلة لأكلف الخادم استحضاره ؟ »

« لاأظن ذلك »

« أذن أقول لك « ليلة سعيدة » وأرجو أن تنام هذه الليلة نوماً هادئا . »

تركت المائدة . واقتربت من السيدة بخطوات متثاقلة وسألتها : من فضلك كم الساعة « مسز كورت » ؟

« الحادية عشرة ؟ »

« سأذهب أنا الآخر توا إلى الفراش فأنى متعب . . »

« أتمني لك ليلة سعيدة هادئة ونوما عميقاً . »

خرجت « مسز كورت » وبعدها ببرهة قصيرة كنت بغرفة نومى .

لعـــدم تعودي مسير تلك المسافات الطويلة كالتي قطعت فى ذلك اليوم ، فضلا عن صعود التلال وهبوطها ، تحت سماء لم تبخل علينا بالمطر والرذاذ فى معظم ساعات النهار ؛ عنـــدما استلقيت على الفراش شعرت بتعب كثير وأعياء حال بيني وبين النوم فلم يكن هناك بد من أن تستعرض ذاكرتى حوادث اليوم . وعندما وصلت إلى ماتحدثت به كلير عن مركز المرأة فى ماضيها وحاضرها ، رنت فى أذنى تلك الجمل البليغة بحق التى فاهت بها : « طمع الرجل وحبه لنفسه دفع به إلى «تجزئة العمل» « سلب المرأة حقها وأصبحت له فريسة »

أختار أن يكون « واجبها كزوجة وزوجة فقط لتحمل أكبر عدد من الأطفال » ، إلى آخر ماذكرت كلير

تحركت من جنب إلى جنب ، وأنا أفكر فى المرأة المصرية خاصة والشرقية عامة ، ثم عجبت كل العجب من أنها لاتزال فى حالتها الراهنة التى ورثتها عن العصور الوسطى ، لم تر تقدما أو تطورا . وأكثر عجبي : كيف أن علمـــاء التربية وفلاسفة الشرق وزعماءه والمشتغلين منهم بالسياسة وهم كثيرون قد أهمـــلوا نصف الإنسانية وعماد الأمم ، على أن مختلف الحكومات قد أرسلت كثيراً من الطلبة لارتشاف علوم الغرب ومن بين هؤلاء فريق من الطلبة لدراسة « فن المعمار » .

أنهم قد نسوا ـ أو عرفوا فتجاهلوا : أن المرأة هى « المهندس المعمارى للأمة » وعلى هذا يجب البدء فى تعليمها وتقويمها فتأخذ حقها فى الحياة كاملا ، وتؤدى ما يجب عليها لنفسها ولغيرها وهى فى ذلك طائعة مختارة . ربما كان ذلك « هو طمع الرجل وحبه نفسه » وكيف ينتظر من حكومات أو برلمانات أو زعماء من الرجال ، أن ينصفوا المرأة فيعطوها حقها ، ويردوا إليها ماسلبتها الأيام حتى تشعر بشخصية مستقلة تفكر فيما يصلح لها ولجنسها ، وفى الوقت عينه تقابل الجنس الآخر على وجه الحرية والمساواة ؟ فى مثل تلك الظروف تتمكن المرأة أن تقف بجانب الرجل لبناء الحياة السياسية والاجتماعية للأمة والتى أهم أغراضها : أن يكون محور المجتمع مع مايربطه من القوانين سواء أكانت سياسية أو اجتماعية هو سعادة الناشىء الصغير وتقدمه وتوفر أسباب الراحة للأجيال القادمة ؛ كأن يولد الطفل من أبوين صحيحى الجسم والعقل ، صالحين للأبوة ؛ وأن يكون لديهما من الثروة مايتيسر لهما معه تربية طفلهما على أساس قويم بتغذيته بما فى هذه الحياة من سعادة وقوة وجمال ؛ ويجب أن تكون الزوجة رفيقة زوجها لا أمة له ، سيدة فى بيتها ، مربية صالحة لأطفالها ، تقابل الرجل على أساس حرية الرأي والتفكير الشخصي ، لها أن تتصرف بما تعتقد أنه الصواب

فى تدبير شؤونها : أن يصرف الرجل مالديه من وقت الفراغ فى مشاركة الزوجة فى تعليم الأطفال وتقويمهم ، وأن يمتع نفسه مع زوجته وأطفاله بما فى الحياة الداخلية لمنزله والخارجة عنه من فرح وسعادة .

وأن يكون لغير الزوجة من النساء حق منافسة الرجل فى جميع الأعمال الحرة ومناصب الدولة . حتى إن هى لم تأخذ نصيبها من الحياة كزوجة وأم ، وجدت سبيلا لكسب عيشها وسد ماتحتاج إليه فى حياتها بدل أن تكون عالة على أهلها ومجتمعها .

وبالجملة فأن مجتمعاً مثل الذى أحلم به فى تلك اليقظة ستضطر الظروف فيه ووجوب التوازن بين الجنسين إلى أن تنال المرأة جميع حقوقها فى مختلف وجوه الحياه سواء أكانت اجتماعية أو سياسية .

وهنا شعرت أن التفكير قد أجهدنى فامتدت يدى إلى المصباح الكهربائى وأوقدته ونظرت إلى الساعة فإذا هى قد قاربت الحادية صباحاً ، أطفأت المصباح وأمسكت عن التفكير فى محاولة النوم .

دعـــوة

مضى على ذلك أسابيع قلائل كنت أرى مارى ســـاعتين فى الأسبوع أتلقى فى أثنائهما الدرس الألمانى، وكلير فى كثير من الأحيان بالمكتبة مكبة على درسها فأن العام الدراسى قد قارب الانتهـــاء وأصبح شبح الامتحان على الأبواب . وفى الوقت نفسه أكثرت من التردد علي زيارة « كاتلين » وسؤالها مصاحبتى إلى دور التمثيل ، أو الخيـالة ، أو المشي على الأقدام فى الهواء الطلق ، حتى صرت لا يهنأ لى عيش أو يهـــدأ لى خاطر إلا فى الساعة التى أكون بجانبها حتى فى تلك الأيام الأخيرة التى كنت فيها أحوج ماأكون إلى ساعات للقراءة والحفظ .

على هذا الحال أصبحت كاتلين جزءاً من نفسى ، فأن شبح قوامها المعتدل قد انطبع على ذاكرتى ، ونظرات عينيها قد ملكت جميع حواسى ، فصرت أرى الحياة حلوة بين شفتيها الرقيقتين اللتين طالما انفرجتا عن ابتسامة ملؤها العطف والحب .

لقد تركت كاتلين المدرسة منذ عامين تقريبا بعد أن جازت امتحان شهادة الدراسة الثانوية « Matriculation » وهى الآن تشتغل « كبائعة » فى أحد محال المجوهرات وقد اختارها لحسن هندامها ، وجمال عنقها ، وصفاء بشرتها ، حتى إذا مادعت

الحـــال كما هى العادة فى تلك المحال إلى أن تلبس فتعرض المجوهرات والحلى على جماعات الشارين والشاريات ؛ أكسبت هذه اللآلىء بهجة وزينة بجمالها ، وبهذا تغرى الناس بالشراء . أما وقت فراغها فقد قسمته بين لعب التنس والجولف ثم قراءة (الأدب الخفيف) من مختلف الروايات والقصص لكتاب العصر الحاضر أمثال « جلثويرثى ، وبريستلى ، وبنيت ، وولاس ، وولز . . . . وغيرهم . . »

على هذا لم تكن « كاتلين » بالمحدثة الذربة ، ولم يتسع نطاق تفكيرها حتى تجلس إلىَّ فتطرق باب الفلسفة والأدب والدين والعلم كما فى مقدرة كلير أو مارى ، ولكن يجب أن أعترف بين هذه السطور أنه كان لديها من المعلومات العامة مايكفى ويزيد فى بعض الأحيان عما تحتاج إليه فى الحياة العملية .

وهناك صفة أخرى من الصفات التى اتصفت بها كاتلين وهى قلة الكلام ، فلقد شاهدت عليها أنها مهما طـــال جلوسها لاتفوه بشىء إلا إذا سئلت ، وإن هى سئلت أجابت بصوت موسيقى عذب هادىء بكل اختصار ووضوح . .

استمرت الحـــال بيننا نحن الأربعة على ماذكرت من العلاقات إلى مابعد الامتحان .

وفى صباح يوم ٢٢ يونيه وصلتنى بطاقة من كلير تدعونى

فيها لمنزلهم مساء يوم ٢٧ لتناول طعام العشاء وسيتبع ذلك قليل من الألعاب الداخلية والرقص . تقول كلير فى دعوتها أن ذلك بمناسبة انتهاء العام الدراسى وإيجاد الفرصة لكل منا ليعرف ما اعتزم عليه الآخرون فى كيفية قضاء أجازة الصيف .

لقد تصادف أن وعدت كاتلين بمصاحبتها إلى أحدى صالات الرقص فى ذلك اليوم ، ولكن أمكننى الاعتذار بعد أن صارحتها بالسبب فقبلته .

وفى اليوم والساعة المحددين كنت على باب منزل كلير ، فاستقبلتنى بوجه باسم ، وأشارت إلىّ فتبعتها إلى حجرة الاستقبال وقدمتنى إلى من بها ، وكانوا أربعة من أصحابها ، أعرف من بينهم شابا وفتاة من الجامعة .

لم أمكث بالغرفة أكثر من ربع ساعة حتى وصلت « مارى » وفى صحبتها شاب طويل القامة ، عريض الكتفين ، واسع الصدر ولكنه ليس بضخم الجسم وهو فى تناسب أعضائه كثير الشبه بتماثيل الأغريق لآلهة الشجاعة والحرب ، ذو عينين زرقاوين ووجه مستطيل تزينه ملامح متناسبة دقيقة .

سمعت مارى تقدمه إلى كلير باسم « مستر كارل جونس » وأضافت إلى ذلك « ابن أخ دكتور جونس الذى حدثتك عنه كما تذكرين عندما قابلتك فى المرة الأخيرة »

اقتربت منا كلير تصحبها مارى وخلفها كارل فقدمتهما إلى الحاضرات والحاضرين .

بعد برهة من الزمن قدم إلى كل منا قدح من « الكوكتيل الجيد » وتناولنا الحديث عن الجو وبعض الألعاب الرياضية . ثم دخلت أحدى الخادمات بالمنزل وأعلنت أن العشاء أعد . فقادتنا كلير إلى غرفة الأكل المنسقة أحسن تنسيق ، وأهم مالفت نظرى عند دخولها هو تناسق الألوان بعضها مع بعض ، وثلاثة مناظر طبيعية بالزيت علقت على جدرانها . وعلى مائدة الأكل المغطاة بثوب من الكتان الايرلندى الناصع البياض ثلاثة أحواض من الصينى تملؤها أزهار من مختلف الألوان ، وتعطر برائحتها الحجرة .

كانت الأزهار بحق هى موضع أعجاب الجميع فثلاثة أو أربعة منا نطقوا فى صوت واحد « ماأجمل هذه الأزهار يا كلير وما أطيب رائحتها »

اقتربنا من المائدة وجلس كل منا على الكرسى المعد له فكان على يمينى فتاة اسمها « هيلدا لويد » وعلى يسارى « مارى »

ابتدأنا العشاء بشرب « نخب النجاح لمن جلسوا منا فى الامتحان » وفى أثنائه بدأت « هيلدا » الحديث معى :

« هل تحب هذه البلاد ؟ »

« نعم : لا باس بهـا . . »

« كم من الزمن مضيت هنــا ؟ »

« ما يقرب من ثمانية شـهور . »

« ثمانية شهور فقط : أنى أعجب لذلك فأنك تتكلم الانجليزية جيدا . هل تعلمتها فى مصر ؟ »

« نعم : لقد بدأتها منذ إثنى عشر عاما . »

« هل لك فى الألعاب الرياضيـة ؟ »

« قليل جداً من التنس والعوم . »

« ألم تحاول أن تلعب «كريكيت» أو «جولف» أو «هوكى» ؟ »

« آسف جد الأسف ـ لم أحاول ذلك »

على هذا النمط ، استمرت « هيلدا » فى حديثها معى عن الألعاب الرياضية والجو ثم الموسيقى والتمثيل وأشهر الكتب التى ظهرت حديثا « Best Sellers » وغير ذلك ، وفى كثير من الأحيان ظهر جهلى فى معظم النواحى وخصوصاً الموسـيقى والفن « وأشهر الكتب التى ظهرت حديثا » ولكن ذكاء هيلدا وقوة إدراكها جعلها عندما ترانى وتلاحظ علىّ الخجل تردف سؤالها بنكتة أو تسحبه بطريقة ماهرة حتى لا أشعر بالحرج أو الضيق فى مثل ذلك الظرف . . . وهو وقت العشاء .

من آن إلى آخر ألقى نظرة على الباقين فاشهد أن كلا

يتحدث إلى رفيقه أو رفيقته فى صوت منخفض هادىء لا يكاد يســـمع ـ ألا أن نظرات الفتيات الأربع تكاد تكون مقيدة « بكارل » فقلت فى نفسى :

لِمَ لا . . ؟ طويل القامة ، حسن الطلعـــة ، قوى الجسم ، هـــذا من تحلم به المرأة زوجاً ورفيقاً وفوق ذلك فأنه ليس لى لوم على أحداهن » إذ أن القوى فى العادة يجذب الضعيف إليه »

جلسنا طول مدة العشـــاء فى روح ملؤها الغبطة والسرور ولقـــد طرقنا كثيراً من الموضوعات العامة وأهمها الألعاب الرياضية والموسيقى والكتب ؛ وعند الانتهاء طلبت منا « كلير » بابتسامة عذبة أن نتبعها إلى حجرة الجلوس . فعلنا ذلك وجلسنا جميعاً فى دائرة واحدة كأسرة واحدة . وبعد قليـــل من الزمن أحضرت الخادم القهوة ، وفى أثناء شربها فتحت « كلير » باب الحديث عن كيفية تمضية أجازة الصيف ؟

أما هى فقالت أنهـا تفـكر فى تعلم الطيران ولقد أصبحت شغوفة به لدرجة أنها متشوقة للبدء بأسرع ما تستطيع .

وأما مارى فتنهدت تنهداً عميقـــا ثم قالت : لا أظن أننى سأستطيع مغادرة ليفربول وإن حصل ذلك فلن يكون اكثر من أسبوع . التفت اليها « كارل » وقال :

« أكون مسروراً جداً « يامارى » إن أنت صحبتنى إلى رحلة

فى سيارتى إلى اسكتلندا وسنمر طبعا على مقاطعة البحيرات الشمالية (Lake District) هذه الرحلة تستغرق على التقريب اسبوعا وأنت تعرفين مبلغ جمال هذه البقاع .

التفتت إلىّ « هيلدا » فى دهشة واستغراب ! ثم نطقت على الفور :

« أعتقد أن مس (مارى شملر) سعيدة الحظ لتكون بجانب كارل اسبوعاً ترى فيه شمال انجلترا وجمالها ، واسكتلندا وجبالها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ؛ نظرت إليها مارى بكل هدوء وسكينة وأصغت لما قيل ثم حولت نظرها إلى كارل وانفرجت شفتاها ، وتحرك لسانها ببطء ثم نطقت: « أشكرك كثير الشكر « مستر چونس » ، أعتقد أن ذلك شرف عظيم تخلعه علىّ ولكنى آسفة جد الأسف لعدم أمكانى « وعدك بقبول هبتك » إلا إذا سمحت لى الظروف »

استمر الحديث على هذا المنوال حتى جاء دورى فسألتنى كلير : « ماذا تنوى عمله هذا الصيف ؟ » فرددت عليها : « أننى أعتزم رحلة إلى القارة الأوروبية ولقد اتفقت فعلا مع « كوكس » على البرنامج لاستحضار تذاكر السفر .

فأجابت كلير : أنت الآخر حسن الحظ فكم تشوقت لزيارة فرنسا والمانيا وسويسرا والنمسا ولكن الظروف

لم تساعدنى بعد ، أرجو من صميم قلبي أن تتمتع برحلتك أكثر تمتع ، وأسألك ألا تنسانى فى الكتابة فأكون مسرورة إن أنت كتبت لى أهم ماتراه ، وطبعا عن مخاطراتك وما يحدث لك .

فأجبت باسما : « أشكرك كثيراً « كلير » سأفعل ذلك » .

امتد حبل الحديث حتى بلغت الساعة ٩ مساءً فنهضت كلير من مكانها ثم قالت : « ألكم فى قليل من الرقص فى الصالة ؟ »

رد الجميع فى صوت واحد : نعم نحن نحب ذلك كثيرا .

ذهبنا إلى حجرة الموسيقى أولا وبها « البيانو والكمان » ، وكثير من الآلات الموسيقية . فجلس كارل إلى البيانو ووقع قطعة موسيقية ، تطوعت هيلدا بغنائها ـ كل فرد من أفراد الجماعة ماعداي ، حاول العزف على إحدى الآلات التي بالغرفة حتى أن معظم الآلات كانت تشتغل فى وقت واحد وتعزف قطعاً مختلفة .

بعد أن هدأت تلك العاصفة الموسيقية التفتت هيلدا إلى كلير وسألتها عما إذا كانت تسمح لنا بالخروج إلى الصالة للرقص . أشارت إلينا « كلير » إلى الصالة وبها « راديو جرامفون » ولقد تحركت نحوه « كلير » وبعد برهة عزفت تلك الآلة نغمات الرقص الشجية .

قضينا أكثر من ساعتين بين الرقص وبين سماع

« Classic Music » وكان الجميع يجيدون الرقص سواى لأنى أولا ـ لم أتعلم تلك الرياضة البديعة إلا حديثا . وثانيا ـ أن قوامى لقصره لايساعدنى كثيرا على التحرك ببساطة وسهولة . وثالثا ـ أن أذنىّ ليستا موسيقيتين كما يجب حتى أتمكن من حفظ المسافة من الوقت بين نغمات الموسيقى المختلفة .

وأهم مالاحظته فى فترة الرقص هو تهافت الفتيات الأربعة على « كارل » وخاصة « هيلدا » فانها سألته مرتين ليرقص معها ، وفى أثناء الرقص معه كنت أشاهد أن لسانها لم يقف عن الحركة وأنها تنظر اليه نظرة ملؤها الشوق والحب . وأنهـا كانت تبذل جهدها للجلوس بجانبه وقتما يجلس الجميع للاستراحة .

عندما بلغت الساعة الثانية عشرة انفرط عقد الجماعة بعد أن لهجت ألسنتنا بشكر كثير ووالدتها لما لقيناه من الحفاوة والكرم ولقد عبرنا عما شعرنا به من السرور فأننا بحق قد متعنا أنفسنا حق التمتع .

سألنى كارل : أين تسكن . . . كامل ؟ — أسكن بموصلى .

— « هل لك فى مصاحبتى ومارى حتى أوصلك إلى منزلك فى سيارتى ؟ » . « أكون لك شاكرا »

أمام منزلى تركت سيارة كارل . بعد أن شكرته وتمنيت له ولمارى ليلة سعيدة ونوماً هادئاً .

الرحـــلة

غادرت ليفربول بعد ظهر يوم ٧ يوليه قاصدا الى القارة الأوربيـة وكنت من ركاب الدرجـــة الثالثة التى تتساوى فيها الراحة مع درجتنا الثانية : ففى القطار يلاحظ المسافر أن الشعب الانجليزى حسن الهـــندام نظيف الملبس لايتكلم لغوا ، مع حبه للمساعدة إذا طلبت منه . جميع أفعاله تصدر عن ديموقراطية حقة لامصطنعة ، فترى الكبير يداعب الصغير فى رقة ولطف ، وترى الصغير يردها فى بشاشة وأدب ، كأن الجميع خرجوا من منزل واحد ، والذى يدهشنى فى أخلاق هـــذا الشعب هو شدة تمسكه بالنظام ، كأن كل فرد من أفراده يمثل القانون ، ولن ترى شعبا يحـــترم قانونه كما يفعل الأنجليز ـ فالقانون فى جميع حركاتهم ، فى عملهم ، ثم فى لهـــوهم ـ فمثـلا أذا كانت أحـــدى عربات القطار مكتوبا عليها ممنوع التدخين ، فمعنى ذلك أنك لاتجد « سيجارة » مشـــتعلة فيها . لا أدرى السّر فى هذا غير أنى أعلله بسببين : الأول ـ هو أنه من مدة ليست بعيـدة كان القـانون الانجليزى غاية فى القسوة فـكان يوجب إعـدام من يسرق « نعجة » ، لهـــذا ورث الشعب الخـوف من القانون والعمل على احترامه حتى لايقع أحـــد تحت طائلة ذلك العقاب الشديد .

الثانى ـ التربية المنزليـــة وهى عنوان الأمم وسر تقدمها، فلقد بلغت أعلى مراتبها فى هذا الشعب . يشب الطفـــل دائما على حب النظام دون أن يؤمر بذلك . وكم كان إعجابى عنـــدما رأيت غلاماً حـوالى الرابعة من عمـــره ترك مقعـده بجانب والدته دون أن يستأذن منها وذهب إلى جانب نافـذة القطار علّه يرى شيئا : فلمـــا عاد قالت له ماترجمته الحرفية : أنني لن أفعـل هذا إلا إذا استأذنت من بجانبي . فرد الغـلام فى صوت هادىء : « آسف جدّ الأسف ياأماه ولن أعود إليه مرة ثانية » فـكانت هى النصيحة الحقة التى تتجلى فيهـا روح الديموقراطية فى الشعب، وليست فى صـورة الأمر المبتـذل مصحوبا بالتهديد والعقـــاب ـ وكان الجواب بردا وسلاماً .

اخـــترق القطار مقاطعتي لنكشير ودربشير وأرضهما ليست بالمسطحة، يتخللها مرتفعـــات ومنخفضات، وعلى المرتفعات يرى المسافر اشجـــاراً عاليـة خضراء والأرض تـكسوها الخضرة فى ألوان شتّى بين أخضر فاتح، وآخر يميل إلى الزرقه ـ والجـو غالباً فى هاتين المقاطعتين ثقيـــل الكثافـة لتشبعه بالأبخـــرة المتصاعـدة من مداخن المعـامل المنتشرة على طول الطريق حيث أن لنكشير هى المركز الأســـاسى للصنـاعات القطنية من غـزل ونسيج، وصنـــاعة السفن ـ

ودربشير (شفيــــلد) قد اختصت بصناعة الحـديد والصلب والآلات الحادة .

جميـع المحطات التي مر بها القطار بين ليفـربول ، منشستر ، شفيلد تزدحم بالعربات ، بعضها يحمل الفحم والحــــديد من المناجم المجـاورة وكذلك المواد الخام إلى هـذا المركز الصناعي الـكبير والذى كان يرى فيه العــــالم أجمـع فى يوم من الأيام مصنعا عالميا يستمد منــــه كل مايحتاجه فى هاتين الصناعتين ، والبعض الآخــــر من العربات يحمل المصنوعات إلى حيث لاتزال تزدحم بها أسواق العالم .

بعـد شفيلد ترى الأرض تقريبا مسطحة يتخللها قليـل من المرتفعات ، وهى أراض زراعية معظم حاصلاتها فى هذا الفصل الغلال والقرطم والبطاطس واللفت ثم العلف (Hay) وهذان الصنفان الأخيران يكونان غذاء للماشية فى فصــــل الشتاء وأهمها البقر والغنم ثم الخيل ، وتستعمل الخيل فى جميـع مرافق الزراعة ، وأما البقر فلا عمل له مطلقا حيث يربى للانتفاع بألبانه ولحومه كما هى الحال فى معظم الممالك الأوربية .

وصل القطار إلى هارتش فى الساعه التاسعة والنصف مساء وانتقلنا إلى باخرة هولندية وهنــاك شعرت بقليل من الوحشـة ولـكن لا يزال فيه من يتكلم الأنجليزية حيث لا أعرف غيرها .

أصبح الصباح ورست الباخرة على (Hook of Holland) وركبت القطار إلى روتردام حيث وصلت الثامنة صباحا . هنا شعرت بالوحدة ومافيها من لذة وألم ، فأشرت إلى الحمال بحفظ متاعى فى مخزن المحطة حتى العودة ، وصحبني إلى داخل المدينة رجل ألمانى يناهز الأربعين من عمره وهو لا يعرف من الانجليزية ألا كما أعرف أنا من الألمانية وذلك لا يزيد عن - هذا جميل . وقهوة . وسيجارة . وهذا البناء عال - سرت بجانبه وهو طويل القامة ، ضخم الجسم ، يمثل الشعب الألمانى فى عسكريته ، وكان كل منا يتحدث إلى الآخر بالأشارة والتمثيل .

مكثت متجولا بهولاندا ثلاثة أيام ، كنت فى خلالها شديد التشوق لمعرفة أكثر مايمكننى معرفته عن حالة البلاد الاجتماعية والسياسية وأهم ما لاحظته أن أهم الصناعات بهولاندا هى القائمة على الحاصلات الزراعية كالغلال والخضروات واللحوم والجبن والزبدة وتربية الحيوان الداجن . وتصدر هذه إلى البلاد القريبة منها (أنجلترا وفرنسا وألمانيا) على أن هولاندا لم تعدم بعض الصناعات ، فيها مناجم للفحم فى (Waaluk) وفيها الصناعات القطنية من غزل ونسيج ، وصناعة الأصواف والحرير الصناعى ، وصناعة الدخان ، والمواد الكهربائيه « فيلبس » المشهور بمدينة (Eindhouven) وبعض

هذه المصنوعات يستهلك داخل البـــلاد والبعـض يصدر إلى الخارج وبخاصة الى مستعمراتها .

لقد ذكر لى أحد الثقات أن هولاندا ـ عـــدد سكانها مابين الستة والسبعة ملايين نسمة ـ قلما تجـــد فيها هولانديا أصيلا لأنها تجـــاور ثلاثا من أكبر الممالك الغربية وهى (انجلترا وفرنسا وألمانيا) وقد اختلطت حضارتها بحضارتهم فتجـد الثقافة مزيجـــا من ثقـافة الأمم المجـــاورة ـ على أن الهولندى متوسط الحجم ، أميل إلى طول القامة منه إلى القصر ، دائما نظيف الملابس حسن الهندام ، يعيش عيشة ديموقراطية حقة وفى سعة من العيش ، حيث يستأجر العـــامل الذى يشتغل بالزراعة بما يقرب من ١٨٠ قرشـا فى الأسبوع ـ هـــذا عدا مايأخذه من الحقـــل الذى يشتغل فيه من البطاطس واللبن إذ يأخذ مايكفى حاجته . وربمـــا يرجع السبب فى رخاء هولندا إلى عدم اشترا كها فى الحرب العظمى .

والهولندى بطبيعته مشهور بالشفقة والأحسان يميل إلى السلم ، فبعـد انتهاء الحـرب الـكبرى أخـذت هولاندا عددا كبيراً من يتامى الألمان وتعهدت بتربيتهم وتعليمهم .

أما التعصب الديني فهو شـــديد بين الأهلين وينقسم السكان بين بروتستانت (ومعظمهم من أصـــل ساكسونى)

وكاثوليك حتى أنهم خرجوا بالدين عن معنـــاه الروحى إلى أن تحكم فى نظام هيئتهم الاجتماعية والسياسية، فتجـــد برلمانهم مؤلفا من عدة أحزاب ولكن أهمهـــا (الحزب الكاثوليكى والحزب البروتستانتى ثم حزب العمال). ولقد ذكر لى أن المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت قد أخـــذت حدها فوق الأذاعة اللاسلكية قبيـــل وصولى بثلاثة أســـابيع وانتهى الأمر أن ينصّف الأســـبوع بين الكاثوليك والبروتستانت مع الأذاعـــة العمومية. ترى مثـــل ذلك الانقسام فى المدارس والجامعات فتجـــدها أما كاثوليكية أو برتستانتية أو مدارس عمومية.

فى القطار الى هامبورج

وصلت إلى الحدود الألمانية يوم ١١ يوليه وهنا شعرت بالوحدة ومافيها من لذة وألم، فيالها من ساعة يرفرف فيها طائر الوحدة والناس حولى ولكن لاأعرف ماذا أقول، ويتكلمون ولا أعرف ماذا يقصدون، ويضحكون ولا أدرى ما الفكاهة.

كنت من ركاب الدرجة الثالثة وهى ذات مقاعد خشبية يباح فى معظمها التدخين وعـــلى وجه التقريب تشبه درجتنا

الثالثة ، إلا أن نسبة كبيرة من ركابها من الطبقة المثقفة الذين يعانون الآن ما خلفته الحرب العظمى من الفقر المدقع والدمار فى معظم الممالك التي اشتركت فيها وخاصة ألمانيا .

لاحظت أن عربات القطار تمتلىء بالدخان ، وأن الألمان يتكلمون كثيرا فى القطار بخلاف القطارات الانجليزية فأن هم تكلموا فقلما يسمع لهم صوت ، وأن كثيرا من الركاب يأكلون غذاءهم كاملا وهم على مقاعدهم وهى عادة نادرة الحصول فى قطارات انجلترا.

الألمانى ساكن الشمال طويل القامة ضخم الجسم تلوح عليه العسكرية واستعدادها ذو عينين زرقاويتين وشعر أصفر منسدل.

يلاحظ المسافر وهو يطل من نافذة القطار أن شمال ألمانيا مسطح الأرض كما هى الحال فى هولندا ومعظم حاصلاته الزراعية فى هذا الفصل من السنة القمح والقرطم والبطاطس واللفت ويستعمل الأخير غذاء للماشية فى فصل الشتاء حيث تتغطى الأرض بالثلوج فتجدب - والبرسيم والحشائش للمراعي ويسمى العلف . والألمان يعنون بتربية قطعان البقر ليأخذوا منها اللحوم والألبان ، وبالجملة فان أهم موارد ثروة شمال ألمانيا هى الزراعة وتربية الحيوان الداجن وتراهم يستعملون الخيل فى جميع أعمال الزراعة وخاصة الحرث والنقل بالعربات .

على طول الخط يرى المسافر كثيرا من طواحين الغلال التي تدار بالهواء وهذا دليل على ان الحدود الجغرافية لدولة ما لا يمكن أن تؤثر فى الشعوب كما يؤثر فيها روح الوسط « Environments » التي يتأثر بها التكوين الجسمى والخلق والعقلى - فتجد شمال ألمانيا وهولندا مطبوعين بطابع التشابه والتماثل .

لا يعدم الفنى وهو يجول بنظره من نافذة القطار السريع أن يرى من المناظر مايروقه ، فهناك كثيرمن الغابات تتخلل شمال ألمانيا ومعظم ما يغرس وما ينبت فيها من الأشجار العالية الضخمة هى الصنوبر والبلوط - فياله من منظر بالقرب من « Rotenburg » يأخذ باللب ويسحر الرائى : هو منظر حقل من القمح قد نضج فأصبح لونه أبيض يميل الى الصفرة الناصعة ، وأمام هذا الحقل استنبتت المرعى ترى فيها جميع ألوان الخضرة من لون باهت يميل الى الصفرة إلى أخضر قاتم ، وخلف حقل القمح غابة كثيفة أشجارها عالية ولونها أخضر يميل الى الزرقة تنفذ منها أشعة الشمس وتحجب بعضها . وكان وقت الغروب فاختلطت تلك الألوان الطبيعية الجذابة ، من أحمر فاقع كأنه جمرة نار تلتهب من أفق تكحل باللون البنفسجى البديع وسط لجة من السماء الصافية الأديم، النقية الزرقة .

لن يمكنني أن أفي ذلك المنظر حقه من الوصف مهما أوتيت من قوة الافصاح والتعبير . ولـــكن لابد له من ريشة مصور ماهر عشق الطبيعة فاسلمت إليه قيادها .

وصل القطار الى برمن ودخله لفيف من طلبة هامبورج « Technical School » يمثلون الشباب الألمانى فى عنفوانه، تبدو عليهم جميعا الصحـــة بأجلى مظاهرها ، فهم طوال القامه ، أقوياء الأجســـام ،كثيرو الحركة يمرحون ويلعبون ، فبعضهم يعزف على الآلات الموسيقية المختلفة ، والبعض يقرأ ، والبعض الآخر يترنم بأنشودة حب وغرام ، أو واجب ووطنية ،يعرفون كيف يصرفون وقت فراغهم فيما هو أجدى عليهم ، فيدخلون على أنفسهم الفرح والسرور . لا يميلون الى الدعة والكسل .

وصل القطـــار إلى هامبورج فى منتصف الساعة التاسعة من ذلك اليوم . بعد أن كنت قد اســـتأنست بركاب القطار أصبحت وحيداً فشعرت بالوحـــدة الشعور الحقيقى وما فى ذلك من ألم ولذة - أشرت الى الحمـــال بحمـــل متاعى خارج المحطة وقد فعــــل - ثم سألته هل تتكلم الانجليزية - فهز رأسه . أطرقت برأسى قليــــلا ثم صممت على أن أستعمل الاشارة إن أمكننى ذلك - وبينما أنا فى حيرة من أمرى لاحظ علىّ الحمال علامات الارتبـــاك ولا بد أنها كانت كثيرة بادية

على وجهي المتعب المضنى من مشـــقة السفر وطوله ،و فاه باسم « أوتيل » ـ وقد خفت أن أقولها ربما كان لها فى الألمانيـــة معنى غير معنى الفندق ـ فقلت على الفور : نعم .

كان الجوع قد أخذ منى مأخذه ففـــكرت فى نفسى : هب أنى دخلت محـــلا للأكل ـ وهب أنه ليس به من يعرف الأنجليزية ـ فماذا أطلب وأنا لا أعرف اسما واحداً من أسماء الطعام . فما الحيـــلة . . . !!

سنح لى خاطر سريع وهو أن بالمحطات عادة تباع كتب يستعين بها السائح والزائر ، فرجعت إلى المحطـــة وسألت عن كتاب من الأنجليزية للألمانيـــة يكفى حاجة المسافر . وأخيراً عثرت على ما أردت ، وقد حفظت ترجمـــة ما أريد . دخلت أحد محال الأكل ، وانزويت فى ركن من أركانها فلما جاء الجرسون ـ كنت قد نسيت ماحفظت ـ فسألني . . . فأومأت اليه برأسى ـ وسألته : هـــل تعرف الانجليزية ؟ ـ فهز رأسه ـ ـ وكان موقفاً محرجاً ـ فاضطررت أن أسحب من جيبى ذلك الكتاب الصغير ووضعته أمامى واخترت ما أريد (مكتوباً بالأنجليزية) وأشرت بأصبعى على الترجمة الألمانية .

لما خرجت من المطعم وأردت السير قليـــلا فى نفس الشارع قاصداً الى « فنـــدق المتواضع » لفت نظرى « معرض

للأزياء الحديثة » لحسن تنسيقه ، فوقفت هنيهـــة أطيل النظر اليها : وبينا أنا كذلك وإذا بفتـــاة ينم مظهرها على أنها ليست من « الصنف المحتشم » بدأت تكلمنى ، فهـــززت رأسى - عرفت انى حديث العهـد بهمبورج خاصة وبألمانيـــا عامة - فحاولت أن تترجم إلى الانجليزية ما معناه « هل تريد غرفـــة . . . ؟ » فأجبتهـا فى أدب ولطف « أن لى محـلا باللوكاندة . . . ! » قالت - لا بأس أن تصاحبنى مـدة من الزمن ثم تذهب بعـدها إلى اللوكاندة . . .

اعتذرت لعدم إمكانى ذلك . . . ! !

- شكرتنى الفتاة فى أدب ولطف . ثم انصرفت .

وليت وجهى شطر الفندق بخطوات متثاقلة أفكر فى مثل هـذه الفتاة التى تبلغ من السن نحو الخامسة والعشرين . لاتزال فى بدء حياتها . . . ثم تضطر . . ومن يعرف والأسباب كثيرة إلى أن تزج بنفسها فى حياة الشقاء وأن ترضى أن يكون جسمها سلعة تعرضه فى سوق المســـاومة على كل من يدفع فيه ثمنا . . . ما أشق الحياة وما أقساها على أمثال تلك النفوس البشرية . ! !

أمثال تلك الفتاة كثيرات بهامبورج وبمدن ألمانيا فتجدهن واقفات على المنعطفات ، واطراف الشوارع والحارات ، أو جالسات على المقاهى أو فى محال الأنس والطرب . نعم لقد سقط

الـكثيرات من النساء فى أوروبا الوسطى وخاصة منها فى الدول المغلوبة على أمرها فى الحرب الكبرى ، النمسا والمجر وألمانيا ، والتى امتدت اليها يد الفقر والشقاء فكثرت بها البطالة وأصبحت الملايين من رجالها ونسائها لا يجدون عملا ، وليس لديهم مايقتاتون به .

المرأة الألمانية قبل الحرب وهى الآن عام ١٩٣٠ - لم تخل مملكة من الممالك أو جيل من الأجيال ، ممن ذلت أقدامهن فوقعن فريسة الشهوة أو الحاجة - ولكن شـــتان بين عدد النسوة الساقطات عام ١٩١٤ وعددهن عام ١٩٣٠ .

إن كان عدد السكان فى ألمانيا قد تضاعف فان عدد تلك النسوة لست أغالى إن قلت : أنه ربمـــا قد ضُرب فى نفسه . . ولكن مالسبب . ؟

أننى طالب علوم ويجب أن يكون منطق سليما لا أتعجل النتائج بل يجب أن أفحص وأدقق فى المسببات لها

هل زين لهن الشيطان الانتحار على مذبح الحيـــاة إطاعة للشهوة النفسية الدنيئة . . ؟

هل تقدم الحضارة والمدنية قد قلب الكثيرات من المرأة الألمانية التى كان يضرب بها المثل الأعلى فى العفة وطهارة القلب وحب المنزل أن تخرج على تقاليدها الموروثة منذ اجيال . فيظهرن بذلك المظهر . . ؟

هل فقد أمثال تلك النسوة عاطفة الاخلاص لشخص واحد . . وهل انفصلت (فى حكمها) الروح من الجسد فأصبحت لاتجد غضاضة فى الاتجار بجسدها فتربح من وراء ذلك متعة النفس وكسب المال ، مع احتفاظها بالروح وهى الكنز المعنوى الثمين . . ؟

هل السبب ليس هذا ولا ذلك مما تقدم ذكره ، وانما هى الظروف القاسية المريرة التى اضطرت تلك البائسة المنكوبة وأمثالها أن تخر صريعة على مذبح التضحية والعفة . ؟ ولكن ماهى تلك الظروف مهما بلغت من القسوة والشدة حتى تستطيع ان تكون معولا يهدم الشرف والعفة .؟. هنا تختلف وجهات النظر وتتعدد .

ربما كانت تلك البائسة وأمثالها قد قدمت نفسها قربانا من أجل عزيز لديها ـ فلذة كبد ـ أم أقعدتها الحياة ـ أب أمتدت اليه الشيخوخة ـ أخ قاصر ـ أو أخت لا حول لها ولا قوة ـ ما أكثر أمثال هؤلاء المحتاجين وبخاصة فى أوروبا بعد تلك « المجزرة البشرية الهائلة والنكبة التى أثقلت كواهل العالم أجمع خلال أربع سنوات طوال كانت تحصد فيها المدافع والقنابل والغازات ـ وما إليها من مخترعات العلم الشيطانية ـ الرجال والمال والعقار والضياع حصاد الهشيم » .

مثل تلك الفتاة كمثـــل الشمعة التى تحترق فتضىء لغيرها وهى فى طريق الفناء .

ولكن هل تفنى الشمعة حقاً عند ما تحترق . . . ؟

الجواب : لا ـ المـــادة لا تفنى وانما تتحول من عنصر إلى عنصر ، ومن حالة إلى أخرى ـ المـاء سائل ، فان سخن تحول إلى بخار وانتشر فى الجو فأصبح لا يرى ، وان برد أصبح صلبا .

ذلك مثل الكثيرات من أمثال تلك الفتـاة يقدمن أنفسهن فى خشوع على مذبح الأعراض ، ويحتفظن بأرواحهن ، ويجدن بأجسامهن لمن عز لديهن ، فيجلبن إلى قـــلوب الأعزاء فرحاً ، ويخففن كثيرا من عبء الحيـــاة على من لا نصير لهم ، من شيخ هرم ، أو طفل لم يجن فى هذه الحيـاة شيئا ، فيجب أن تبتسم له . . .

كثيرات من هؤلاء النسوة الساقطــات اللاتى أخذن على عاتقهن نذراً كالتى ذكرت : تحـــترق أجسامهن ولكنها لا تفنى ، بل تتحـــول إلى ـ كم من البشر والفرح ، والطرب والسرور ـ وكم من عبء خففت بســـبب من ضحت ـ وكم من صغير كفلته وامتدت إليه يدها وهى آمنة مطمئنة تنقـــده ثمن احتراق جسمها ـ وان هى ظفرت من ذلك الصغـــير أو ذلك الشيخ الهرم بابتســـامة ملؤها العطف والحب ، تحولت

عناصر احتراق جسمها إلى ذلك الشيء المعنوي الذى تتغذى به روحها، فتقابل الله بايمان قوي وروح ثابتة.

الشعور بالواجب

مضى على هذا الحادث ما يقرب من الأسبوعين لست أريد أن أتعب قارئى فى تفصيل « كيف قضيتها متجولا فى شمال ألمانيا » همبورج - كيل - فلنسبوخ - هليجولاند - وغيرها، وانما أريد أن أثبت فى هذه المذكرات المتواضعة أنى وبعينى العلمية البحتة، المجردة عن التحيز والعقيدة، كنت أنظر نظرة المدقق الباحث كلما سنحت لى الفرصة لمعرفة عادات القوم، ومختلف نواحى حياتهم، ونظام مجتمعهم الأخلاقى والعملى والعلمى.

لاحظت أن سكان شمال ألمانيا فى كثير من ميولهم الذوقية والطبيعية أكثر الناس شبهاً بالانجليز - ولا غرابة فى ذلك إذ أن الجميع من أصل واحد - و تلك الديار هى الموطن الاول للسكسونيين، فهم يعشقون الطبيعة ويحبونها، يرون الجمال الحقيقى فى الخضرة والزهر، والحيوان والماء؛

فقلما تجد منزلاً ليس به حديقة مهما صغر حجمها ، وحيوان مهما قلت قيمته ـ كلب يلعب ويمرح ، أو قطة تموء ، أو بلبل يغرد ، أو حصان يصهل ، حسب مقدرة المالك وظروفه .

أما القوم أنفسهم فلا يزالون يحتفظون بتراثهم القديم ، وتقاليدهم العتيقة ـ يعتنقون المسيحية على المذهب البروتستانتى ويعتقدن فى الله حقاً ، ويقسمون جهد أيمانهم أنهم للوطن وفى سبيله (Vaterland) . يذكرون أسماء فردريك الأكبر ، وبارون فون اشتين ، وبسمارك وغيرهم ممن ضحوا براحتهم وسعادتهم وهنائهم فى سبيل الدعوة للوحدة الألمانية ووجوب الاتحاد ـ بكل خشوع وإجلال واحترام ـ لا يعترفون بهزيمة السيف والمدفع وما حل بهم بعد عام ١٩١٨ .

وكيف ينتظر منهم ذلك . . . ؟ بعد أن امتزج بدمائهم حب الوطن والاخلاص له ، فأصبحوا يرددون فى شمم وفخر « بروسى » « ألمانيا فوق الجميع » وان كانت « فرساى » قد قلمت أظفارهم باقتطاع أجزاء من وطنهم الأصلى يسكنها ألمان صرف أصليون وضمها لغيرهم من الدول المجاورة ، وبتحديد قوة دفاعهم عدداً وعُدداً والقضاء على الاسطول ، والاستيلاء على ما كان لهم من مستعمرات وراء البحار ، وأثقال كواهلهم بالديون والتعويضات ، مما كاد ينوء بها كاهلهم وتنشل بها حركتهم

التجارية ، وتنهار أمامها شهرتهم العالميــــة - إلا أنها عجزت عن أن تستأصل من دمائهم ، ذلك الحب الموروث لبلادهم ، والذى تمتلىء به قلوبهم فتبعثـه نقياً طاهراً فى شرايينهم ليغـذى كل جزء من أجزاء أجسامهم عند كل نبضة من نبضات قلوبهم .

نرى القوم يبتسمون للحياة مهمـــا عبست ، ويتحملون المصاعب والمشـاق ، يكدون ويعمـــلون فى صدق وأمانة ، يحرصون على وقتهم أكثر من حرصهم على نقـــدهم ، لا شىء أعز لديهم مما هو أنفع وأجـــدى عليهم وعلى وطنهم - لقـد أقسم الجميع يميناً لا يحنثون فيها أن واجبـــاً لزاماً عليهم إحياء ألمانيـا وبعثها من جديد ، بعد أن امتـــدت إليها يد العبث فى سياستها ؛ وكادت الفوضى تحل فيها محل النظـــام ، حتى طرب لذلك أعـــداؤها الذين يراقبون مجـرى الأمور فيها عن كثب وكيف أن سياسة الهدم والتفرقة والقضاء على الوحدة الألمانيـة التى طالما منوا أنفسهم بأنها ناجحـة فان السوس متى ابتـــدأ فى النخرفانه ليس من الهين استئصاله .

ليس من العسـير أن يلاحظ السائح بتلك البـــلاد ذلك المجهود الجبـــار الذى يقوم به كل فرد من أفراد الشعب فقد نسى أو تناسى جميع الفروق الطائفية والاختلافات الاجتماعيـة (Class Distinction) وأصبـح لا فـــرق بين غنيهم

وفقيرهم - كلٌّ يقـــدم قربانه حسب ما فى استطاعته على مذبح التضحيـة للوطن العزيز - قام الجميع بتأليف جبهة قوية لإشهـاد العالم أجمع على أن بالبلد رجالا لا يقبلون الضيم ولا يؤخذون بالوعود الكاذبة - يريدون انتصاراً أدبيـــاً فى معركة الحياة ، ويرددون بقلوب عامرة بالايمان « ألمانيا فوق الجميع » . ولـكنهم فى هـــذه المرة لن يلجأوا إلى السيف والمدفع فليتناسوا عسكريتهم ولو ردحاً من الزمن إلى ما هو أحد وأمضى .

أتدرى ماهو أيها القارىء . . ؟

هو الانتصار فى معركة المارك والجنيه والدولار . ! ! تلك المعركة التى اشـتد وطيسها وحمى فى هذه الأزمة العالمية الخانقة . والتى كادت تصرع أمما كبيرة طالما جاهرت بثرائها وبمقدرتهـا على الشراء لما لديهـا من كنوز الذهب والفضة ومن موارد ظن الكثير أنها لاتنضب .

لـكى يتسنى للألمان النجاح فى هذه الحرب المعنوية المادية ، وجد أقطابها أن لابد للوصول إلى غاية واحـــدة مهما عانوا فى ســـبيل ذلك ، فلا شىء أعزمن أن تنتصر فـكرتهم القومية ، هذه الغاية هى نشر تجارتهم ورواج سلعهم فى جميع الأسواق العالمية رغم مابذته الممالك والدول الأجنبية من قلاع وحصون ، بارتفاع التعاريف الجمركية ، وقوانين حماية المصنوعات الاهلية

من المنافسات الأجنبية ، وعراقيل المعاهدات التجارية ، وتعقد الطرق الدبلوماسية وما الى ذلك من الصعاب ـ رأى الألمان العاملون أن أقوم السبل لأدراك غايتهم هى تخفيض أثمان الانتاج لبضائعم إلى أدنى حد يتمكنون معه من مناهضة المنافس والكفاح فى هذه المعركة العالمية .

لقد دوى صوت الواجب فى جميع أنحاء بلاد الريخ ، فردد صداه كل فرد حسب استطاعته ونزلت فى مدة قصيرة أجور العمال (المهرة منهم وغير المهرة) إلى النصف أو أقل منه ، وكثرت ساعات العمل عن طيب خاطر ، وأقبل الزراع وفلاحو الأرض على استعمال الطرق العلمية الحديثة من ري وتسميد وانتقاء للبذور وما الى ذلك مما أنتجته بحوث الباحثين وتجارب المتقدمين والمعاصرين ، واستعملت الآلة فى جميع مرافق الزراعة (بدل الماشية والمحراث والساقية عندنا) وأصبحوا لا يحفلون بالمحافظة على القديم ، ولا التمسك بأهدابه ، وعرفوا حقا ان هذا عصر صراع ، فالهجوم فيه أضمن من الاستكانة ثم محاولة الدفاع . ولا بد للهجوم من جبهة منظمة يقظة ، سريعة الخاطر قوية الحركة ، لذلك كان لزاما عليهم استعمال الآلة مادام العصر يتطلب السرعة وعدم التوانى .

هذا ما كان من أمر سواد الشعب وأما ما كان من أمر الطبقة

المتوسطة والعليا فلقد قدموا من التضحية بمقدار ما فرضه عليهم الواجب أو أكثر ، إذ خفضت مرتبات الموظفين وخف العبء قليلا عن ميزانية الدولة ، وزيد فى فرض الضرائب على الأغنياء الملاك منهم وأصحاب الأعمال لمصلحة التجارة أولاً ، ولمساعدة الستة ملايين من العمال الذين لايجدون لانفسهم عملا - ولكنهم جزء من المجتمع فهم منه واليه ، وعليه أن يتكفل بأيوائهم وإطعامهم وتعليم أبنائهم ، ليخففوا عنهم بلواهم ، وليشعروهم أنهم يشتركون معهم ماديا وأدبيا فيما أصابهم من فاقة وفقر .

أسرة فى « كيل »

كانت « مارى » قبل مغادرتى (ليفربول) قد حدثتنى كثيراً عن مدينة « كيل » وأغرتنى كثيرا على زيارتها وأعطتنى بطاقة بعنوان أسرة تربطها بها صلة الصداقة والألفة والمحبة حيث كانت البنت الثانية لهذه الأسرة زميلة لمارى أيام دراستها الثانوية والعالية .

وصلت « كيل » وحيدا فى مساء احدى ليالى يوليو القمرية وكان النسيم عليلا ، والجو صحواً ، والسماء صافية الأديم .

وبعد أن استرحت قليلا خرجت الى السـير فى شوارع المدينة ، لا أحفـل بصوت العربات ولا اريد أن أقيد نظرى فى تلك العزلة بشىء لا يروقنى ، وعلى الأخص أنى لم أقصد الى جهة معينة . فلست أريد أن أتابع السير الى آخر الشارع أو ينتهى بى المسير الى مكان أرغبه - كل شىء بدى على ظاهره إن لم يكن جميـلا ، فهو على الأقل مشوق أما لنفسـه ، او لما يحويه من مغزى غامض لم أتعرفه بعـد - والذى يمكننى أن أسجله على مدينـة « كيـل » أن مظهرها يدل على الهرم وشىء من الضيق والفاقة ، فـيرى زائرها ان رصف شوارعها غير منتظم كما ان مبانيها يبدو عليها القدم ، وقد ندرت المادة اوكادت من جيوب معظم الألمان ، فعجزوا عن ان يظهروا عظمة المدينة وطرقاتها العامة على احدث طراز وانسق تنظيم .

ما كاد الليل يمضى حـتى أفرغت مجهودى فى صباح اليوم التالى للاتصال بالعائلة صديقة « مارى » حتى تم لى ذلك وقد دعيت لتناول الشاى فى الساعة الرابعة من نفس اليوم .

قبلت الدعوة وما تحملته من مشقة التنقل من ترام لآخر ، ومن سؤال « كمسارى » لآخر ، حتى وصلت الى المنزل ، وفيه استقبلنى رب الدار وهو شيخ جليل طويل القامة أبيض الشعر مفتول الشاربين وسلم عليّ منحنيا فى أدب واحترام .

لم أنته من مصـــافحته حتى رأيت باقى العائلة فى انتظارى تتقدمهم سيدة جليلة عليهـــا سمة الهيبة والوقار فقدمنى الشيخ الى أفراد العائلة ولم ينس منهم أحدا .

هذه زوجتى ... وهذا ولدى الأكـــبر فرتز ... وهذا وليم وهذه آنجس ثم صغيرة العائلة مارلين .

تبعت الشيخ الجليـــل الى حجرة الاستقبال ، وهى غرفة واسعة مؤثثة بأثاث معظمه من تراث الجيل الغـابر وتحفة ثمينة تعبر عن مهارة من صنعها ـ يدل مظهر ذلك الاثاث على أن توالى الأيام وكر الأعوام لم ينالا من فخامته وحسن تنسيقه الا القليل .

لم أكد استقر فى مجلسى أمام النـافذة الغـربية حتى جلت بنظرى لمشـاهدة مجمـــوعة نفيسة من الصور الزيتية التى تحلى جدران الغرفة ، ولم ينس من اختيـــارها أن يضع بينها صورة الرئيس هندنبرج ، فهو رمز الوطنية ومعبود الشعب الألمانى .

كان اليوم صحواً ، والشمس قد قاربت الغروب ، فانعكست منها أنوار زاهية على جدران الغرفة وما فيها من أثاث وصور فنية ملأتها بروح العزة والكبرياء ملكت علىّ مشاعرى ، حتى كدت أنسى ولو برهة قصيرة من الزمن أصحاب المنزل وأفراد الأسرة ، وخطرت ببالى سلسلة من الأفكار المتقطعة غير المنتظمة . هذه الأسرة ذات مجد وعز قديم يدل عـــلى ذلك قدم الأثاث

مع فخامته . . . !! هل عجزوا عن التجديد حتى يحلون محله أثاثا من آخر طراز . . . ؟

ربما ضاقت ذات أيديهم وليس لديهم من مال ما يتمكنون من ان يستبدلوا به غيره . . . !!

ربما كانوا من هواة القديم وجمع التحف الفنية الثمينة . . ان كان هـــذا او ذاك فالشيء الذى لا شك فيه « أن عندهم ذوقا » ترتيب فنىّ منسق ، جميع قطـــع الأثاث التى بالحجرة منسجمة ، واختيار الألوان يدل حقا على ذوق فنىّ سليم .

التف حـــولى جميع أفراد الأسرة ـ ما عـــدا آنجس التى اختفت .

بدأوا يتحدثون إلىّ فى موضوع القصـد من زيارتى ألمانيا وهل أنا أحب بلادهم . . ؟

وأى البلاد التى زرتها . . أفضل . ؟

وكم من الوقت أعتزم أن أمضيه فى كيل . . ؟

وما الى ذلك عن حالة الجو ، ثم انتقل بنا الحـــديث عن « مارى » ـ وكم هى بنت مخاطرة لا تعرف الخوف . ولكنها فى الوقت نفسه فتـــاة ذات قلب حنون ينفر من القسوة وتجتذبه الشفقة والأحسان .

وفى اثناء الحديث دخلت « آنجس » وأعلنت ان الشاى قد

اعد ، فانتقلنا جميعا الى مائدة الطعام ، وتناولنا من الحديث شتى الموضوعات ، فعلمت من سير الحديث أن الشيخ كان يشغل وظيفة مرب بأحدى المدارس وهو الآن فى دور التقاعد ، وان الابن الأكبر « فرتز » طالب طب بجامعة كيل

وآنجس بالجامعة نفسها تدرس علم الاجتماع و « وليم » و « مارلين » بالمدارس الثانوية .

لم تمض فترة الشاى ونحن فى الحديث نصول ونجول حتى شعرت بائتناس عظيم ، ولقد أفسحوا لى صدورهم جميعا حتى خيل إلى أنى تشرفت بمعرفتهم شهوراً بل أعواما لا ساعة او دقائق معدودات .

وهنا يجب على أن أسجل لقارئى أن الفرق كبير والهوة واسعة ، بين إمكان التعرف بالألمانى والاختلاط به مع الائتناس والشعور برفع الكلفة والاحتياط - وبين الصعوبة التى تعترى « الغريب » وخاصة الشرقى فى سبيل التعرف بالانجليزى - فان الأخير مهما كانت درجته الاجتماعية فهو « محافظ » غالباً - صعب عليك أن تكلمه إلا إذا قدِّمْتَ اليه ، وان أنت قدمت اليه فصعب عليك أن تتكلم معه كثيرا - لأنه لا يتكلم عادة الا اذا سئل ، وان هو سئل أجاب اجابة قصيرة متمسكا بالمثل القائل « ان كان الكلام من فضة فالسكوت

من ذهب ، والانجليزى كريم فى منزله ، صـــادق فى قوله وفعله إلا أن جمـوده وعزلته مع مايتبع ذلك من الـبرود الذى ورثه بطبيعته ، كل ذلك جعل معرفته أمراً ليس بالهـــين .
وليس لأجنبي أن يدعى معرفة الانجليزى المعرفة الحقـة لأول مقابلة ولا بد لذلك من مقابلات ومقابلات . . . وأظرف ماسمعت فى هذا الشأن حديث مع أستــــاذ أنجليزى عرفته مدة سنتين حتى بلغ بى الأمر أن أصارحه القول والفعل .

قلت : أنى أكره الانجليزى لتحفظه ونفوره من النــــاس وخاصة الأجنبي فهو بذلك مثـل الارستقراطية المبتذلة وعـدو الديموقراطية .

قال : أنى أخاف أن أصارحـــك أنك لست على حق فيما تقول .

قلت : ولِمَ . ألك أن تفسر لى تلك الظاهرة ، فهـو فى العالم كله مشهور بأنه محافظ ومتكبر « Snob » .

قال : ليس الانجليزى عـدوّ الاجنبى مهما كانت جنسيته أولونه ولا هو « متكبر » أو مغـــرور بنفسه وقوته ، ولـكن حياءه وعدم قدرته على رفع الـكلفة فى الحـــديث ، وأظهار العواطف النفسية ، وخجله من الناس ، تجعله يفر منهم أذا لم يكن قد سبق له التعرف عليهم .

قلت : وعلى فرض أنه تعرف على الناس فأنه فى أحيان كثيرة يظهر أمامهم كأنه قطعة من الثلج ولكنها متحركة .

قال : يحسن أن أختصر لك حديثى بأن أقص عليك قول والدى لى مرة ، وهى كلمة لازلت أذكرها منذ كنت صغيراً « لابد للأنجليزى لكى يعرف أخاه الأنجليزى المعرفة الحقة أن يعاشره خمس سنوات ، وعلى الأجنبى أن يصبر أضعافها حتى يتمكن من ذلك » .

قلت مبتسماً : « سيدى . الحياة قصيرة وليست هى بالرخيصة حتى نضيعها فى معرفة اثنين أو ثلاثة من أبناء جنسكم » .

انتقلنا جميعا إلى غرفة الجلوس وبدأ الشيخ يقص علىّ تجاربه فى الحياة فى مهنته وفى حياته العامة وكان يجيد الانجليزية فينطق بها كأحد ابنائها غير أن هناك تلك النغمة الألمانية لاتزال تمتزج بمخارج اللفظ والكلمات . وعندما تعرضنا فى الحديث إلى الحياة الجامعية فى ألمانيا ومثلها فى انكلترا قال الشيخ بصوت جلىّ وعبارة واضحة : « أننى أعتبر أن طلبة الجامعات البريطانية لم يتقدموا كثيراً فى نظامهم عن أيام كانوا بالمدارس الثانوية فهم فى كثير من الوجوه لايزالون « School Boys » .

قلت : وكيف ذلك فأنى أجل النظام الجامعيّ بانجلترا

وأحترمه وأحبه .

قال : لكل مذهبه ورأيه ولكنك سوف ترى أن نظامنا يختلف كثيراً عما هو متبع فى الجامعات الانجليزية ، وخاصة بعد الحرب الكبرى حيث أصبح الكثير من طلبتنا يعانى آلام الفقر والفاقة ، فأنى لا أغالى أن قلت لك أن ٨٥ من كل مائة من الطلبة الألمان فى عوز وضائقة مالية ؛ ولهذا تركنا لهم الحبل على الغارب ليدربوا أنفسهم ، فيكدوا ويعملوا ، ليكسبوا بعرق جبينهم فى الأجازات التى تبلغ الستة شهور من كل سنة مايمكنهم من أن يحصلوا على مايعيشون به مدة دراستهم وما يتحملونه من مصروفات جامعية وغيرها . ونحن من ذلك نقف موقف الملاحظ المدقق الذى يسدى النقد فى ثوب من النصح والأرشاد ، لانريد أن نسوقهم إلى العمل سوقاً ، ولانلقنهم الدرس فى ساعات متواليات من الحصص والمحاضرات وما إلى ذلك كما هو متبع فى انجلترا . وهمنا الأكبر أن نعدهم للحياة رجالا يقابلون صعوباتها ويروضون أنفسم على قهرها .

قلت : هل لسيدى الأستاذ أن يختصر لى قوام الحياة الجامعية فى ألمانيا فى جملتين أو ثلاث . ؟

أطرق الشيخ برأسه على الكرسى المريح الذى يشغله وأغرق

فى تفكيره برهة قصيرة من الزمن ـ ثم اعتدل فى جلسته وقال سأحاول . . ـ ولكن أرجو ألاّ تلومنى إن أنا أجملت ولم أحص .
ثم سكت الشيخ برهة واستطرد فى الحديث :
قوام الحياة الجامعية عندنا مع ترتيب الأهمية على ما أعتقد هو ـ صلاحية الجسم والعقل ـ حب النظام ـ الاعتماد على النفس ـ حب البحث والتدقيق مع التخصص الضيق فى ناحية من نواحى العلوم المتشعبة المتعددة .
شكرت للشيخ فضله وعلقت على اجابته بجمل متقطعة من الاستحسان لا أذكر منها ساعة كتابة هذه السطور أكثر مما يأتى :
• أما صلاحية الجسم والعقل فهى عماد التربية الأغريقية وفلسفة القدماء فى اصول التربية والتعليم ، فهى ليست بجديدة ولا بقاصرة على الألمان دون سواهم وفى المثل (العقل السليم فى الجسم السليم) . وأما حب النظام فلا غرو أن أسمعه من شيخ جليل تجرى فى عروقه الدماء البروسية ، وحفيد من عاصروا فردريك الأكبر وبسمارك وممن شهدوا الحرب الكبرى التي كادت تطغى فيها الروح الحربية الألمانية وما يتبعها من النظام على العالم فتسوده .
وأما حب البحث والتدقيق مع التخصص الضيق فلا أدل

عليه اكثر مما ساهمت به العقول الألمـــانية الجبارة فى جميع نواحى العــــلوم والفنون والفلسفة والآداب مما أنتجه العقل البشرى خلال القرنين المنصرمين. وانى كثيراً ماسمعت الانجليز يقولون فى وصفهم: (الألمـــانى كالبغل فأن هو سلك طريقا انطلق فيه، لا يريد أن يجهد نفسه ليعرف مـــا هو كائن فى الطريق الآخر. بل يسير الى الأمام لايلوى على شىء، يذلل ما يعثريه من الصعـــاب، ويحاول الوصول جهد طاقته الى غايته فى صبر وجلد قلما يتصف بمثلها منافسوه من الأمم المجاورة.»

بعد هذا وجـــدت ان الجلسة قد طالت وان ليس لى ان أضيع من وقت الأسرة أكثر مما شغلت، وخصوصا لأول مرة فاستأذنت فى الخروج. كنت ساعتئذ أشد النـــاس شوقا الى زيارة إحدى الجامعات الألمانية لأقف بنفسى عـــلى ما فيها من حياة ونظام حتى انى صرحت بذلك؛ فتطوع على الفور «فرتز» بأنه سيكلف نفسه الحضور الى فنـــدق المتواضع فى الصباح ثم يصحبنى الى بناء جامعة كيل التى هو أحد طلبتها.

يوم فى جامعة «كيل»

ما كان أشد دهشتى عنـــدما طرق «فرتز» باب حجرتى بالفندق فى الصبـــاح الباكر حوالى الخامسة صباحا حتى ظننت

ان فى الأمر شيئا لأننى لم أنتظره فى تلك الساعة .

اتجه « فرتز » نحوى فى خفة ونشاط تبدو عليه علامات البشر والسرور وقال : « إنى أعتذر عن إزعاجك مبكرا » . ولكنها فكرة ... !!! . انتصبت من الفراش قائماً ومددت اليه يداً متثاقلة وحاولت ابتسامة صناعية بانفراج الشفتين وقلت فى تباطؤ ملؤه الكسل والخمول .

« لم تزعجنى بل شرفتنى كثيرا ـ أمسكت عن الكلام قليلا ثم واصلته ـ ولكن ما هى الفكرة ؟ »

قال : « عندما تركت منزلنا بالأمس أبديت لى رغبتك فى زيارة الجامعة ، ففكرت فى أن نبدأ الزيارة ببدء الحياة اليومية بالجامعة » ـ قلت فى دهشة وتعجب : « وأى حياة فى الجامعة تبدأ قبل السادسة صباحاً » . قال : « أعندك شىء من دقة الملاحظة ؟ واذا كان كذلك ألم تلاحظ شيئاً فى وجوه بعض الشبان الذين قابلتهم فى بلادنا ؟ قلت : أظن أن لدى الشىء القليل فلقد لاحظت أن وجوه كثيرين من شبابكم تكاد تكون مشوهة من كثرة ما فيها من أثر الجراح بجوار الفم والانف وعلى الخدين ، حتى عجبت مرة من رؤيتى شاباً عليه أثر جرح يصل زاوية فمه بأذنه اليمنى .

قال : « أتريد أن تعرف السبب فى ذلك . ؟ » قلت :

« بكل فرح وسرور ... » .

قال على الفور : لهـــذا جئت اليك مبكراً . فان ماتراه من آثارالجروح فى وجوه الشبان سببه المنازلة بينهم بالسيف . ولقد بدأ الطلبة الألمان مثل تلك المنازلات بعد أن انتهت الحرب الكبرى بمعاهدة «فرساى» التى حددت من جيشنا ووفرة عدده ؛ لم نعدم وسيلة نتخيرها حتى نحتفظ بروحنا الحربية واستهتارنا بالآلام ، والتعود على منظر الدماء اذا ســـالت ، وتقوية روح الرجولة والشجاعة فينا .

وقع الاختيار على المنازلة بحـــد السيف ، حتى أن طلبة الجامعة الواحدة انقسموا الى جمعيات عدة ، كل جمعية منها لها شعارها الخاص (عادة الوان القبعة) ولكل جمعيـة أسلحتها وطرق المبـارزة التى تستحسنها حتى لقـد انتشر ذلك النوع من « السبورت Sport » فكثرت الشكوى ، من كثرة عدد الجرحى ، وتشويه الوجـــوه ، فتدخلت الحكومة باصدار قرار بمنعه . ولكن هيهات أن يقف شباب الألمان النـــاهض مكتوفى الأيدى أمام قانون المنـــع ، ولكنهم بدل أن تكون المبارزة علناً وفى وقت العمل ، أصبحت المبارزات الآن فى وقت الفراغ وفى أمكنة منعزلة يكاد لايعرفها إلا رئيسا الفرقتين المتنازلتين . سأترك لك وصف المبـــارزة فسترى ذلك بنفسك إن قدر

لى أن أتمكن من إقناع رئيسي الفرقتين بالسماح لك بالمشاهدة . فأن قانون كل جمعيـــات المبارزة يحرم على الأجنبى مهما كانت جنسيته أن يحضرها .

قلت : « وكيف إذن ستتمكن من دخولى وربما كان فى ذلك إحراج لك ؟ »

قال « أننى عضو عامل ومجد فى إحدى الفرقتين المتبارزتين اليوم ولى ، صلة صداقة متينة برئيسي الفرقتين وسأحاول جهد طاقتى علّنى أنجح » .

شكرت له فضله - لم يمض من الوقت أربعون دقيقة حتى كنت ورفيقى على باب موصد فى بناء منفرد من أبنية الجامعة .

دق « فرتز » الباب فارتفع صوت من الداخل من أنت ؟ فصرح فرتز باسمه ثم إستأذن عند مافتح له باب الغرفة ودخل . وبعد برهة قصيرة خرج يصحبه شـــابان طويلا القامة ، ضخما الجسم ، قدمنى إليهما بأنهمـــا رئيسا الفرقتين المتبارزتين قال احدهما لى فى لطف ووداعة « أن قانون جمعيات المبارزة بالجامعة لايسمح لأجنبي أن يشهدها ولكن بالنسبة لمكانة « فرتز » عندنا أرجو أن تعدنى بعدم إباحة ماترى من تفاصيـــل المبارزة » . لهذا لايمكننى أن أسجل على هذه الصفحات أكثر من أننى رأيت فرســـانا قد ملأهم الشباب قوة وجرأة فبدت على محياهم

خفة الحركة وسرعة الخاطر والاستهتار بالآلام - فكثيراً ما سالت الدماء من وجوههم وهم لا يزالون يقتتلون ، يدافعون ثم يهجمون من غير ان تظهر عليهم علامة من علامات التأثر أو الإعياء . حتى يناديهم الحكم فيقفوا لتضمد لهم الجروح - لا بوساطة طبيب ولكن أى شخص منهم يتقدم بعمل ذلك ، فلقد مارسه الجميع فترى أحدهم فى خفة ونشاط يغسل الجرح ثم يضمده ، وفى بعض الأحيان يخاط الجرح إن كان كبيراً . ومن الغريب - على طول مدة المبارزة - أنني لم أسمع تأوها بينما أصيب واحد من المتبارزين بجرح يصل فمه بأذنه واضطروا لتضميده إلى استعمال « الخياطة » ولكنه لم يتألم .

فلله در شبابهم وجعل منهم مثلا حياً لشباب الشرق يحتذيه ، إن قدر للشرق أن ينهض من سباته العميق - فيأخذ شبابه عن أمثال هؤلاء ، الجرأة والشجاعة والإقدام فلا يحفلون بخطر ، ولا يبالون بألم ، ولا يرضون بذل ، يستبدلون نعومة العيش بخشونته ، والقناعة بما هم عليه من حال ؛ بالطموح إلى ما تصبو إليه آمال الكرام ، فيضحون فى ذلك السبيل بكل عزيز لديهم مسرفين مستهترين حتى يصلوا بأممهم إلى عزة وكرامة تليق بها وبمجدها القديم ، وحتى تحقق لهم الأيام آمالهم الفتية عن طريق المثابرة والعمل ، مع التضحية وإنكار الذات ، لا عن طريق الكسل والجبن والأنانية .

بعد المبارزة ـ وكانت الساعة قد قاربت الثامنة صباحا ـ خرجت مع « فرتز » إلى ميدان الجامعة الذى يمتـــد على ميناء « كيل » فرأيت فريقا من الطالبات والطلبـــة ، تبدو على الجميع علامات الصحة والانشراح ، وهم يتأهبون لإنزال زوارقهم فى الماء وكلهم بلباس التجذيف لافرق فى ذلك الزى الأنيق بين فتـــاة وفتى . وبعد برهة كانت الثلاثة الزوارق معدة ـ كل منها يحمل عشرة : خمسة منهم أناث والخمســـة الآخرون ذكور ، ثم بدأوا تمرين الصباح فى التجذيف ، فكنت ترى الزوارق تعدو فى خفة وسرعة وأن هناك تجانسا فى الحركة بين الجنسين لافرق بين فتاة وفتى . تركنا المكان وقد ملئت أعجاباً بتلك الروح الرياضيـــة حيث مررنا بملاعب « التنس والجولف » وغيرها . والذى زادنى إغتباطا أنى رأيت المرأة تأخذ بنصيب معادل إن لم يكن أكثر قليلا مما يأخذه الرجل ، ولقد مهرت الفتاة الألمانية فى جميع فنون الرياضة .

دخلت بناء الجامعة وقد بدأت الحياة اليومية تأخذ سيرها الطبيعى من الحركة والنشاط على أن ذلك لم يكن كثيراً لأن الوقت كان وقت عطلة صيفية ، والمحاضرات موقوفة ولكن الابحاث لاتعرف عطلة صيف أو شـــتاء ، فمتى انغمس الباحث فى نقطة يريد أن يستكشف منها ماغمض ، نسى نفسه ونسي كل شىء ماعدا

بحثه ، فهو فى وقت انهماكه فى بحثه لم يخلق إلا له ولا يعنيه من العالم إلا أن يحصل على نتيجة لذلك البحث ، وأن هو حصل عليها كانت هذه الفرصة عنده من أسعد أيام حياته .

طفت مع صديق مبانى العلوم التى يهمنى أمرها والتى أنا شغوف بها وبما جدّ فيها . فتحدثت مع الكثيرين من علمائها والباحثين فيها وكان الجميع يستقبلنى بصدر رحب ووجه باش . يطلعونى على ما أريد مضحين فى ذلك بوقتهم الثمين محتملين عناء الشرح . شكرت للجميع فضله . . وانصرفنا .

رافقت صديقى إلى بناء « اتحاد الطلبة » وأول مالفت نظرى جلوسهم جماعات ، لكل جماعة شارتها الخاصة من لباس الرأس إلى شريط يوضع على الصدر - وكان معظم الطلبة والطالبات ممن يدرسون الطب حيث يتحتم عليهم دخول امتحان فى القريب العاجل فهم يستعدون له .

قدمنى « فرتز » إلى جماعته وحاول كل قدر استطاعته أن يحادثنى بدوره حتى لا أشعر بالوحشة بينهم

جاء وقت الغذاء فجلسنا جميعاً على مائدة واحدة واتفق أن الشاب الذى جلس إلى جهتى اليسرى يجيد الانجليزية . فلما قدم الينا الطعام : قال : أخاف أن هذا الغذاء ربما لا يعجبك . . ؟

قلت « بالعكس أنه لذيذ » . والحقيقة كانت خلاف ذلك

فلقد قلت ماقلت من باب المجاملة فقط ـ أما الغذاء فكان قوامه « طبقا كبيراً من البطاطس المسلوق وقطعة صغيرة من اللحم لاتزيد عن أوقية أو اثنتين وبعض الخضار »

قال : « إنه لا يتحتم فى انجلترا على معظم الطلبة الألمان أن يأكلوا مثل هذا الطعام » قلت : لا . ليست كثرتهم »

قال : أن نحو ثمانين فى كل مائة من الطلبة الألمان فقراء وعليهم أن يكسبوا ما يعيشون به وبعض مصاريف تعليمهم .

وبالنسبة إلى حالة البلاد المالية ووجوب إنعاشها وجب علينا جميعاً الاقتصاد ـ حتى أن من يكون منافى سعة من العيش ، يجتهد كثيراً فى أن يعيش عيشة الأغلبية وما توفر معه يكتتب به للطلبة الفقراء ،فما من شهر يمر إلا وحفلة سمر يقيمها هذا النادى باسم « مساعدة الطلبة الفقراء » وتوزع تذاكرها على الطلبة الاغنياء ومن أراد ذلك من الأهالى . قلت ـ « وكم تدفعون فى مثل هذه « الأكلة » .

قال : ستين فنش (ثلاثة قروش صاغ)

قلت : (وقداستعرضت ذاكرتى الحياة الانجليزية وكيف أن الطلبة هناك فى رغد من العيش يتمتعون بما لذ وطاب من المأكل والمشرب والملبس) ـ إنها لهمة منكم تشكر ، وحسنة سيخلدها لكم الوطن وتحفظها لكم الأجيال القادمة .

فأنتم جميعـــا تضحون لخير أبنائكم وفى سبيـــل الوطن .

قال : إننا جميعاً نشعر بذلك الواجب المقدس وهو « ألمانيا فوق الجميع » وتحت ضوء هذه العقيدة نعمل .

قلت : « بارك الله فيكم وفى الوطن الذى هو سعادتكم ومجده غاية ما ترومون ثمرة لكدكم وجدكم وتقشفكم »

ـ تنهدت بعدها تنهداً عميقاً من قلب كله لوعة وحسرة ، وكنت أود أن يكون لمصر نصيب من أبنائها كالذين أنا بينهم الآن أحادثهم ، ولا همّ لهم إلا رفعة وطنهم وسعادته .

بين « برلين » و « ميونخ »

برلين بلد عظيم يستحق عن جدارة أن يكون عاصمة بلاد الريخ العظيمة فهو غنى فى كل شىء . غنى بمتاحفه المتعددة التى تحوى آثار القديم والحديث والتى تتمثل فيها الصور الحقيقية لنشوء معظم الأشـــياء وارتقائها ، وكيف تطورت حتى وصلت إلى الدرجة التى صارت إليها الآن ، فمتحف الفنون والصناعات واسع الأرجاء ، مترامى الأطراف ، به جميع ما وصلت إليه المدنية والحضارة فى عصورها المختلفـــة وفى معظم نواحيها وكيف

أن صناعة معينة ارتقى بهـــا العقل البشرى فأخرجها من فكرة إلى شيء محسوس وما زال يتعهدها بالبحث والتجربة حتى ظهرت فى ثوبها الحالى .

ونظرة واحدة إلى ذلك البناء الضخم الذى يقع فى أكبر شوارع العاصمة « Unter den Linden » والمعد متحفاً للأسلحة وطرق الهجوم والدفاع ، يُرِى الناظر كيف تطورت وارتقت طرق الحرب من القوس والنشاب ، إلى السيف والدرع ، ثم إلى استعمال رصاص البنادق ، إلى المدافع بأنواعها ، ثم إلى القنابل والغازات الخانقة ، إلى غير هذا مما وصلت إليه طرق التدمير والدفاع . غنية برلين ، وبوتسدام وهى احدى ضواحيها - بقصور آل « هوهن اتسليرن » وما فيها من آيات الفن ، وجمـــال فى النقش والبناء ، وبذخ فى الأثاث . غنية برلين بدور العلم فيها وتعـــددها فهى تحوى كنوزا من العلم والفن والفلسفة والاجتماع .

جميلة برلين بمبانيها المتناسقة ، وقصورها الشاهقة ، وشوارعها الواسعة النظيفة ، وميادينها الفسحة وما تحويه من الحدائق الغناء ، ودور التمثيل والسينما الناطقة ، ومختلف أنواع الملاهى والمسرات ، وبالجملة فان أهل برلين لم يقصروا فى أن تكون مدينتهم نموذجاً للحضارة الغربية وما وصلت اليـــه فى كل ناحية من نواحيها ،

فهى بحق ليست عاصمة الريخ فحسب ، بل عروس أوروبا الوسطي وباريسها فى الجمال والتناسق ، وهى أكثر شبهاً فيها بمركز المخ ومايتصل به من الأعصاب للجسم ـ فما أكثر بيوتاتها المالية ومصارفها وشركاتها الصناعية الكبرى . والناظر إلى برلين نظرة سطحية إلى ظاهر الأشياء لايمكن أن يجول بخاطره أن بالبلاد أزمة أو عسراً ، أو أن فى الصناعة بطالة أو كساداً ، لأن دولاب الحركة فى مختلف الأعمال لم يقف ، ولاتزال المنتجات الزراعية والصناعية فى تبادل مستمر .

مكثت ببرلين خمسة عشر يوماً أتنقل بين متاحفها وأحاول أن أقف على ما بالمدينة العظيمة من علم وعمل وحياة اجتماعية ، حتى نلت من ذلك مقداراً لابأس به وكدت أنسى نفسى أو أتناساها لأستزيد من تلك الحياة الحقة إلا أن الوقت عندى كان محدوداً وقد نَفَدَ ماخصصته لزيارتها .

اضطررت إلى أن أرحل على مضض وأن أغادرها إلى جنوب الريخ متجولا حتى وصلت إلى مقاطعة « باڤاريا » واستقر بى المقام فى عاصمتها « ميونخ » وهى بلدة جميلة ، يرجع تاريخها إلى القرن الثامن ، وتجمع بين القديم والحديث : ففى مبانيها الضخمة ومنشآتها العديدة يُرى اختلاف الفن والذوق باختلاف العصر والوقت ؛ وربما كانت المنشآت

الدينية - كما هى الحال فى معظم ممالك العالم المعمورة - هى أوضح صورة لتقدم الفن فى مختلف عصوره - وكيف تطور ذلك وتأثر بكل عامل جديد طارىء ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون هذا العامل عن عقيدة دينية ، أو إحساس أنتجه التفكير البشرى وقبله القوم ، أو عن عرف أو تقليد . ولا بد أن أدون فى هذه المذكرات عِظَم فضل الدين على الفن ، وكلما تجولت فى الأرض زدت يقيناً بذلك حتى كدت أن أغالى فى التقدير بظني ساعة ما ، ان الفن هو وليد العقيدة الدينية ، لأن الفن صورة نفسية يخرجها للناس أفراد قلائل من بينهم قد وهبتهم الطبيعة أكثر حساسية ، فان هم نحتوا أو نقشوا أو صمموا أو صوروا ، كان ذلك مرآة صافية لاحساسهم ، ولا يمكن أن يكون هناك إحساس من غير عقيدة - وعلى هذا تكون العقيدة مصدر الفن وأصله .

ولما كانت جميع عصور التاريخ التى وصل إلينا شىء من أخبارها دائماً ملأى بعقائد الأديان المختلفة ، وكان الناس أكثر تمسكا بأديانهم مهما كانت قيمة هذه الأديان فى نظر غيرهم . فمن المرجح أن يكون الدين هو أهم عامل فى تكوين الفن ونشأته . ولا أدل على ذلك من التنقيب والبحث فى مختلف جهات المعمورة عن الآثار القديمة التى ملئت بها

متاحف لا عدّ لها ، ونجـــد أن معظمها يتعلق بالعقيدة الدينية أو صورة لهـا منقوشة أو منحوتة على الآنية والحجر . يشهد أيضاً بذلك تلميذ تاريخ الفن وطـالبه حيث يجـــد مورداً خصباً ومنبعاً لاينضب معينه فى الهياكل والمعابد ، والكنائس والمساجد .

وربما كانت « ميونخ » من أعرق البـــلاد الألمانية لحفظ تاريخ الفن المسيحى فى كنائسها المتعـــددة التى بدأت بكنيسة « Frauen Kirche » على الطـــراز القوطي « Gothic » والتى يرجع عهـــد تأسيسها إلى عام ١٤٦٨ ميلادية - فهى بحق بناء عظيم ضخم يُدخِل فى نفسك الرهبة والخشوع .

ثم هناك كثير من الأطرزة القديمة والحديثة ممثلة ، كطراز عهد التجديد « Renaissance » وعهد الرومان « Romanich» والطراز الباروكى « Baroque Style » وغيرها وغيرها .

ولهذا تجد ميونخ صفحة تاريخية مجيدة ، عدا ماحبتها الطبيعة من موقع جغرافي جميـــل ، تحيط بها المرتفعات والمنخفضات وبجوارهـا تمتد سلسلة من التـــلال والهضاب ، وعلى مقربة منها تقع جبـال الألب - فان الزائر لايكاد يترك المدينـــة حتى تملك عليه الطبيعة جميع مشاعره بجمالها الفـــاتن الممثل فى ألوان الخضرة المتعددة التى لا قـدرة لى على وصفها مهما أوتيت

من قوة الايضاح والبيان . ومنظر الهضاب والمنخفضات، والماء الفضى الذى ينحدر بين الصخور . والطيور التى تنتقل بين أشجار الصنوبر وهى سعيدة تغرد النغمات الموسيقية الشجية - فما أكثر الجمال فى تلك البقاع النادرة وما أكثر وجوهه ونواحيه . وما أسعد النفس التى وهبتها الطبيعة حساسية لحبه، وما أسرع تلك النفس الى التفانى فى عشقه، والتمتع بأسرار وحيه وجلاله .

ومثل ذلك الوسط الطبيعي لا بد أن يؤثر فى تكوين الشعب الذى ينمو فيه - فان كان من آثار البادية جفاف الأخلاق وجمود القوم وخشونتهم - فان من آثار هذا الوسط الجميل أن القوم مهما نزل بهم من الضيق، وما حل بهم من الكرب والحرب، فهم فرحون طربون تمتلىء وجوههم دائماً بابتسامات طيبة لا تكلف فيها ولا هى صناعة مبتذلة، وهم بالسليقة موسيقيون فما أكثر الأصوات المطربة والغناء الشجى فى الشوارع والطرقات العامة والميادين وما أسعدهم فى المساء حينما يجلسون يحتسون شراب «البيرة» رجالا ونساء وأطفالا وقد امتزجت الموسيقى بدمائهم، فلا تكاد تعزف حتى يرددها القوم جميعاً، لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم، ثم هم بعد ذلك يلهون ساعة أو بعض الساعة فى

الرقص والغناء لا فرق بين ذكر فى ذلك أو أنثى . . . وهيهات أن تستولى على أحدهم أو إحداهن الشهوة النفسية الجامحة ، فان ذلك على ما أعتقد اختلاط عادى ألفه القوم ، وقوامه الشرف والعفة .

فى صباح اليوم التالى لوصولى تلك المدينة الأثرية ، وليت وجهى شطر مكتب الشركة البريطانية للسياح « كوكس » والتى انتشرت مكاتبها وفروعها فى جميع أنحاء المعمورة لما بلغته من عظيم الشهرة فى الدقة والأمانة فى العمل ، مع الانجاز والسرعة فى المعاملة ، حتى أصبحت بحق أكبر شركات العالم للسياحة - حيث كنت قد أوصيت بتحويل خطاباتى إلى ذلك المكتب وكنت متعطشاً جداً لسماع أخبار أخوانى ، ولقد مضت مدة من الزمن لم أسمع فيها شيئاً عنهم .

انى شغوف بأن أحاول امتحان ذاكرتى من آن لآخر ولقد عهدت فيها ضعفاً - طالما كان سبباً فى تأنيبى لنفسى وعدم ثقتى برواية حادث قدم عهده ، أو بأن أتذكر الشىء الذى رأيت أو سمعت أو قرأت فى مناسبته .

استعرضت الخطوط التى على ظروف الخطابات الواردة إلىّ محاولا أن أعرف المرسل فوجدت بينها خطاباً من « كلير » حيث كنت تعودت قراءة كتابتها كثيراً ، وآخر من

ليفربول ، ولكن ليس من كلير . . . . . . جال بخاطرى أفكار سريعة وأشخاص عدة ، ورددت فى نفسى كثيراً من الأسئلة .

ولكن الشيء الوحيد الذى كدت أن أجزم به أنى قرأت مثل هذا الخط مرة أو بعض مرات ، وربما كان هو . . ! ! ولكن خط من هو ، أو من هى . . . . ؟ لا أدرى . . ! !

لم أهتد إلى جواب قاطع من نفسى ـ وبحركة سريعة كان الخطاب فى جيبى الأيمن .

بعد أن تركت المكان بدأت بقراءة الخطابات التى أعرف أن موضوعها جاف والتى ظننت أنها لا تأخذ منى وقتاً طويلا حيث كنت على عجل ، حتى لم يبق منها سوى خطاب « كلير » الذى أضفته إلى الخطاب المجهول لفرصة تتسع لقراءتهما .

بعد أن أمضيت اليوم مع بعض السائحين من أوربا الغربية والأمريكان متجولين فى إحدى سيارات « كوكس » لمشاهدة أهم ما هو جدير بالزيارة فى المدينة وضواحيها ، رجعت إلى فندقى متعباً ـ وما كاد يستقر بى المقام حتى استلقيت على الفراش ، ولكنى لم أنس خطاب « كلير » ففضضت غلافه فى حينه ، وكان أهم ما جاء به :

أتمنى لك رحلة سعيدة موفقة حتى ترجع إلينا فتقص علينا أهم ما يعلق بذاكرتك من أوجه حياة الألمان المختلفة ،

حياة الكد والعمل والفلسفة والاجتماع فهى الأمة التى أنجبت «جيتا»، و«كانت»، و«ماركس»..... وغيرهم.. وأخيراً «أنشتين» تلك الأمة التى دوخت العالم طوال أربع سنوات وكلفت الانسانية أكثر من عشرة ملايين قتلى وضعفها جرحى - تعمق فى حياتها الاجتماعية والخلقية ما أمكنك ذلك.

ولكنى لن أطلب منك أن تعرف الشيء الكثير عن تلك الحياة المعقدة؛ والتى تزيدها الأيام وتقدم العلوم والصناعات، والتنافس تارة والخوف تارة أخرى تعقدا - فانىّ لك هذا ووقتك محدود جداً ومعرفتك باللغة قاصرة على بعض كلمات.

ولكن بالرغم من هذا أتعشم أن تأخذ من حياتهم بمقدار، كما آمل أن يكون قد صادفك جو كله شمس ساطعة، وسماء صافية، حتى تتمتع بجمال «الريخ» الطبيعي الذى طالما قرأت عنه الشيء الكثير ووددت لو كنت بصحبتك لننعم بذلك الجمال سوياً.

أما الجو عندنا فتارة ممطر كما عهدته، وتارة ملبد بالغيوم الكثيفة، وإن كشفت الشمس عن نفسها ذلك الغيم لنتمتع برؤيتها، فلا يمضى عليها وقت طويل حتى تحتجب.

اننا لا نزال كما هى العادة فى كل عام نمنى النفس بصيف حقيقي لا فصل فيه الأمطار والغيوم والأعاصير - وقد قارب

صيف هذا العام الانتهاء ولم يأت ذلك الصيف المنتظر بعد . . !
وبالرغم من رداءة الجو فلقد مارست الطيران حيث كنت قد أخبرتك بذلك ـ قطعت شوطاً فيه لايستهان به ، ولقد حلقت منفردة أول أمس ، وأعتقد أن فى الطيران لذة لايمكن أن تعادل : فأنت فى الهواء تشعر بمحاكاة الملائكة (وطالما صورهم الفنانون بآدميين ذوى أجنحة) ، أو على الأقل تشعر بأنك وسط بين هؤلاء وهؤلاء وقد ارتفعت بك طائرتك عن الأرض ومن فيها وما فيها من خير أو شر إلى طبقات الأثير التى لم يلوثها الانسان كثيراً بمطامطعه وشروره . . . . وكنت أود من قرارة نفسى أن أتخلص من الأرض وأنا لاأزال على قيد الحياة لأمتع النفس بعالم آخر . . . . . ولكن أنى لى ذلك . . . ! وأنت تعلم الأرض وجاذبيتها وكل ماعليها ملك لها ، حتى يأذن الله بتغلب الأنسان على تلك الجاذبية فيهجرها إلى غيرها من الاجرام ، وينتقل حرا بينها كما هى حاله الآن يتنقل من بلد إلى بلد ، ولن يكون فى تنقلاته عرضة للتفتيش ، وفحص جواز السفر ، واضطراره لاستعمال الترجمان أو الاشارات لعدم فهمه اللغة . . . أو أن يعترضه عائق من العوائق التى كثيراً ماتعترض السائح فى هذه الأيام .

ان المعلم الذى يتـــولى تدريبي على الطيران يشجعنى كثيراً ولقـــد أظهر أكثر من مرة رضاءه عما وصلت إليه حالتى . وثق أننى سأصل الى شيء مرضي فى هـــذا الفن مادامت هناك الرغبـــة الصادقة من نفسى وتفانىّ فى حب تعلمه . وربما كان هناك استعداد طبيعي يسمح لى بالنبوغ فيه .

ليس لدىّ أخبـار كثيرة تهمك غير أنى علاوة على تعلمى الطيران فأنى اقرأ كثيراً ، وربما بلغ ذلك خمس ساعات فى اليوم والرواية التى اقرؤها الآن هى « Faraway » لبرستلى مؤلف رواية الرفاق الطيبـــين « Good Companions » التى أخالك قد قرأتها .

صحتى جيدة وأتمنى أن تكون صحتك كذلك . ولقد زارتنى « مارى » بصحبة « كارل » مرة وهما على أحسن مايرام من الائتلاف ....

أعتذر أن أنا لم أطل فى الكتابة إليك فأختم خطابى هـذا بسرعـة لأن لديّ ميعاداً مضروبا لألعب فيه « التنس » ولقـد بدت على الجو علامات التحسن . فسأنتهز الفرصة لذلك .... وختاما .... إلى اللقاء ....

طويت الخطاب ثم تقلبت من جنب لآخـــر وأنا أردد فى نفسى ... نعم إلى اللقاء .... إلى اللقـــاء ... « يا كلير »

ما أسعد اللحظة التى تعرفت بك فيها ، فأنت خير مثل لما يمكن أن تتحلى به الفتاة من دماثة الأخلاق مع العفة والطهر ، وبجانب ذلك الشىء الكثير من الشجاعة والحزم وقوة الأرادة وحب الاستطلاع والتفانى فى خدمة ماتعدينه واجباً عليك سواء نحو نفسك أو غيرك أو وطنك . أنت الفتاة التى أتطلع إلى أن أراها فى مصر خاصة وفى الشرق عامة .... أنت الفتاة التى جمعت صفات الأنوثة مع الاستقلال الذاتى ولم تنس أن تكونّى لنفسك الشخصية التى تحبينها فتضعين نفسك دائما فى المكان الذى يليق بك ....

صرت على هذا المنوال فى بحر من التفكير حتى أخذتنى سنة من النوم ، وما أن استيقظت منها حتى خطر لى أن لدى خطاباً بجيبى الأيمن لم أقرأه بعد - بحركة بطيئة مددت يدى فى جيبي وأخرجت الخطاب ففضضته وتصفحته بنظرى فى لحظة حتى وصلت إلى آخره فأذ الأمضاء ... « كاتلين » لم أكد أصدق لأول وهلة أن « كاتلين » تكتب إلىّ وما هى المناسبة ... ؟ نهضت من فراشى مسرعا ثم عدوت عدوا سريعا نحو النافذة ففتحتها ، ولا بد أن تكون هذه اللحظة على قصرها من أدق اللحظات التى يصعب على الأنسان وصفها ففيها تمر أفكار ... أفكار سريعة بخاطره مر البرق بعضها يسر

من أن هناك أملاً ربما يتحقق أو حباً وغراما ربما يكون نصيبه تبادل العاطفة أو ..... أو ..... أخ .

وبعضها يدخل على النفس اليأس والحزن من أن هناك كلمة وداع لمن تحب ... أو أحباط الرجاء لأمنية طالما منيت نفسك بها ... أو ماهو نحو ذلك .

تمالكت نفسي بعد أن هدأت أعصابي قليلا وبدأت قراءة الكتاب فأذا هو ما يأتى :—

عزيزى ..... :

مضت مدة طويلة منذ أن غادرت ليفربول ولم أسمع عنك فيها شيئا . ربما لم يكن لك فى هذا ذنب وإنما هو ذنبي كما أعتقد لأننى لم أطلب منك الكتابة الى ، ولقد عهدت فيك المحافظة الشديدة على شعورى وإحساسى ، وربما كان الخجل من أهم الأسباب التى جعلتك لا تكتب الىَّ قبل أن آذن لك بذلك .

أتمنى أن تكون ممتلئاً صحة ونشاطاً وان تكون متمتعاً برحلتك الأوروبية أحسن التمتع وكم كنت أود أن أكون فيها بصحبتك . ماذا أنت فاعل ياترى ولقد فهمت منك قبل قيامك أنك ستسافر وحيداً وأن معرفتك باللغة الألمانية محدودة ، هذا فضلا عن أنك قد ذكرت أنك لا تعرف أحدا فى البلاد التى

تنوى زيارتها . . . ؟

أتعشم أن ترجع الينا وقد أفدت من الرحلة بقدر ما أنفقته فيها من وقت ومال وجهد - ولكنى أطلب منك أن تحاول الاحتفاظ بذكريات ماتزوره من الأماكن وما يقع عليه نظرك أو يناقشه عقلك فان مثل هذه الرحلة فرصة سعيدة . . . وأنت تعلم أن الفرص السعيدة فى الحياة قليلة . . . وربما كانت تلك فلسفتك فى الحياة كما ذكرت لى من حين لآخر .

أما صحتى فجيدة أتحين الفرص من آن لآخر فى الفترات التى يتحسن فيها جونا القلّب الذى تعرفه ، فأخرج للعب « التنس » أو « الجولف » تارة ، أو « العوم » تارة أخرى . ولقد سافرت يوم الأحد الماضى مع فريق كبير من أعضاء نادينا (الكلوب) إلى شمال « ويلز » حيث سرنا على الأقدام بين صعود تلالها وهبوط فى وديانها - كما تعرف طبيعة الأرض هناك - أكثر من ستة عشر ميلا ، ولكنى متعت نفسى أحسن تمتع وكان الجو جميلا ولون الخضرة فى الوديان وعلى التلال فاتن ساحر . اذا كنت لاتزال تذكر كلبتى الصغيرة « بيجى » فهى فى صحة جيدة تسرح وتمرح فى البيت والحديقة إلا أنها فى الأيام الأخيرة أظهرت شيئاً من عدم الارتياح لاقتنائنا منافساً آخر لها - وهو طير جميل «عصفور كنارى » ذو ألوان ذهبية بديعة. وفى الصباح

يغرد تغريداً شجياً ، إلا أننى أظن أنه لن يمضى وقت طويل حتى تألفه « بيجى » . أما أخبارى الخاصة فليس فيها شىء جديد غير أنى أشعر ببعض الفراغ حولى منذ سافرت فأعتقد أن قلوبنا قد تآلفت بعض التآلف ، ولما تنطق بذلك السنتنا بعد . فأن مافيك من التحفظ والحياء ، وما عندى من المحافظة والامتناع كان كفيلا بعقد ألسنتنا ، ولكن طالما خانتك نظراتك التى كثيراً ما كشفت لى عما تكنه من عاطفة وما يخفق به قلبك من حب . أريد أن أصدقك الخبر فأقول « أننى فى أول معرفتك لم أفكر فيك كثيراً بل عددتك رفيقاً لا صديقاً ، ولا بأس من أن أستصحبك الى مكان لنلهو فيه ساعة أو بعض ساعة مادمت قد وثقت من أخلاقك ومبلغ شجاعتك فى بث الحب والغرام . . ! ولكن أخيراً قبيل سفرك تملكنى شىء لا أعرفه فأصبح يقرب بين نفسى ونفسك فعمدت إلى أن أتجاهله واتجاهله . . ولكن سلطانه قاهر . ربما لاحظت فى الأيام الأخيرة قبل سفرك أنك اذا نظرت الىّ تلك النظرة التى تفيض بعواطف قلبك والتى كثيراً ما تجاهلتها ولم أعرها أهتماما كبيرا ، كنت أغض النظر عنك وألتفت يمنة أو يسرة أو إلى الخلف لئلا تخوننى عواطفى فأبادلك مثلها وأحمر لها خجلا .

لم أعد أستطيع مغالطة نفسى ، فاسمح لى أن أكشف عن نفسك

ونفسي الحجاب وأن نواجه الحقيقة بشيء من الشجاعة النفسية ، ومتى كان إظهار العواطف جريمة فى نظر المنصفين من الناس . ؟

وفرضاً إذا تغـــالى بعضهم وعدها خارجة عن العرف (والأتيكيت) - فليعلموا أن تلك هي الحياة وذلك هو سرها .

لم أنته من تلاوة هـذا الخطاب حتى شعرت بفرح لا يعادله فرح ، وسرعان ماتملكتني نشوة من السرور سلمت نفسى اليهـا برهة من الزمن ، وقف فى أثنائها تفكيرى ، وتخدرت فيها أعصابى حتى الثمالة ، فمرت تلك الفترة من الزمن وكأنى بين حـــلم لذيذ ويقظة حلوة ملائكية هادئة .

لقد قرأت شيئاً ليس بالقليل من قصص الحب واساطير الغرام ، كان يخيـــل إلىّ أن فى بعضها شيئا من المغـــالاة استمده كاتبوه من الخيال والتصوير ، ولكنى الآن قد آمنت بكل ماسمعت وقرأت فى سبيل الحب ومن أجل الحب .

كان قلبى قبل أن أتعرف بكاتلين أشبه شيء بتربة عذراء ، ضن عليها الناس أو غفلوا عنهـــا ولم يتعهدوها بالزرع والري ليجنوا ثمارها ، ويمتعوا أنفسهم بنضارة زرعها ووارف ظلها ، واذا مانبت فيهـــا نبات وذلك حالها ، لا يلبث أن يصبح هشيما تذروه الرياح .

تلك كانت حالة قلبى حتى وصلت اليـه بذور حبـــك

فوجدت منه أرضاً خصبة تعهــــدتها من جانبي بكل ما لدي من إحساس وشعور ، ومما خلقته في نظراتك من شوق وحنان . وأما أنت يا كاتلين فلم تضني على هــــذا الغرس الطيب بالعطف المتبادل والحنو الذي أنت له أهل . . . وأخــــيراً أنت تختمين خطابك إلى مشعرة العالم أجمع أن هذه هي الحياة ، وتلك سنتها ، ولست بخائفة أن تكشفي عن نفسك ونفسي الحجاب . . . ! !

يعلم الله أن نبات حبك قــــد نما وترعرع حتى ملأ كل فراغ في قلبي ، فملك علي مشاعري وصرت لا أرى نور الحيــاة إلا من عينيك ، ولا هدوءها وسلامها إلا بجانبك .

كنت دائماً أتردد في مكاشفتك بمــــا في نفسي رحمة بها وبقلبي الذي لم أعـد أستطيع القول بأني صــــاحبه ومسيره حسب ما أحب وأرى - فلقـد ملكت منه الشيء الكثير ولم تتركي لي فيــــه الا النــــذر اليســــير - فهو الآن ملك لك وله أن يطرب ماشاء الطرب وأن ينعم من الحياة بما شاء من النعيم. فلا خوف عليه إذن بعد قراءة خطابك من أن تتنكري له بعد أن يظهر ما يكن لك من حب وغرام ، وتقابليــــه بالسخرية والاستهتار فتحبسي عنــــه ماء عطفك وسلسبيل حبك ، فتجف وريقات ذلك الغرس الطيب وتمتــــد إليه يد الذبول فتسوقه إلى طريق الفناء وهو لا يزال كما تعرفين في ريعانه

ولما تجنى بعد ثمرة له . . . .

نعم . ما أسعد الحيـاة بجانبك وما أسعدنى بحبك فان هـذه اللحظة التى تعترفين لى فيها بتبـادل العاطفة بالعاطفة ، وخفقان القلب بمثله ، لهى عندى خير من الدهر كله ، ولئن ـ لا قدر الله ـ سلبتنى أيامى الحاضرة أو المستقبلة شـــطراً من السعادة أو كلها ، فستظل تلك اللحظـــة وذلك الخطـــاب مبعث سعادة أبدية ، ومصباحاً أستضىء به وأهتدى كلما أظلمت الدنيا .

إننى حلمت بحبك كثيراً ، وكان حلمـاً لذيذاً أعلل به النفس فى الوحدة والانفراد ، ولـكنى قلما فكرت فى أن لهذا الحلم من تحقيق ، أو أن هنـاك سبيلا إلى أن تفتتن غادة حسـناء مثلك تحمل روحاً طيبة بمثـــلى وليس فىّ شىء من الحسن أو الجمـــال يأسر قلوب الحسان ـ ولـكن . . . . . شـــاءت الأقدار وأصبح المستحيل بالأمس ممكناً اليوم ـ وشاءت العناية الالهية أن نرتشف من كأس الحب ســـوياً ، وأن يتحقق لى أن حبـك الذى طالمـــا حسبته سراباً هو فى الحقيقـــة ماء ، وأنت تعلمين أن الماء مادة فلا سبيل الآن إلى فنائها من عالم الوجود ، وربما تحولت من وجه إلى وجه ولـكن جوهرها ثابت لن يفنى .

العـــودة

كان خط سيرى الذى رسمته قبيل البـــدء فى هذه الرحلة الأوروبيـــة يتسع لزيارات أخرى وكنت قـــد أعددت لذلك العدة من الوقت والمـــال إلا أن خطـاب كاتلين زاد فى شعورى بالوحـــدة ، وأصبحت لا أرى فيمن حولى من آنس به أو أستأنس ، ولا أريد أن أجهـــد النفس بتعرف جديد ، أو تقرب من شـــأنه أن يفسد تلك الوحدة ، ولقد انحصرت فى نظرى حينئذ لذة المجتمع والتمتع بمـــا عندى من وقت فراغ عند ما أكون بقرب كاتلين . . . . فى شخصهـا بل وفى خيالها ، ولست أغالى إن قلت أن مجرد التفكير فى أنى أعيش فى البلد الذى تسكن فيه ســـلوة تطرح عن نفسى كل ضجر وعناء .

على هذا مرت أيام قلائل يزداد فيهـــا الشوق إلى اللقـاء ازدياداً مضطرداً فأردت أن أشفق على نفسى رحمة بها وبجسمى الذى أضناه التفكير والسهاد فقررت العـــودة على عجل ، ولا يزال لدىّ ثلاثة أسابيع ولما تمض بعد .

أيام السفر طويلة وسـاعاتها جد بطيئـة تدخـل على النفس

السأم والضجر ، وخصوصاً على من يكون وحيداً مثلى ، فتارة أكون فى ديوان بمفردى ، وأخرى أكون بصحبة ، فإن هم تحدثوا أو ضحكوا فغالباً لا يكون لى علم بحديثهم ، ولست أدرى سرفكاهتهم لأنى - أولا ، لا أعرف من اللغة كثيراً ، وثانياً لست أود أن أنصت لحديث لا يوجه إلىّ مهما قرب المتحدثون منى .

كنت تارة أحاول النوم فى مظهر من التثاؤب والكسل وإغماض الجفون عمداً ، ولكنى قلما ظفرت به ، وتارة أخرى أسرح الطرف من نافذة القطار فأمر بنظرى مراً سريعاً على الوديان والتلال والمنخفضات والمرتفعات ، التى تكسوها الخضرة الناضرة ، وطوراً كنت أطلق لنفسى عنان التفكير فيما حولى من خَلقٍ وخُلق وما وصلت اليه حضارة الغرب من تقدم وعمران ، وكيف بنى ذلك الصرح الشامخ على أنقاض حضارات متعددة أبلاها الزمن ، وقضت عليها الأيام .

مجهود الجبابرة المتواصل على مضي الأجيال الذين لم يعرفوا المستحيل، بل هناك سابقة أنكار وجود الكلمة نفسها فى القاموس : فاستهتروا بالحياة ولم يقنعوا بما لديهم من طرقها ووسائلها . فضحوا بالغالى الثمين واستلانوا كل صعب وشاق

فى سبيل الوصول إلى غاياتهم ، حتى إذا ماتجمعت تلك الجهود وكلها فى سبيل إسعاد البشر ورفاهيته أصبحت الحياة حلوة لذيذة وأصبح لها قيمتها .

ولما كانت سعادة البشر ، (ولو فى دائرة محدودة) هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية فأن موطن تلك الحضارة ومنشأها وهى القارة الأوربية ، مصدر النور والعرفان ، والتى طالما نفذت أشعتها إلى المجاهل والغابات والأدغال ، فاستضاءت بنورها ، ونهلت من منهلها حتى نسجت على منوالها ، فبعد أن كان يعيش أهلها أقرب إلى الحيوان منهم إلى الأنسان سهلت لهم الآن سبل الحياة الحقة وما فيها من سعادة ونعيم . وما خلق الأنسان ليرضى بالوجود فى أى حالة تضعه فيها ظروف الوسط الذى ولد به دون أن يفكر فيما حواليه . لكنه خلق ليحاول أن يعيش ، وعليه أن يحاول معرفة مافى هذه الحياة من أسرار غامضة ، وحقائق مبهمة ، وما فيها من لذة وألم ، وبذلك تلذ له أيام حياته فيحرص على كل لحظة منها مهما قصرت . والذى يدهشنى كيف أن الشرق المعمور بمئات الملايين من الخلق والذى نبتت فيه بذور حضارات عدة بعضها أينع وأثمر : قد رضى بحالته الراهنة فلم يطرأ عليها تغيير جوهرى منذ مئات خلت من السنين .

أخذته سنة حتى أغرق فى نوم عميـــق ، وأصبحت حالته حالة جمود فلم يعد يقدّر قيمة لحياة مئات الألوف من سكانه ، وليست الحيـــاة بينهم سوى الرضى والقنـــاعة بالوجـود والتمسك بالقديم وماخلفه لهم الأجداد الغابرون . لم يع الشرق وأهله حتى يواصلوا التفكير فى تخفيف عبء الحياة والتقدم بوسائلها ، والنهوض بها من ذلك الدرك الحيواني الذى يعيشون فيه ، فأن سر الكون نشوؤه وتطوره على نحـــو ماجرى عليه الغرب .

وأخيراً شاءت العناية الألهية للشرق أن يتحرك ، فاستيقظ متثائبا وقد طال على نومه الأمـــد ونظر فيما آلت إليه حاله ـ فوجد أن الفضل كل الفضل فى يقظته يرجع إلى امتـــداد يد استغلال الغرب إلى جميع نواحى حياته العمرانية والاجتماعية ، والتى فى كثير من الأحيان قبضت قبضة حديدية على موارده .

أهتزت لذلك عزة الشرق وصار يصول ويجول بالقـول على من لا يسمعه، ويكثر فى الكلام عن كرم محتده وتاريخه القديم وعما قدم للانسانية من خـــير ، وما خلّف من تراث ، إلا أن السهم قد نفذ إلى الصميم وأصبح لايجدى معه القـول ، وضربت على أمـــه الوصاية طوعا أو كرهـــا . فيجب على الشرق وتلك حاله أن يقبل هذه الحقيقة مهما كان فيها من

جرح لعزته، وتعريض بتاريخه، وليعلم أن الغرب محق فيما يسعى إليه - فهو أولا يرى سعادة أهله وبنيه الذين فكروا فعملوا وضحوا ولا بد أن يكافئوا، ثم يرى تقدم الانسانية ثانيا.

لاسبيل للشرق إلى استجداء رحمة الغرب، وليعلم أن الفرصة كانت لديه قبل أن تصل إلى الغرب، وأهملها تمر فضاعت، فمهما قدم من ندم وأعذار فلا عطف عليه ولا شفقة. وإنما السبيل الوحيد هو أن ينهض الشرق نهضة عملية علمية لا كلامية خيالية جوفاء، ويوحد صفوفه ثم يحاول محاولة جدية قطع ذلك الطريق الطويل المملوء بالمتاعب والمشاق والذي يفصل بينه وبين منافسة الغرب. عليه أن يستهين بكل مايقوم أمامه من صعاب، وبكل تضحية مهما عزت وغلت حتى يسترخص الدماء والمال والأرواح في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة. فأذا قيض الله له النجاح ووصل إلى مابلغه منافسه من الرقى والعلم والعمل - فحينئذ فقط يتكلم مع أخيه الغرب بلغة النظير للنظير، ويقف أمامه موقف المساواة فى كل شيء، ولن تكون هناك قوة فى الوجود يمكنها أن تحول دون ذلك. فأنا نرى اليوم أن إرادة الشعوب القادرة محترمة، فما بالك إذا كانت هذه الأرادة تطلب حقا لها قد غفلت عنه ردحا من الزمن لتسترد به عزتها، وتواصل حياتها تحت

الشمس كريمة عزيزة .

ولكن كيف السبيل لمصر العزيزة حتى تنهض وتساهم بنصيبها فى نهضة الشرق السامية ؟ وكيف وعلى أى وجه تتمكن من أن تسمع صوتها الحقيق جاراتها من أمم الغرب فتكسب عطفهم وتنال منهم تأييداً لما تطلب ؟ وفى النهاية تصل إلى درجة تتمكن معها من أن تطلب إعتراف العالم أجمع لها بالرشد والحزم فى تسيير أمورها ، والسهر على مالها وما لغيرها عندها من مصالح ومنافع خاصة أو عامة . . ! !

أننى كما ذكرت قبلا فى هـــذه المذكرات طالب « علوم » لم أعهد فى نفسى يوما ما ميلا إلى السياسة أو حباً لها ، حتى أتقرب منهـــا بالدرس والفحص ، وبذلك يمكننى أن أتقدم إلى تحبيذ أو نقد وجهات النظر المختلفة ، وما هى العوائق والمصاعب التى تقف فى سبيل ما أنشده لمصر من الوجهة السياسية ، وما بيننا وبين الدول الأخرى من مشاكل دولية كنظام الامتيازات البالى أو حماية الأقليات أو . . . أو . . . الخ مايعرفه رجال السياسة والمشتغلون بها ، وما أكثرهم بمصر سواء عرفوا عنها شيئا أو لم يعرفوا ؛ إلا أن معظمهم وجد فى حزبيتها الطائشة الجامحة ، وتيارها القلّب ، وبنائها الواهى الأساس مسرحا يلهون فيه ويلعبون ، وفى كثير من الأحيان يصلون إلى ما يبتغون من شهرة زائفة وجاه

لاسبيل إلى الوصول اليه إلا عن مثل ذلك الطريق . فالسياسة فى مصر تجارة رابحة دخلها الوظائف الكبرى فى الدولة والمنافع الشخصية والمحسوبية والوسطاء . وأما رأس مالها فلا شىء سوى إلقاء القول الجزاف ، والتقلب على مبادىء الأحزاب ، وبالجملة فلا عقيدة ولا تضحية قيِّمة مجدية فى سبيل الوطن ومن أجل سعادة مصر ورفاهيتها .

لكن فى هذا القطار السريع الذى ينهب الأرض نهبا يهمنى أن أدون فى هذه المذكرات كل ما يجول بخاطرى فى سبيل تحليل أمراضنا الاجتماعية ، والتغلغل فى أسبابها على نور الغرب ، فان سر الحكمة هو معرفة الداء ومنشئه وتاريخه والتطورات التى طرأت عليه فأوصلته إلى حالته الراهنة - وعندئذ يتقدم الطبيب لاستئصال جراثيم الداء ، أو على الأقل للتخفيف من وطأته على نور التشخيص الحقيق . فاذا ما انعكست آية تفكيرى على مجتمعنا فى مصر وكيف كوِّن ، وما هى العناصر التى دخلت فى تكوينه : بدا لى أن كل مايظهر عليه من أعراض الفساد والانحلال ، وضعف الأخلاق وحب الفردية الجامحة ، وعدم التجانس فى كل شىء حتى فى المبادىء الاساسية للحياة اليومية ، كالمسكن والمأكل والمشرب، هى نتيجة حتمية لأساس تكوينه . فأن سكان مصر وعددهم يربو على أربعة عشر مليونا

ليس بينهم نصف مليون يمكنه أن يعتبر نفسه مصرياً حقاً ومن سلالة الفراعنة - فلقد دخلها اليونان والرومان وأترفوا فيها ماشاء لهم الترف ، ثم العرب بنفوس البادية الجائعة فنعموا فى أرضها ووصفوها بجنة الله فى أرضه . واسترسلوا فى شهواتهم ، ومضوا فى الحصول على لذتهم الجامحة الطائشة، فأخذوا بالقشور ولم يحفلوا باللباب . وتلك كانت إحدى الظواهر البارزة فى مدنيتهم التى لم تعمر طويلا ، واستهانوا بحرية الناس فضربوا عليهم الجزية والاستعباد حتى بلغ الأمر ببعض حكامهم أن خيل إليه الشيطان إمكان التحكم فى عقول الناس ومشيئتهم وتدخلوا فى حياة الفرد الخصوصية - ولو أنهم فى مدة حكمهم وتعاقب خلفائهم كان بينهم الصالح والطالح . فقد انتشرت فى ربوع مصر العلوم والمعرفة ، وأصبحت القاهرة تنافس بغداد ، ودمشق ، وقرطبه ، وصارت كعبة للمتأدبين والشعراء ، إلا أنى أشك كثيراً فى أنه بالرغم من انتشار العلوم والعرفان ، والفنون والصناعات، قد ارتفع المستوى الأخلاقى والاجتماعى إلى الحد الذى كان قد وصل إليه عمرانهم فى نواحى الحياة الأخرى . دارت الدائرة على العرب وقضت الفوضى والاضطراب وضعف الحكام على عهدهم بمصر وقد طال أمده.

رزئت مصر بعد ذلك بغزو الترك لها وكان عهدهم شؤما

عليها انحطت فيه الأخلاق إلى اسوأ درك ، وكان العهد كله سلسلة منقطعة النظير من الرذائل والمخازى ، وفساد الأخلاق التى تجلت فى قسوتهم وشدة بطشهم والانحطاط الكبير فى كثير من نواحيهم الخلقية ، وسرعة تقلبهم من حال إلى أخرى حسب ماتوحيه إليهم طرق النفسية الدنيئة ـ فلا مأمن ولا سلامة حتى لأقرب المقربين إلى حكامهم وسلاطينهم ـ وقل معى أنه لم يكن هناك سلامة للحكام ممن أجزلوا لهم العطاء وتظاهروا بالتفانى فى خدمتهم والسهر على راحتهم .

عمت الأدارة الحكومية فى أيامهم الرشوة بالعرض والمال ، والسعي بالنميمة والمنكر والتزلف والمحسوبية والأنانية والخوف حتى ثبتت جذور تلك الرذائل فى النفوس وأصبحت هى الجواز الوحيد والكفاية التى تتطلبها خدمة الحكام والسهر على مصالح الشعب المنكود . الذى أثقلوا كاهله بالجزية تلو الجزية دون شفقة أو رحمة ، واستعمل الجباة فى جبايتها السوط « والكرباج والعدة والضرب إلى الموت »

ونشطت تجارة الرقيق إلى حد لم تبلغه من قبل ، وهان على الناس بيع فلذات أكبادهم ونسائهم ليشبعوا جشع القائمين بالأمر ، ورضى سواد الشعب بالفتات أو التضور جوعاً ، ونزل عن كده وعرق جبينه إلى فئة الحكام والحاكمين لينعموا

بالحياة فى بذخ وترف بين عشرات ، وفى بعض الأحيان مئات من الغوانى والحسان والجوارى والفتيان ، وبلغ التنافس بعدد « الحريم » وما خلفنه من البنين والبنات منتهاه ـ حتى وصلت مخازى ذلك العهد المشئوم إلى أن كثر تآمر الأخ على أخيه ، والعم على ابن اخيه ، وهلم جرا ، فتوالت المجازر فى قصورهم وسالت منها دماء الكبير والحقير . ومع ذلك كله كانوا يتبجحون بالقول الهراء انهم خلفاء الله فى أرضه ، وانهم حماة الدين ـ وهم لم يتركوا فيه فضيلة إلا نقضوها ولا رذيلة إلا ارتكبوها .

وليس ذلك فى أرض مصر فقط ، بل فى جميع البقاع التى امتدت إليها يدهم ، فدولتهم قامت على الدماء والقسوة ، واستمرت بمقدار ما استمر لهم البطش بالناس ، والأخذ بالعنف والسيف ، وما كان أسرع تدهورها عند ما بدأت قوات سيوفهم ومدافعهم وأساطيلهم تتدهور .

وما نظام الامتيازات البالى الذى نئن تحت عبئه الثقيل إلا أثراً من آثارهم ، وما الرشوة إلى عهد قريب ، والمحسوبية والفردية وحب النفس إلى يومنا هذا فى الادارة الحكومية وغيرها إلا من غرس أيديهم ، وما جبن سواد الشعب وخوفه وتزلفه للحكام ، واستجداء التقرب منهم إلا أرثا غير صالح

مما كانوا قد فرضوه على النـاس فى أيامهم حتى أصبح عادة أبان حكمهم فى أجياله المتعاقبة ، وليس من السـهل التغلب على عادة فى وقت قصير من الزمن

عقب حكم الترك فى مصر دخل الفرنسيون إليها أبان حملة نابليون بونابرت المشهورة ولـكنهم لم يمكثوا بها وقتا كافيا حتى يظهر أثرهم خيراً كان أو شراً فى حياة مصر الاجتماعية .

وأخـــيراً قيض الله لمصر رأس الأسرة العلوية الـكريمة الحاكمة ، فكان رجلها الأوحد ، عزّ عليه أن يراها طعمة سائغة على مر الدهور وكر الأعوام ، تنعم بخيراتهـا الدول التى تتمكن من بسط يدها عليها ، وأما أهلها فقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة فيكدون لغيرهم ، ويزرعون وغيرهم يحصدون ـ عز عليه أن يكون ذلك حالها وهو الآخر ينعم بنعيمها ويطفىء ظمأه من نيلها حتى قام فى وجه الباب العالى يطلب لمصر الاستقلال ولم يبخل فى ســـبيل استقلالها بغال أو ثمين ، فأخلص لقضيتها أخلاص الأبن البار الذى يعترف بجميل الوالدين حتى كتب الله له النصر فاستقلت على يديه مصر بعد أن أستعبدت زمناً طويلا .
بدأ يسترد لها مافقدته من عزة ، وما سلبتها مئات السنين من الاســتعمار من كرامة ونخوة ، ألا أنه من سوء حظ مصر أنها لم توفق فى السهر على تربية ذلك الجيل الناشىء ، والتعهد بالقيام نحوه

بما يجب، حتى يكبر ويترعرع ويصبح قوياً قادراً على أن يذود عن حوضه ويرد سهم عدوه اذا ماصوب اليه .

هبت عليها عاصفة الثورة العرابية وهى لا تزال فتية فلم تقو على احتمالها وتحطمت دعائم استقلالها وتصدع ذلك البناء الذى قام بتأسيسه محمد على باشا الكبير بعد أن ضحى فى سبيله بكل حب واخلاص ، وفى تأسيسه بكل ماملكت يداه من مال ودماء ، واسترخص فى تقوية دعائمه كل شىء ، حتى دفع أولاده وفلذات كبده فى سبيل الذود عن كيانه والأعلاء من شأنه . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قضى الأمر وانهار البناء ودخل الانجليز أرض مصر وتحكموا فى أهلها شأن المستعمرين فى جميع بلاد الارض ، وضربت علينا الرقابة والوصاية والتدخل فى أمورنا وشئوننا الحيوية والاجتماعية مما لازلنا نعانى ، إن لم يكن كله فمعظمه اليوم .

ليست هذه العناصر التى ذكرت هى وحدها التى تمثل مجتمع مصر وشعبه : بل فيضان نيلها السنوى بالخير العميم ، وما اتصف به أهلها من المثابرة على العمل فى صبر وجلد ، وحب السلم ، وكرم الضيف ، وسعة الصدر ، وما حبتها الطبيعة من موقع جغرافي نادر الوجود فهى حلقة إتصال الشرق بالغرب وخصوصا بعد شق قناة السويس : زد على ذلك ماخلفه الحكم التركى من

بقاء الامتيازات الأجنبية معمولا بهـــا إلى اليوم . كل ذلك جعلها هدفاً للمطامع الدولية والشخصية فتحولت إليهـا رءوس الأموال الأجنبية لتستغل مواردها الـكامنة ، وأهلها عن ذلك غافلون ، كما نظر اليهـا مختلف الأفراد من جميع بقاع الأرض وخصوصاً الذين هم من رعايا الدول ذوات الامتياز ، فمن كان منهم قد ضاق به العيش فى بلده رحل إلى مصر عله يجد فيهـــا مورداً للرزق ، ومن كان منهم يحب المخاطرة لـكسب المال وجد فيها مغنمه وما يبغيه لأنماء ثروته - وكيف لا تنمو الثروة مادامت فى كنف الامتيازات دون ضريبة دخل أو عوائد أو . . أو . الخ بين شعب ســـخى كريم ساذج إذا ما اضطرت أفراده الحاجة ، مد يده إلى تلك الثروة يقترض منهـا بأرباح باهظة قلما يسمع بفداحتها سكان أمم الغرب حتى تخالها أسطورة من الأساطير .

وعلى هـــذا تجد كل أمم الارض تقريباً ممثلة فى مصر وخصوصا الأمم الغربيـــة وجاراتنا من الأمم الشرقية كسوريا ولبنان وفلســـطين وبلاد شمال أفريقيا المتاخمـــة لحدودنا وغيرها وغيرها . . فلا تجانس ولا تآلف بين الســكان - فهم متباينو الأجناس ، مختلفو الميول والامزجة . وكثيراً ماترى كل جالية من جالياتهم تكاد تكون مستقلة تدير أمورها بنفسها ، ليس هناك من رابطة تربط الجميع لأن معظمهم لا يريدون أن

يساووا بينهم وبين سكان مصر العاديين فى الحقوق والواجبات، مهما طال على مكثهم الأمد، ومهما كان لمصر عليهم من خير وفضل. بل أن كثيرين منهم ينظرون إلى المصريين نظرة السـيد للعبد، فلا يقتربون منهم إلا لحاجة، وان هم ظفروا، بها رغبوا عنهم وعن مجتمعاتهم وعن كل شىء يميزهم، حتى لا يحسبهم غيرهم من الجاليات الأخرى قد تمصروا ـ فلكل جالية لغتها، ولكل جالية تقاليدها ومجتمعها، أو ربما سمح للجاليات بالاختلاط بعضها ببعض، ولكنى لم أسمع بعـد باختلاط إحدى هذه الجاليات بمصريين ... أو كما يقولون فى كثير من الأحيان بالعرب ....!

مضى على ذلك الحادث الذى لايزال يعلق بذاكرتى أكثر من ثلاث سـنوات وهو على ما فيه من دلالة على قصر نظرهم يدل دلالة واضحة على مبلغ تفكير هـذه الجاليات ومركزها بالنسبة للمصريين

كنت ذات يوم أتمتع بأشعة الشمس وهواء البحر العليل على شاطىء البحر فى رمل الأسكندرية، وسبحت فى التفكير وإذا بسيدة ـ عرفتها فيما بعد انها أرمنية وليست انكليزية ... أو فرنسية .. أو ... تصيح بصوت عال بالفرنسية على ابنها الصغير الذى اقترب منى «انه عربى. انه عربى.. تعال هنا يا..!!» نسيت اسم الطفل ـ

فما سمع الطفل ذلك حتى رجع اليها مسرعا . . ! !

تنهدت عميقا وقلت في نفسي . نعم أنني مصرى عربى ولكن لمَ أكون مدعاة خوف لابن هذه السيدة الأرمنية . . ؟ يالقدر ويالقسوته ! . . لقد سخرنا لغيرنا يمتصون دمنا دون رحمة أو شفقة ، وبعد ذلك كله ينفرون منا ويلقون الرعب فى نفوس أولادهم لمجرد التقرب منا أو من ظلنا . . . ! !

وربما كان أظهر شيء فى مجتمعنا المصرى وخاصة فى المدن الكبرى وعواصم الأقاليم التى تسكنها الجاليات الأجنبية عادة ، حيث يقبضون على ناصية التجارة ورءوس الأموال المتحركة والمصارف والبيوتات المالية ، هو الصراع الفردى والمصلحة الشخصية والاحتيال بكافة الطرق على كسب الأموال واستثمار ثروتهم الخصوصية . فلا أحد منهم - يستوى فى ذلك الفرد والشركة - يعنيه التفكير فى أمر مصر وسعادتها ورخاء أهلها إلا بقدر مايعود عليه من فائدة .

فكيف اذن يتيسر لمجتمع قوامه كما ذكرت عشرات الأجناس المختلفة المتباينة ، وكل جنس منها له تفكيره الخاص ، أن توَحّد صفوفه وتُقَرِّب بين وجهات نظره المختلفة حتى يشعر بشعور واحد . . . ؟ ان وصولى على عجل الى نتيجة تحليل مجتمعنا فى مصر ولم أتبع فى ذلك حقائق التاريخ مبوبة وكيف

حصلت حوادثها وماجناه الشعب من أثرها . . . وذلك لجهلى بتلك الحقائق إلاّ أن ماذكرت من وحدات تكوينه إن لم تكن قريبة من حقيقة ماوقع ففيها الشيء الكثير منها .

والآن أتصفح هذه المذكرات وأعيدها فيظهر لى على ضوء ذلك التحليل أن ماوصلت اليه من نتائج التباين والاختلاف فى المجتمع المصرى هو الأساس المباشر أو غير المباشر لجميع مايبدو عليه من نقص ومايفتقر اليه من مميزات .

يقولون أن ليس لنا سياسة ثابتة ولا أرادة قوية فعالة ، فنحن قوم نسير مع كل تيار ، وما أسرع تقلبنا من وجه إلى وجه ، ومن مبدأ إلى مبدأ ، حسب مقتضيات المصلحة الشخصية ـ ومادامت تلك حالنا ، فلاعطف علينا ولا احترام لحقوقنا . . . !!

حقاً عندى مايقولون . . . !!

ولكن يجب على القائل أن ينظر إلى أساس المجتمع وتكوينه قبل أن يلقى بالقول جزافاً : نعلم أنه كلما قلت العناصر والأجناس المكونة لأمة من الأمم شعرت تلك الأمة بشعور واحد ـ واذا ماسرى ذلك الشعور الواحد ، فان جميع الأعمال التى تصدر عن أفراد الشعب تكاد تكون متشابهة متماثلة ، وأن هى اختلفت فى أشكالها وأوضاعها فان جوهرها وهو الشعور لايزال واحداً يرمى إلى غرض واحد ،

وتتجلى فيه روح الوحـــدة والاستقرار ـ ولا أدل على ذلك مثلا من أن انجلترا ، وسوادُ سكانها فى حالتهـا الراهنة من أصل واحـــد وعنصر واحـــد وهو العنصر السكسونى ـ تجد أن سياستها وأعمالها تصدر عن شعور واحد ، فهى أكثر استقراراً وأقـــرب إلى الاجمـاع فى تدبير شؤونها ، وتكييف سياستها الداخلية والخارجية من الأمم التى تنافسها فى القـــوة والعظمة . فمثلا جارتهـا فرنسا ـ فان قوام سكانها خليط من عنـاصر ثلاثة وهى العنصر السكسونى وعنصر البحر الأبيض المتوســـط (Mediterranean Races) وعنصر جبـال الألب (Alpine Races) ـ ومع أن هـــذه العناصر الثلاثة قد امتزجت بعضها ببعض مدة طويلة من الزمن ـ إلا أن هذا الامتزاج لم يمح بعـــد الشعور الأصـــلى لكل عنصر حتى يوحـــد بين جميع السكان ، فيشعرون بشعور واحد ـ ودليل ذلك ظـاهر فى عدم استقرار السياسة الفرنسية وسرعة تغيرها بتغير شعور القائمين عليها .

وعلى هـــذا المقياس يمكن أن يقاس مبلغ استقرار سياسة أمم كثيرة ، ووجهات نظرها والنتائج التى ترمى اليها هذه السياسة ، والتى يكون الدافع اليها الشعور المستمد من شعور العنـاصر والأجناس البارزة فيها .

أليس هنـــاك اذن سبيل لبناء مجتمعنا المصرى وهو على مافيه من تفكك، ومايحويه من عناصر وأجنـاس مختلفة عديدة، بعضها يأبى أن يندمج فيه ، وبعضها لاينظر إليه إلا كما ينظر السيّد المتعالى إلى عبده المتواضع الذليـــل ؛ فلا يشعرون بما يشعر به عامة النـــاس ، ولا يفكرون فى خيرهم وسعادتهم مادامت وسائل العيش والترف فى متناول أيديهم .... ؟؟

لست أعهد فى نفسى قدرة أو حكمة لأصف دواء ناجعاً لحالة اجتماعية كالتى نحن بصددها الآن ، غير أنى لا أتمكن من ضبط نفسى وتحويلها عن التفكير فى مثل هذا الطريق الوعر ، وقد قطعت فيه مرحلة حتى بدا لى أنى قد كشفت سر الداء وأبيت ألاَّ أن أتمم ذلك باقتراح دواء ولو لم يكن فيـــه الشفاء كله ـ لذلك فانى أتقـــدم إلى سكان مصر عامة لافرق بين وطنيين مصريين منهم، أو متمصرين، أو أجانب، مهما كانت أصولهم ومهما اختلفت أجناسهم ، فأحتكم إلى ضمائرهم وأذكرهم أن من أمقت مايتصف به المرء الجحود بالنعمة ونكران الجميـــل وحُبُّه الأخـــذ دون عطاء ـ فطالما رضوا لأنفسهم أن تتغذى أجسامهم ، و تبنى أجسام أولادهم وعشيرتهم من خـــير مصر ومما تنتجه أرضها ، ويطفئوا ظمأهم من نيلها ، ويتمتعوا بالحيـاة حـــلوة لذيذة بضرورياتها وكمالياتهـا نتيجة استغلالهم لموارد

مصر ، وأخـــيراً يتمتعون بمناخها المعتدل اللطيف ذى الشمس الساطعة والسماء الصافيـــة الأديم ـ اذن حَقّ عليهم أن يهبوها شعوراً حقيقياً من عطف أرواحهم ، واعترافاً فعلياً بما لنيـــل مصر عليهم من فضل ، فان فى مياهه التى تنساب فى مجـــراه الضيق المبـــارك حياة لهم ولابنائهم

اذا ما اتحدت سكان مصر على اختلاف أصولهم وأجناسهم وأقسموا يمين الاخلاص لخير ذلك الوادى الذى رحب بهم وغمرهم بخيره وفضله ، حتى أصبحوا يعيشون فى سعة ورغد من العيش ، فان ذلك الاخلاص لامحالة سيولد شعوراً حقيقياً فى النفوس يدفع الناس أجمعين إلى غاية واحدة، وسيتجلى ذلك الدافع فى عمل الفرد اليومى العـــادى دون أن يعرفه الفرد نفسه ، ولكن كما ذكرت سالفاً فان الأعمال فى معظم الأحيان تطبع بطابع الشعور النفسى الداخلى حتى أن أعمال الفرد الخاصة أو العامة تظهر كأنها مرآة حقيقية لشعوره ودخيلة نفسه .

وهذه الغاية التى سيعمل لها الجميع هى سعادة مصر ورفعتها واعلاء كلمتها بين الأمم والمحافظة عـــلى عزتها وكرامتها بالدماء والأرواح والأموال ـ ومتى وُجِدَ الاخلاص الحقيقي الذى ينمو عنه شعور العمـــل للوصول الى تلك الغاية ، فثق بأنه مهما اختلفت السبل ، وتعددت وجهات النظر ، وأخذ كل فريق

يفكر لنفســـه حسبما يراه موصــــلا للغاية . فأن الجميع مهما سلكوا من وجهـــات متعددة ، ومهما ولجوا من أبواب موصدة ، فسيسترخصون كل غال وثمين ، وسيضحون وهم فى ذلك طائعين مختارين ، فرحـــين مستبشرين لذلك الســـبيل الذى إذا سلكوه فأنهم لامحالة واصلون إلى ما يبتغون .

وأنى باقتراح كهذا لست أطلب المستحيل من سكان مصر ومن فيها من عناصر مختلفة - ولهم خـــير أســـوة بأمريكا وخاصة الولايات المتحـــدة . فسكانها كما يعرف الجميع من أجناس متعددة ، وأصول مختلفة متباينة ، نزحوا اليها من جميع بقاع العـــالم تقريبا واستوطنوا فى أرضها التى غمرتهم بنعيمها وخيرها ودرت عليهـــم الذهب والفضـــة وتكدست رءوس الأموال من خـــيراتها الكامنة فيها - ولما دعا داعى استقلالها ووجوب حيـــاتها بين أمم الأرض عزيزة كريمة ، لتتنفس هواء الحرية تحت الشمس ، وتحكم فى أمورهـا الداخلية والخارجية ، حينما تريد ، وحيث تريد ، تبعـا لرغبتها الخاصة لا تنفيذاً لرغبة أخرى فرضت عليها لتقبلها .

فلما قام من أجـــل ذلك النضال بين سكان تلك الديار والمستعمرين البريطانيين ، وتطور نضالهم الى حرب الاستقلال المشهورة التى اشتركت فيها جميع العنـــاصر والأجناس مهمـا

كان أصلهم او لغتهم ، فوحدوا صفوفهم وقـــد سهل عليهم ذلك شعورهم بشعور واحـــد نحو سعادة الوطن وكرامته ، واعـــترافهم بجميل الأرض التى رحبت بهم فاستوطنوها وأصبح لها عليهم حق . ولقـــد برهن الجميع - حتى من كان منهم قد نزح إلى امريكا من بريطانيا العظمى أومستعمراتها - أنهم استهانوا بكل صعب ، ووقفوا فى وجه كل خطر ، وقدموا أنفسهم قربانا لوطنهم الجـــديد . وما هى الا عشية أو ضحاها حتى ظفروا لأرضهم بالكرامة والعزة ، ولوطنهم بالمجد والرفعة ، وأعلن استقلال البـــلاد ورفع عنها النفوذ الأجنبى . ولو أن هذا النفوذ لم يكن غريبا على كثير من السكان الذين هم من أصل ودم واحد بل فى بعض الأحايين من مواليد بريطانيا العظمى ، إلا ان وجودهم بأمريكا ورضاهم بالاســـتيطان فيها وما غمرتهم به من فضل ، حوّل شعورهم وخلق فيهم شعوراً جديدا نحو وطنهم الجديد الذى من أجله تقدموا الى ســـاحة القتال ليقابلوا فيها العدو ، وما جيش ذلك العـــدو إلا من أخوانهم وأقاربهم وجـــيرانهم ومواطنيهم بالأمس .

عند ذلك الحد من التفكير بدأت أتصفح هذه المذكرات لأقرأ فيها ما جال بخاطرى ، وما عنت لى كتابته عن نظام المجتمع المصرى وطرق اصلاحه فلاحظت فيما كتبت نقصا كبيرا - لحقائق التاريخ

التي ذكرت غير واضحة ولا جلية، وسلسلة الأفكار ليست منتظمة كما يجب أن تكون. فكثير من حلقاتها قد تكرر الى حد السأم والضجر فعزوت معظم هـــذا النقص الى أن حبل التفكير لم يكن متواصلا، فكثيراً ما تخلله فترات من الاضطراب تختلف فى القصر والطول - تحـــوُّل النظر الى منظـــر طبيعى أطل عليه من نافذة القطار، أو محادثة غريبة بين الركاب، أو تغلب الكسل والخمـــول حتى أغمض جفنى وأحاول النوم.. أو ما شاكل ذلك.

أمسكت بالقـــلم وبدأت أحاول أن أجلو ما غمض من حقائق وأردت أن أتخلص من ذلك التكرار المعيب، وماهى الا لحظة أمضيتها أفكر فى خـــير الطرق التى أسلكها فى عملى الجديد، حتى لفتت نظرى كثرة الحركة بين الركاب ونهوضهم لترتيب أمتعتهم. أردت ان استطلع الخبر ونظرت من النافذة فاذا القطـار قـــد قارب الدخول مدينـة - سألت أحـــد جيرانى فأخبرنى انها «كاليه» وهى آخر محـــطة يصل اليها ذلك القطار على الحـــدود الفرنسية - فلم يكن هناك بد من أن أترك هذه المذكرة على حالها، وأنهض لأرتب نفسى فأستعـد لمغادرة القطار الى السفينة التى تصل بعد ساعتـــين من هذه اللحظة الى ميناء «دوفر» الانجليزية.

الاستقبال

كان فى استقبالى على محطة ليفربول نفر من الأصدقاء وبينهم كلير وكاتلين وما أن وقع نظرى على الأخيرة حتى شـــعرت باضطراب فى أعصـــابى، وازدياد فى نبضات قلبى، وتغير فى حركاتى، إذ ظهر ذلك عليَّ جلياً فتلعثمت فى القول وفقدت كثيراً من ذلك الهدوء الذى طالما احتفظت به إلى حد أن كان يصفنى به بعض الأصدقاء.

حيانى الجميع وهم على مايظهر فرحون باسمو الثغر، فاجتهدت أن أرد تحيتهم بمثلها ثم بدأت بمصافحتهم فرداً فرداً، وتعمدت أن تكون كاتلين هى آخر من أصافح على أتمكن من القبض على يدها ولو برهة قصيرة من الزمن ـ وكنت أود أن تكون بمفردها حتى أطبع على تلك اليد قبلة تحمل اليها بعضاً مما يكنه لها صدرى ويخفق به قلبى ـ ولكن بمجرد الفكر فى أنى أصبحت الآن بجوارها وسأنعم برؤيتها كلما شاءت ظروفنا ذلك أدخلت على نفسى سروراً وعلى قلبى برداً وسلاما.

ولما كان بعض مستقبلي لم يسبق لهم التعرف بالبعض الأخر، رأيت واجباً عليَّ أن أقوم بهـــذه المهمة دون بطء أو تريث فذلك أمر لازم الحصول وخصوصاً فى المجتمعات البريطانية

وكانت هذه أول مرة التقت فيها كلير بكاتلين وجها إلى وجه ، وربمـــا سمعت إحداهما بالأخرى من محادثة لى ، أو أطناب فى وصف أحداهما عند التحدث للأخرى عمن أعرف من أصدقاء فى المدينة .

إعتذر بعض الأصـــدقاء وبينهم كاتلين عن مصاحبتى إلى المنزل ومن بقي منهم رافقونى ، وما هى الا لحظة بعد الوصول حتى استأذن الباقون فى الانصراف ، ولكننى الحفت كثيراً على كلير أن تمكث ولو قليلا ، فأبت وأسدت إلى النصح بوجوب الاستراحة بعد ذلك السفر الطويل ثم وعدت أن ترانى فى الغد .

برت كلـــير بوعدها - ولم أعهد فيهـــا غير ذلك - فحضرت فى ساعتها المضروبة ، دون تأخر منها ، أو قليل انتظار من جانبى ، وجلست إليّ طويلا تسألنى عما قوبلت به من عطف أو جفاء ، وما شعرت به من غبطة وسرور ، أو وحدة وانفراد ، وما شاهدته من تفاصيل الحيـــاة الاجتماعية وعادات الناس وأخلاقهم ، وكيف وعلى أى وجه يمكن مقارنة هذه الحالات والعادات بمثلها فى انكلترا وما هى عوامل الشبه والاختلاف . ؟ فتارة كانت تنقد وجهة نظرى نقداً مراً لما أقدمه من أســـباب وبراهين واهيـــة ضعيفة غير قوية فى بعض الحالات - وتارة كانت تتفق معى فى التعليل وتظن أن فى ذلك شيئاً من الصواب ،

وأخرى كانت تنير لى الطريق حتى أهتدى بفضل جدالها الهادىء الرزين الخالى من كل تحيز جنسى أو عصبية متطرفة إلى السبب الحقيقى كما أريد .

مكثنا على هذا المنوال وقتاً غير يسير ثم أردت بدورى أن أستطلع تفاصيل أيام الأجازة وكيف أمضتها . . ؟

فشرحت لى كيف اختمرت بنفسها فكرة تعلمها الطيران ، وما لاقته من صعوبة فى أقناع والدتها بصواب فكرتها ، وبعد اللتيا والتى أذنت لها بالبدء وكانت أشد الناس شوقا إلى تحقيق أملها فى هذه الناحيـــة . فعكفت إلى الذهاب إلى المطار فى صباح كل يوم لاح لها فى بدايته بريق أمل بأن الأحوال الجوية ستتحسن فيه لدرجة تسمح بالتمرين والتدريب . ولم يمض غير شـــهر من تاريخ البدء حتى ســـمح لها مدربها بالصعود فى طائرة منفردة بنفسها ـ ثم ماوصلت إلى هذه النقطة حتى أســـهبت فى بلاغة عما عن لها من فكر وآمال ، وما أحست به من شعور فياض وغبطة نفسية لما حققته من أمل ، كادت تحسب يوما ليس بالبعيد أنه أقرب إلى الأحلام اللذيذة منه الى الآمال الممكنة التحقيق .

ثم استطردت فى الحديث عن الطيران وميزته فى كل وقت ومستقبله فى المواصـــلات والهجوم والدفاع ، ثم انتقلت فى الكلام عن المحركات وانواعها وايها تفضل وكيف نجت بأعجوبة

من موت زؤام عند وقوف محرك طائرتها فى الهواء وهى على بعد كبير ، فسقطت الطـــائرة وتحطمت أجنحتها . . ولـكنهـا خرجت منها سالمة دون ان تصاب بكسر او رضوض . . . ثم تقول

ان ذلك لم يثنني عن عزمى ، بل بعد ساعتـين ونصف ساعة من وقوع الحادث كنت فى الهواء مرة اخرى بمفردى وكنـا خمسة نتسابق ، ففزت بالسبـق ، ونزلت الى الأرض عـــلى أتم نظام ـ وما كدت أخرج من طائرتى حتى أقبل عـــليَّ المهنئون ومدربى بينهم تظهر عليه أمارات الدهشة والاستغراب وكأنى به يقول فى نفسه . . فى خـــلال ساعات معدودات من موت زؤام لم يفت فى عضدها ولم يحدث فى اعصـــابها اضطراباً ولم يتملكها الخـــوف . . بل وصلت الى فوز فى السبق ونجاح فى الميـــدان .

كفانى ماسمعته منها من أخبار الطيران وأنا أجهل الناس به فلم أركب متن الهواء إلا مرة فى طائرة كبـــيرة من طائرات الشركة الأمبراطورية الجوية وحمولتها اثنان وثلاثون شخصاً . وكان الذعر والخوف يتملكان جميع حواسى .

أردت أن احول مجرى الحديث الى الكتب وما قرأته من أدب، وما أكببت عليه من درس وتحصيل، ولـكنى فى الحال أدركت مبلغ نشاطها فى تلك الناحية ، وان هى بدأت فلن يكون هناك مجال

لكلامى وربما تكشف فى أثنـــاء الحديث الشيء الكثير عن جهلى وعدم تتبعى قراءة كتب الأدب الحديثـــة ، وفى بعض الأحيـان آرائى الرجعية فى مسـائل معينة ، فاكتفيت من ذلك بالهزيمة وتقبلتها قبل أن أبدأ الحـــديث أو أعين ولو بالتلميح ذلك السبيل ، وما قطعت فيـه من مراحل . وآثرت أن أستدرجهـا من حياة الكد والجد والعلوم والآداب ، إلى ما هو أبسط وأقرب إلى حديث العـــامة . . . . سكت لحظة ، ثم قلت : ما بال « مارى » لم أسمع منهـا أو عنها شيئاً يذكر طول المدة التى تركتكم فيها ؟ .

قالت ـ رأيتها أربع مرات فقط ، وفى كل مرة صحبـــة كارل جالسة بجانبه فى سيارته التى تعرفهـا ، وآخر هذه المرات منذ أسبوعين . ولقد سألتها عمـا إذا كانت قد غادرت ليفربول فى هـذه الأجازة ، فعـلا وجهها شيء من حمـــرة الخجل والاستحياء ، وقالت فى صـــوت منخفض : نعم ذهبت إلى اسكتلنده مدة أسبوعين صحبة كارل بعـــد أن ألح علىَّ فى ذلك فلم أر بداً من القبول .

قلت : إن مارى فتاة خجولة يملؤها الحيـــاء فى الأمور التى تتعلق بشخصها ـ ولكنها على عكس ذلك فيما يتعلق بواجبها أو بغيرها من الناس ـ وهى على ما سمعت من أصـــدقائها

بمدينة « كيل » محبوبة جداً من أخوانها وصديقاتها .

قالت . لست أشك فى ذلك ، وأنا الأخرى أميـــل اليها ميـلا شديداً ، وأعتقد أنها خير الصـديقات ، فهى متحلية بكثير من الفضـائل التى يبغيها الانسان فى صديقـــه ـ وربما كشف كارل انفسه عن ذلك فازداد بها تعلقاً ـ وقد لاحظت أن فى كل نظرة من نظراته اليهـــا ، آية من آيات العطف ينبعث منها شعاع الميل والحنو والشفقة والحب .

قلت : أتظنين أن كارل اشتد هيـــامه بمارى إلى مثل ما تصفين ؟ ؟ .

قالت : ولِمَ لا يكون ذلك أو أكثر ـ فهو أيضاً كما عهدناه شاب خجول محتجز ، ولست أقول حـــدساً أو تخميناً ولـكن يحسن أن نـــترك الأمر الآن وأن نـكل إلى الحوادث والأيام أمرهما ، فلا مفر من أن تـكشف عنه إذا ماحان وقته .

أطرقت برأسى إلى الوراء واســـترحت فى جلستى ، ثم أشعلت سيجارة ، وقلت فى تردد شديد .

ماذا يعجبك فى كاتلين وماهى ملاحظاتك عليها لأول مرة . ؟ ؟

قالت : انها فتاة لا بأس بها من حيث القوام والجمال ؛ ولغتها تدل على انها ليست من وسط عادي « وسط العمال » ومظهرها وحسن هندامها يدل على الذوق وفوق ذلك فانها فتاة جذابة . .

هذا ما يمكنني أن أراه فيها لأول مقـــابلة . . ومع ذلك ف . . . ، وهنا طرقت الخادمة البـــاب ، ثم دخلت وأعلنت ان بالباب زائرين يرغبون فى مقابلتى ، فاستأذنت من كاير ، ونهضت نحو الباب ، وإذا بمارى صحبة كارل جاءا ليهنئانى بسلامة العودة .

جلسنا جميعاً نتحـدث فى صفـاء تام ، وجو مشبع بالسعادة والسرور ، وكأننـــا أخوة أو أقارب يفضى بعضنا الى بعض بكل حادث تطلب شيئاً من لفت أنظارنا اليـــه أو الاهتمام به طول الأجازة الصيفية ، ويجب أن أدون هنـــا ان نصيبي فى تلك المحادثات كان وافراً . فقـــد أمطرنى الجميع مختلف الأسئلة عما شاهدته ورأيته ـ وكانت مارى أشـــدهم شوقاً لسماع ما اجيب به ، خصوصـاً وصف الحياة الاجتماعيـــة الألمانية ، ونفسية الشعب وما خلفتـــه الحرب الكبرى وما تبعها من معاهـــدات ضيقت من حرية الشعب وفرضت عليه كثيراً من الواجبات التى أثقلت كاهله .

انتهى الحـديث وانصرف الجميـع ، ثم أسرعت فارتديت ملابسى وتركت المـنزل إلى حيث تشـتغل كاتلين ، على أحظى برؤيتها . وما كاد نظرها يقع علىَّ حتى أومأت إلىَّ ايماءة خفيـة عرفت مغزاها ، فتلكأت فى أحد أركان المحل استعرض شيئاً من البضائع ـ وبعد لحظة وجدتها مرت بجـــانبي، ثم قالت فى

صوت منخفض ـ الساعة السادسة مساء أمام محل . . . . !

كان ذلك خير بضاعة دخلت الى المحـــل من أجلها، فليس هناك ما يعادلها فى نظرى من مجوهرات أو حلى. وقمت فى ميعـادى فرحاً مسروراً إلى الطريق العام الذى سرت فيـــه ، وقد تعمدت ان انسى كل شيء حتى نفسى وأسلمها ولو لحظة الى ملاك الحب الطاهر فيرفرف عليها بأجنحته المبـاركة ، ويغمرها بسعادته الأبدية .

العام الدراسى الجديد

مرت الأيام مسرعة ، وبدأ العام الدراسي وأقبـــل الجميع على الدراســـة والتحصيل بهمة ونشاط جددهما فى نفوسهم عطلة الصيف وما أدخلوا عليها فى أثنائها من ترويح عنهـــا ، ورياضة للجسم ، وتنمية للمدارك ، وتنوير للذهن والعقل ، كلٌ حسب ماهيأت له ظروفه . فمنهم من سافر وتنقل فى البـــلاد الأجنبية أو فى أنحـاء انجلترا المختلفة . ومنهم من عمد إلى هواء البحر العليـــل فذهب إلى ساحله لينعم بميـاهه وأمواجه التى تتكسر على الصخور وتمتـــد الى الرمال ثم لاتلبث أن ترتد إلى مصدرها فى حركة منتظمة غير منقطعةوهم يعرضونأجسامهم

لأشعة الشمس وحرارتها وبذلك يعوضون عليها ماحرمته
فى أثناء شتائهم الطويل . ومنهم من سلم نفسه الى الطبيعة
وارتمى فى أحضانها يقضى نهاره تحت شمسها الساطعة ،
وفى ظل أشجارها الوارفة ، يتنفسون هواء الحرية فى كل شيء ،
ويعمدون إلى محاكاة الطيور فى أوكارها ، وفى الليل تكون
مأواهم خيام مضروبة الغرض الأول من وجودها معهم
وقايتهم من البرد وطوارىء الجو - وبالجملة ليس هناك بين
الطلاب من يتحمل الاستكانة والانكماش فى عقر داره ، ويقعده
الكسل عن الاستفادة بكل لحظة من لحظات العطلة الصيفية ،
اللهم إلا إذا اضطرته إلى ذلك ظروف قاسية تقعده عن أن يتمتع
بالعطلة ، وقلما يبدأ أول يوم من أيامها وليس هناك طالب
أو طالبة لم يكن قد كون فى ذهنه على الأقل منهجاً حافلا
بكيفية قضائها مراعياً فى ذلك ظروفه وطاقته .

تفرغ كل منا لدراسته وعمله وسلك سبيله وأصبحت
لا أرى كلير إلا قليلا : فتارة بطريق الصدفة بين أوقات
المحاضرات أو فى المكتبة وهى مكبة على الدرس والتحصيل ،
وتارة - وكان ذلك نادراً - بدعوة منها لتناول شاي بعد
الظهر مع بعض أخواننا وقد فهمت منها أنها لاتزال تسلخ
الشيء الكثير من أوقات فراغها فى ممارسة الطيران والتمرن

عليه . ولقد أولعت به ولعاً شديداً فليس هنـاك من يثنيها عن هـــذا العزم وهى مستعدة لأن تضحى فى ذلك السبيل براحتها وبما ادخرته طول حياتهـا من مال وانـــ لم يكن كثيراً ـ حتى أنها من شدة ولعها بهـــذا الفن بدأت تقتنى ما كتب عن تاريخ الطيران ، وكيف تطـــور وما وصل اليه ، وما ينتظر أن يصل اليه هـــذا الضرب من المواصلات وما يستعمل فيه أثناء الحروب ، وتضم ذلك الى مكتبتها .

وأما مارى فطالما فتشت عنهـا بين أوقات المحـــاضرات وقلما حظيت برؤيتها ، وأخـــيراً ساورنى القلق ودفعنى الشوق مع الاخلاص وحب الاستطلاع ، فكتبت اليهـا أطلب مقابلتها وحـــددت لها الزمان والمكان ان أمكنهـا ذلك ـ فردت على شاكرة بالقبول .

وكانت بجانبى تحتسى الشاي فى الميعاد المضروب . وبعـــد التحيـــة ، وكيف حالك وصحتك ، سألتها ـ «مضت مدة طويلة على بدء العام الدراسى ولم أرك فى أثنائها غير مرة ؟ ـ اتعشم ان يكون السبب خيراً . . . !! »

أطرقت برأسها وتنهدت تنهداً عميقاً ثم قالت . . .

هو خير . . . . واستطردت فى الحـــديث وقالت . . . عهدتك صديقاً وفيـــاً ولست أرى مانعاً من ان اختصك

بشيء من أسراري ... ان قبلت ذلك .. ! «ابتسمت في وجهها وقلت - لامانع عندي ان اشاركك ماتشعرين به واعدك ان احتفظ بسرك وسأضن به على اقرب المقربين اليّ فهو لك وليس لى حق التصرف فيه .

قالت - شكراً ... سبق ان ذكرت لك الظروف التي من اجلها غادرت اهلي وعشيرتي ، كما انك تعلم ايضاً الظروف التي اعيش فيها في هذه البلاد ، فانني لست حرة طليقة وخصوصاً بالنسبة للوقت . عندي وقت الدراسة الجامعية وقد كثرت محاضراته فهو عامي النهائي . ولا يخفاك مايتطلبه ذلك من جهد حتى أنهض بأعبائه وا كون في المستوى الذي ارضاه لنفسي بين اخواني وسرعان ماينقضي العام واجلس معهم الى ورق الامتحان ...... ثم هناك الواجب المنزلي الملقى على عاتقي وماتتطلبه مني سيدة المنزل من نظافة وترتيب واعتناء بكل شيء . فهي حريصة على ان اتبع في كل شأن من شئون المنزل نظاماً خاصاً ، وترتيباً خاصاً ، وذلك يتطلب وقتاً كبيراً - ثم هناك أيضا ممارستي اعطاء درس خاص لفتاة في اللغة الألمانية بدأته في أثناء العطلة الصيفية وقدوعدتها بالاستمرار فيه حتى مغادرتي هذه البلاد . فلست أجد في نفسي قدرة على التنصل من ذلك الوعد أو التهرب منه . ليس ذلك كل مايشغلني فحسب ....

بل . . بل . . . . ان لدى أمراً آخر هو فى الحقيقة السر الذى رأيت أن أئتمنك عليه فقبلت الامانة وها كه .

تعلم ايضاً الظروف التي قابلت فيها كارل والمحـــاولات التى كان يقدمها إلىّ وكنت دائماً اتجـــاهل امرها . واتجنب الاقتراب منه اقترابا من شأنه ان يسهل عليه ما يريد او يفهم منه أننى ابادله العاطفة بالعاطفة والود بالحنو .

لم يثن ذلك كارل عن عزمه فأكثر من التردد على المنزل ، وحل دائماً فيه على الرحب والسعة ، وانت تعرف ان ليس لى فى المنزل شيء حتى اتمكن من مصارحته ان علىّ فى هـــذه الحياة واجبا ثقيلا ، وعلى هـذا لا اتمكن من مقابلته كلما اراد ذلك . وتعلم ايضـا مبلغ ظرفه وادبه ، وحسن قوامه وهنـدامه ومقدار جاذبيتـه كشاب فى ريعان شبابه ، ومبلغ ثقافتـه وكده فى عمله ـ وانا اعلم منك بمـــا تشع به نظراته من عواطف تكشف عن دخيلة نفسه .

واما انا فلست أخفى عليك انى استلطفت كارل لأول مرة رأيته ، وكلما تردد على المـنزل ازداد قلبى ميلا اليه وتعلقا به وتقربا منه . . ولكننى كنت دائمـــاً اذكر الواجب الملقى على عاتقى فأتجاهل قلبى . . . . آه ، وكثيراً ما تجاهلته . . . الى ان ضقت ذرعا بتلك المحاولات الزائفـــة . . وكأنى انا المخلوق

الضعيف ، اردت ان اعبث بقـــانون من قوانين الطبيعة ، جرت عليه الحياة ، بل هو سرها منـــذ الأزل . ولـكنى بؤت بالفشل وصارحت نفسى بالهزيمـــة ، ولم أر بداً من الاقتراب من كارل ومصارحته بالأمر ليشملنى بحبه وعطفـه ، فيطمئن قلبي ويهدأ اعصـــابى ولو الى حين ، حتى يقضى الله امراً كان مفعولا ـ مما ذكرت تجدنى لا احس بسعادة الا بجانب كارل ، فمن صوته اسمع موسيقى الحياة تهتز بها اعصـــابى ، وفى كل ابتسامة من ابتساماته برد وسلام على قلبى . لذلك وتحت تأثير هذه الظروف القاسية فانى رحمة بنفسى وبقلبى احاول ان اسلخ بعض الوقت لأقضيه بجانبه فى الخلاء ، يبث الىّ ما يكنـــه من حب وغرام . وأنا الأخرى بدورى أظهر له ما بقلبى . . . عســاك الآن أن تعفو عنى ان أنا لم أسع الى مقابلتك فليس ذلك هربا منك ولـكنه اقتصاد لوقتى الثمين .

قلت : أما عفوى عنك فقـــد منحته اياك دون أى شرط أو جـزاء ـ وأتمنى من صميم قلبى أن تنعمى بحب كارل ، فقديمـا قالوا « الحياة الحب والحب الحياة » ولا حرج عليك إن أحببت وخصـــوصاً إذا كان الحبيب كارل ـ فهو شـــاب غاية فى الظرف والأدب وحسن المعاشرة ـ وأما ما تذكرينـــه من واجب ، فأرى ألا تفـكرى فيـه الآن ، وتنغصى عليك سـعادة

حبك . فاعبثي بقلبك ماشئت، وانعمي بحبك ما أمكنك ذلك . . وربما كانت هذه هي فرصة نعيمك فى الحياة فلا ترددى . . . ! !

انتهينا من الشاي واستمر حديثنا بعد ذلك برهة من الزمن ثم نظرت ماري الى ساعتها فنهضت تستأذن فى الذهاب .

صحبتها الى حيث موقف الترام ، ومكثت معها حتى ركبت وقد شيعتها بنظرات ملؤها العطف عليها والاعجاب بها فهى بحق تستحق كل مايقدم اليها فى ذلك السبيل وهى عندى مثل صالح لما يمكن ان تكون عليه الفتاة .

سرت نحو المنزل بخطوات متثاقلة ، أفكر فيما حولى من حوادث وتقلبات ، وما تحويه الحياة من لذة وألم - وكم من نفس هادئة مطمئنة تسير فى الطريق الذى اختارته دون أن تلوى على شيء ، ولا تريد شيئاً آخر غيره ، وهى تحسب أن ما تقدمه من إخلاص ومجهود فى تنفيذ خطة السير فى ذلك الطريق لا بد أن يوصلها إلى ما تبغيه . . . ولكن هيهات أن يجد الانسان أن السبيل إلى غايته هو ما اختطه ورسمه لنفسه قبل البدء فى العمل على الوصول لتلك الغاية - فغالباً تهب عليه عواصف الحياة المختلفة فى القوة والناحية ، والتى لا يمكن التكهن بساعة هبوبها ، ولا بالناحية التى تهب منها. ولا بمقدار قوتها، وما هى الصعاب والآثار التى ستخلفها هذه العواصف ، حتى

يمكنه أن يعد انفسه العدة لاتقائها إن استطاع ، وإلا فانه يجتهد أن يزود نفسه باصلاح ما دمرت ، وتعمـــير ما خربت وتقويم ما اعوج بتأثيرها - والذى دعانى إلى هذه الناحية من التفكير هو ما تركه فى نفسى حديث مارى .

فان أنا قارنت حالى وحالتى كلير ومارى فى هـــذا الوقت من السنة بمثـــله فى العـام الماضى - بدا لى أن عاصفة قوية قد هبت علينـــا فاقلقت راحتنا ، ووضعت عراقيـــل لم تكن فى الحسبان فى طريقنا، فان نحن لم نهتد الى التغلب على ما أمامنا من صعاب وازالة كل أثر خلفته هذه العواصف من نفوسنا ، فان النتيجة التى سيؤول اليها أمرنا هى أن يتحـــول كل منـا عن خطته المرسومة ويضل السبيل الى بغيته المنشودة .

كنا فى العام الماضى يرفرف علينا طائر الهدوء والسكينة - وبدت فى أثنائه الحيـــاة حلوة هادئة ، وظهرت بوادر مشجعة على تحقيـــق الأمل والوصـــول الى الغـــاية ، وسلكنا طريقاً حسبنا أننا نعرف ما فيه من صعاب ، فلم نأل جهـــداً فى اعداد أنفسنا لاجتيازها فائزين . وأكب كل منا على عمله يدرس ويحصل ويبحث ويدقق لاهم لنا غير هذا ، ولقد ظننا أن الدرس والبحث ومايتطلبه من صبر وجلد هو أهم العوائق التى حسبناها تعترض طريقنا الى النصر والنجاح الباهر .

مضى العـام الماضى وتقدمت زميلتاى الى الامتحان فكان التفوق والنجاح البـاهر نصيبهما وأما حظى من ذلك النصر فلم يكن بأقل منهما فقد غمرنى أساتذتى بفضلهم وحسن رعايتهم وثنائهم مع الاعجاب بما قدمته من نتيجـة بحثى فى موضوع عهـد الى بدراسته، ومن أجـله دبرت حملة فى مجلس الجامعة الأعلى بطلب اعتماد جـديد حتى أتمكن من نشره فى رسالة صغيرة - وقد كان ذلك . وتم لى نشره على من يهمه قراءته - وفى هذه المذكرات يجب ان أسجل مبلغ ماشعرت به من بهجة وسرور فكان فى تداول هـذه الرسالة نشوة من السعادة يشعر بها الانسان عنـد تحقيق أول أمل له فى حياته العلميـة . وعندى أن تلك أول خطوة خطوتها فى سبيل اثبات وجـودى العلمى وفى الوقت نفسه شعرت باغتباط عظيم لسنوح الفرصة التى هيأت لى التمكن من المساهمة - مهما ضؤلت قيمة سهمى - فى إمـداد الروح الجامعية بالحياة، فان حياتها كما أفهمها تتوقف على البحث والتدقيق والتنقيب فى مختلف العـلوم، لاعلى الحفظ والترتيل، واجابة أسئلة الامتحان، والفوز بالشهادات .

وعلى هذا مضى العام الدراسى الماضى وكان كله خيراً وبركة، واستقبلنا عامنا الدراسى الجـديد وحسبنا ان امورنا

ستظل تجرى على ما كانت عليه ، ولكن يد القـــدر لم تغفل عن سعادتنا وهدوئنا بل امتدت اليها ـ فسرعان ما انقلب الهدوء قلقاً ، والراحة تعباً ، والسعادة المأ .

وهذه مارى التى تركتها منذ مدة وجيزة قد وهبت نفسها فى سعادة وخشوع وهـــدأة بال الى واجبها الذى من اجله حضرت الى هـــذه البلاد ، حتى اذا ماعادت الى حيث أبواها وأخواتها وأخوتها وفت لهم ولنفسها بما وعت ـ وقـــد كانت صادقة فى عزمها فوجهت جهـــودها فى ذلك السبيل ، ولكن لم يستمر حالها على ما ارادت وعلى ما اختطتـــه لنفسها ، فحصل ذلك الحدث الذى لم يكن فى الحسبان ووقعت فريسة الحب ، ذلك الجبـــار الطاهر الذى يسيطر على كل ارادة ويقهر كل قوة مهما اعتزت بنفسها فى ميدان الحيـــاة . ولذلك فانى ارثى لحالهـا واسأل الله ان يلهمها طريق الصواب .

وأما كلير فقد أولعت بالطيران إلى حد الجنون ، حتى ملك عليها طرق تفكيرها وتصريف أوقات فراغهـــا ـ وان هى حادثتك فجل حديثهـا عن الطيران ـ وكيف انه مجال جديد للمرأة تتمكن فيه من أن تثبت كفاءتها على قدم وساق أمام الرجل المعتز بنفسه ، والذى طالما نظر اليهـــا نظرة القوى للضعيف ، والسيد للعبد ـ وحجتها فى ذلك أن جميع الأعمـــال التى تحتاج

إلى شجاعة نفسية . وقوة عصبية ، أثبت الرجل فيها
سيادته . فقد مارسها الرجال زمناً طويلا دون أن يسمحوا للمرأة
بالاشتراك فيها ، فأصبحت كفاءة الرجال فى هذه الأعمال
وراثية نمت على مضى الأجيال وكر الأعوام - ولكن الطيران
الصحيح فن حديث العهد . ولهذا يجب أن تنشط المرأة
و تقدم عليه دون تريث أو إبطاء إن أرادت لنفسها العزة ،
ولجنسها الكرامة ، حتى تكسب فى ذلك المجال كفاءة على
الأقل تساوى كفاءة الرجل . فان قدر لها النصر فى ذلك
المضمار فسيترك جيل النساء الحالى أرثا صالحاً، وثمرة طيبة لاجيالهن
القادمة، فينسجن على منوالهن ويتعهدن هذه الثروة بالرعاية والانماء .

واما حالى فى هذا العام الدراسى فلم يكن بأحسن مما
آلت اليه حالتى مارى وكلير ، فقد ساورنى قلق الضمير
واضطراب الفكر .

فى العام الماضى كنت أمضى منعزلا فى حجرتى بالجامعة
ساعات النهار الطويلة وفى كثير من الأحيان شطرا كبيرا من
ساعات الليل مكبا على البحث والدرس ، لا أفكر فى شىء
سوى العمل ومصلحته وحب الوصول الى جلاء ما غمض
منه ، وان انا جلست الى نفسى بين فترات العمل سبح فكرى
فى عالم الآمال وكان معظمه يدور حول سعادة مصر ورفاهيتها

وكيف السبيل للوصول بها الى مصاف الأمم الحيه .. ؟ كنت دائما أعتقد ان فى عنق رسالة وهى امانة يجب ان أؤديها مهما لاقيت فى ذلك من صعاب ومهما قابلنى الناس من سخرية واستهتار .

نعم اعرف انى شخص صغير ضعيف لا حول لى ولاقوة ولكنى ايضا كنت اعرف - ولا زلت - انى ما دمت أعتبر نفسى مصريا فيجب ان اجاهد بما اعتقد انه خير لمصر وساكنيها ... على هذا المنوال كنت اشيد الآمال وكيف تكون طرق الوصول اليها لأن من طبيعتى عدم الميل كثيرا إلى خيال الشعراء الذى يصعب جدا أن يكون حقيقة ، ولكنى دائما أوثر الأمل الممكن تحقيقه وربما كان ذلك نتيجة تفرغى للعلم العملى ، والبحث فى غامض المواضيع عن طريق التجربة لا عن طريق التخمين والفروض ، ولا يخفى اننا نعيش فى عصر التجارب العلمية العملية التى تحدث نتائجها كل يوم تطوراً جديداً فى حياة البشر ، وأصبح العصر عصر الآلات والصناعات وما يدخل عليها من تحسين نتيجة البحث والتجربة لتكون أكثر ملاءمة وأقل نفقة . والدافع لذلك هى المنافسة التجارية وحب القوة وتنمية الموارد والثروة .

اما اليوم فقد أخذت كاتلين معظم أوقات فراغى ، بين

تفكير فيها فى غيبتها وبين الجلوس اليها وهى بجانبى ، أو استصحابها إلى مكان نلهو فيه كالسينما أو المسرح أو ماشا كل ذلك ـ طرأ على آمالى كثير من التغير . فتحول معظمها نحو كاتلين ، وأصبحت هى كل سعادة لى فى الحياة فصرت أعلل نفسى بالسعادة والهناء عندما تشملني كاتلين بكل عطفها واخلاص قلبها وتكون ملكا لى دون غيرى ـ كنت أخوف ما أكون على هذا الأمل لأن فى تحقيقه سعادتى الأبدية ، وفى اخفاقه وفشله شقائى وعذاب نفسى ، ولهذا كنت دائماً أفكر فيه ـ وكيف يمكن أن تقنع فتاة غضة حسناء بمثلي وليس لدىّ شيء مما يستلفت أنظار الحسان أو يكسب قلوبهن وعطفهن ... ؟؟

ولعل ذلك يفصح عن سبب قلقى واضطراب فكرى ... !!

آمـال المستقبل

مرت الأيام وكل شيء فى طريقه العادى ، ولم يحدث لى ما يستحق ذكره ، غير انى من حين لآخر أتسلم خطابات من بعض أصدقائى بمصر . وفى بعضها وصف إجمالى لما وصلت اليها حياة مصر السياسية والاقتصادية ... وكثيراً ما رثيت لحالها ، ودعوت لها بالتحسن . وفى يوم من

الأيام كنت أطوف ببناء كلية الآداب بالجامعة اذ وقع نظرى بطريق المصادفة على عنوان كبير ذكر فيه اسم الجامعة المصرية . فاقتربت منه وقرأته - فاذا هو اعلان عن محاضرة عن الجامعة المصرية لأحـــد الأساتذة الذين مارسوا التدريس فيها مدة من الزمن .

كانت المحاضرة على وشك أن تبدأ فبدافع حبي لجامعتى .. . وماذا سيقال عنها كنت فى لحظة بين المستمعين .

بدأ المحاضر بديباجة قصيرة عن تاريخ تكوين الحيـــاة الجامعية بمصر وذكر عـــدد كليات الجامعة الجديدة وعدد طلبتها عام ١٩٣٠ ثم استطرد فى الحديث عن نظـــام التدريس فى مختلف الكليات ، ثم تركز موضـــوع المحاضرة على كليتي الآداب والعـــلوم وهما الكليتان الحديثتا العهد بها . ولقد أثنى بعض الثناء على النظام المتبع فى كليـــة العلوم لأنه مأخوذ من نظامهم ، والمهيمنون على أمره منهم . فهو يستمد قوته من روحهم ، ويسير فى الطريق الذى يرسمه أساتذة الكلية والانجليز هم أغلبيتهم وعلى رأسهم عميدها .

وأما كلية الآداب فوجـــه الى نظامها نقداً شديداً . فذكر أنها ثقافة فرنسية - والنظام الفرنسي مع كونه أصبح لايصلح لروح العصر العملية والتمشى فى طريق التقـــدم والارتقاء -

فلا يستوعبه الطلبة المصريون ولا يمكن أن يستفيد منه غير الفرنسيين . فوضعه وفق مزاجهم وميولهم وعلى هذا يمكنهم وحدهم دون غيرهم أن يحصلوا منه على الفائدة المرجوة ـ ثم أكد أن الطريقة التى تتبع فى كلية الآداب هى طريقة الحفظ والتلقين . . . وليست طريقة تنوير السبيل والدفع الى البحث والتحقيق . فتلك هى الروح الجامعية الحقة ، وذلك حالها فى الجامعات البريطانية ـ ثم أبدى دهشته للحاضرين متسائلا ، كيف يصلح أن تكون حياة الجامعة الوحيدة بمصر مزيجاً وترقيعاً من الثقافات الغربية المتعددة ، وتكون نتيجة ذلك أن تصطبغ كلية الآداب بالصبغة الفرنسية ، وكلية العلوم بالصبغة الانجليزية ـ وأسهب فى الكلام عن أيهما أصلح لبناء حياة جامعية حقة بمصر . . .

أما ما قاله فى وصف الطلبة ، وما هم عليه من استعداد للتشبع بالروح الجامعية وتوطيدها ، فكان صدمة عنيفة لسمعة كل من الطلبة المصريين : فلقد وجه الى الطلبة دون هوادة أو إنصاف نقداً مراً ، مقذعاً ، مؤكداً للحاضرين عدم معرفة الطالب المصرى وهو فى السن الجامعى لأبسط مبادىء الاعتماد على النفس ، وحب التجربة والمخاطرة ، ومواجهة المسئولية ، فنعتهم بالجبن ، وفى بعض الأحيان بالكذب

والغش ، حتى تغالى فذكر أن بعض الطلاب يسهل عليه ان يغش نفسه ويخدعها - وليست هذه الظاهرة بين الطلاب وحدهم ، فتجدها فى الأعمال الخارجية ويظهر أثرها الجلي خصوصا فى الادارة الحكومية ، فتجد ان كل موظف مهما كان كبيراً يعمل جهده على التخلص من مسئولية عمله والهروب من الوقوف بجانب نتائجه . وليس أدل على ذلك من أثر أكثر مما يشاهد فى أعمال الحكومة المصرية من البطء والتسويف والجمود الفظيع تحت اللوائح والقوانين دون أن يجرؤ أحدهم على الاقدام والتجربة لئلا يوقعه ذلك فى مسئولية - ولذلك فهم قوم لا يصلحون الا للأعمال المتشابهة المتماثلة الآلية (Routine) وليس لأعمال التجربة والتجديد والمخاطرة مع التفكير . أما حبهم للبحث والاستقصاء والتنقيب ، فذلك يكاد يكون معدوماً بينهم . وفكرة الجامعة عندهم اليوم كما كانت فكرة التحاقهم بالمدارس العليا بالأمس ، والغرض منها التقدم للامتحان عند نهاية المدة والحصول على الشهادات لتكون أداة للتوظف الحكومى - ثم لامهم لوماً شديداً على عدم معرفتهم قيمة الوقت والحياة . فذكر ان أوقات فراغهم تضيع سدى بين اللعب والمجون ، والخوض فى السياسة ، لا حباً فى مصلحة البلد وفى الطريقة المجدية لخدمته ، ولكن

لأن مجال الكلام فى السياسة ـ وهم قوم كلاميون ـ أوسع منه فى أية ناحية أخرى من نواحى حياتهم . . ! !

لم ينته المحاضر من كلامه حتى علت وجهى حمرة الخجل واهتزت أعصابى غضباً لكرامة أخوانى الطلبة خاصة ، والمصريين عامة . ولو أن فيما ذكر الشىء الكثير من الحقيقة الا أن هذه الحقيقة كانت مرة لاذعة على نفسى ، فلم أطق صبرا ، وضقت ذرعا بالمكان وآثرت الانصراف قبل البدء فى مناقشة ومناقشات . . ! !

كانت الساعة السادسة مساء وقد حان وقت العشاء ، فذهبت الى المنزل لتناوله كالمعتاد ولكنى عبثا حاولت أن آخذ منه نصيبى العادي ، وقد تركت فى نفسى تلك المحاضرة أثرا سيئا وشعورا بالتحسر على ما نحن عليه من التخبط فى جميع مرافقنا الحيوية .

تركت المائدة ثم جلست وحيداً أمام النار الموقدة فى حجرتى الخاصة بعد أن أوصدت بابها . وما هى الا برهة خلوت فيها الى نفسى أنظر الى ألسنة النار وهى تشع على من حرارتها وقوتها حتى قادنى تفكيرى الى ان اطرح أمام نفسى السؤال الآتى :

هب ان الفرصة يوماً قد سنحت لى بتنظيم بعض شئون مصر الحيوية فماذا أنا فاعل . . . . . ؟ ؟

نهضت من مكانى فى حـــركة سريعة . ثم امتدت يدى الى قلم وقرطاس على أهتدى الى جواب على هـــذا السؤال فأدونه ـ ثم جلست مستريحاً .

آثرت أن أبدأ بتحسين حالة الفـــلاح ، فهو نواة مجتمعنا وعلى مبلغ نشاطه فى الحياة وحسن تصرفه فى امورها تستمد منه مصر قوتها المادية ، ولما كنت أجهل عـــلوم الاقتصـــاد والتدابير التى يشـــترط اتخاذها فى مثل هذه الأحوال ـ لم أر لذلك من علاج أحسن مما اختطه قادة الفكر فى أوروبا الوسطى والشرقية وكونوا من أجله نظاماً دولياً سمى « بالدولى الأخضر » ليفرق بينه وبين « الدولى الأبيض » وهو نظـــام الرأسماليه والدولى « الأحمر » وهو نظام البلشفية .

ويتلخص نظام الدولى « الأخضر » فى أن توزع الأراضى على أكبر عـــدد ممكن من السكان ، والحجة فى ذلك أن هؤلاء السكان هم الذين يقومون بالعمل فيها . فهم المنتجون الحقيقيون ، ويجب أن يكون لهم النصيب الأكبر فيما تخرجه هذه الأرض من ثمرات . وبطريقة كهذه يمكن أن تتكون فى مصر طبقـــة قوية متوسطة ، يجرى فى عروقها حب مصر والعمـــل على رفعتها . ولا يخفى أن الفـــلاح المصرى يحب الأرض ويعشقها فهو يعمل فيها ، ويبـــذل جهده بصرف النظر عمن يملكها ولو

كان أجنبياً ـ فكيف اذا كان هو نفسه أو أحـــد أقربائه يملكها .... ؟ أنه لاشك عندى فى أنهم سيعيشون من أجلها باذلين جهدهم ، وهم مستبشرون فرحون ، وستكون أرض مصر بهم سعيدة تدر عليهم من خـــيرها ، وفى الوقت نفسه يعترفون لها بهذا الفضل ـ وسيشعرون انهم يجازون بقدر مايبذلون .

وطريقة الوصول الى هـــذه الغاية يجب أن تكون نتيجة تفاهم بين جميع الطبقات فى سلام ووئام لاعن طريق الثورة والاخلال بالنظـــام والأمن ، ويجب ألاّ يكون الوصول الى هـــذا النظام طفرة بل بطريق النشوء والتطور والتغلب على ما يعترض هذا النظام من صعاب ـ ومعنى هـــذا أن تقوم بتنفيذه حكومة أو حكومات حازمة عادلة تأخـــذ على عاتقها ابتكار الطريقة المثلى التى يمكن بها أن يتم هذا المشروع على مدى سنين معينة دون أن تغبن أصحاب المزارع الكبرى وكبار الملاك فى أطيانهم وأموالهم ، بل على الحكومة القـــائمة أن تعوضهم عما تأخذه منهم ، إما بضمانة ملاكها الصغار فى تسديد أثمانها على مدد طويلة ، أو بعقد قروض داخليـــة تكون نواة لمشروع كهذا ـ وفى الوقت نفسه تعمل الحكومة على تشجيع صغار الملاك عن طريق اعفائهم من الضرائب ، أو بتخفيفها عنهم ما استطاعت ، وفرض ماخسرته فى هـــذه الناحية على

أصحاب المزارع ومن بيدهم الأموال - فتفرض عليهم ضريبة ميراث ... الى آخر ماتسلكه الأمم الغربية فى هذا السبيل .

على هذا المنوال يمكن أن يزيد عدد ملاك الأرض فى مصر وينشط كل مالك صغير الى السهر على مصلحة أرضه لبزيد من غلتها ووفرة محصولها - وتكون نتيجة ذلك أن تنقسم الدوائر الكبرى التى نعرفها اليوم إلى اقطاعيات صغيرة ، ويقل المثرون الأغنياء بما يملكون من أرض بالمئات والآلاف والذين ستضطرهم ظروف الحال إلى استخدام أموالهم فى الصناعة - ومتى توفر للصناعة رأس مال وعقول مدبرة مفكرة ، وتشجيع الأهلين ، فاننا بلا شك سنحيي آمالنا فى إنعاش الصناعات المحلية التى يجب أن يكون معظمها قائماً على استهلاك المواد الأولية المستخرجة من مواردنا الطبيعية ، وأهمها الزراعة - كصناعات الغزل والنسيج ، والخضر والفاكهة . . . والألبان . . . وغيرها . ولا يخفى أن انتعاش الصناعة سيكون فتحاً جديداً مباركا ، ومورد رزق لساكنى المدن الذين يؤثرون الحياة بها على الحياة بالريف .

نظام أشبه بما ذكرت سيقرب بين طبقات الأمة ، وسيشعر كل فرد بأن عليه واجباً لوطنه ، وسيجعل الجميع يضحون فى سبيل إسعاد الوطن وتقدمه .

مستقبل هذا النظام هو إحياء القرية المصرية ، ويقظتهـــا من ذلك الجمود الذى هى عليه منـذ آلاف السنين - وسيتعلم أهلها كيف يعيشون ، وسيعرفون معنى الحياة وسعادتها فيحرصون عليها ، لأنهم الى الآن لا يعرفون لها طعماً سوى أنهم موجودون .

وأما المدن فستسعد وتنعم بما فيهـــا من صناعات ، ويسر ورخاء ، وحركة تجارية مصرية لا أجنبيـــة - سيشعر أهلها وخصوصاً العامل منهم بانه سيترك منزله فى الصباح إلى مصنع مصرى تستهلك فيه مواد مصر الأولية . وبذلك سيرتبط الفلاح بالعامل ، بصاحب المصنع ، بالتـــاجر ، بالمستهلك ، ويشعر كل منهم أن عليه واجباً يؤديه نحو وطنه .

فإذا ما نشطت الحياة فى مصر على نحو ما ذكرت ، دبت [illegible] الارتقاء فى جميع مرافقها ، وتقاربت وجهات [illegible] من [illegible]ـــلاف الطبقات ، وتطلبت حاجتها إلى نظام تعليمى جديد ، ووصلت إلى أسعد حال من الرقي واليسر .

وهنا أطرقت برأسى ثم نهضت فعـــدوت عدوا سريعاً فى الغرفة وصرت اتمتم فى نفسى « نظام تعليمى جديد . . . !! وما بال نظامنـــا اليوم ! فكرت ثم فكرت . . . . وأخيراً

قررت أن النظام التعليمى الحالي لايصلح لمجتمع مصر الذى أريد بناءه ، وعلىّ إذن أن أضـــع نظاما يروقنى .... ولكنى لست من رجال التربية والتعليم .... فماذا أنا صانع ... ؟ ؟

جاءنى الجواب المقنع من دخيـــلة نفسى ، وهو مادمت قد سمحت لأفكارى بالخوض فى معظم شئون نواحي الحياة المصرية ، من حيث تكوين المجتمع ، وعـــلاقة الطبقات بعضها ببعض ، ونظام الأسرة ، ومركز المرأة ، وعماد الثروة الأهلية وهو الفلاح ، وكثير ممـــا يتعلق بظواهر الحياة - فلا بأس أن أقترح نظام تعليم يروقنى ، وثقافة يكسبها النشء فتبنى عليها ثقافة الأمة ، وثقافة الأمة هى فى الواقع حضارتها وتفكيرها ونظرها إلى كل شىء فى الحياة .

مدارس التعليم الأولية والألزامية والابتدائية على ماهى عليه الآن من نظام فاسد ، وحيـــاة ملؤها الكذب والجبن ، والقسوة والخداع ، لاتروقنى ولا أريدها أن تكون أساساً لنظام التعليم فى مجتمعى المستقبل - لى رغبة شـــديدة فى أغـــلاقها .... ولكن أنىّ يكون لى ذلك وسيحتج على أكثر الآباء والأمهات الذين واللائى سيعتقدون أنى أخدعهم وأغرر بهم وأرجع بأطفالهم إلى الوراء .... إذا على أن افكر فى مخرج من هذا المأزق .

ربما يكون أحسن مخرج لى هو أن أنسج على منوال قديم ، جرب فأفاد ، وهو نظام اسبرطا القديم .

الى حين سأترك تلك المدارس على اختلافها كما هى ، وسأبدأ بأخذ الأطفال منها لأول مرحلة فى خطتى الجديدة ـ أميزهم بعد الفحص والتدقيق الى طبقتين « الطبقة الصالحة » و « غير الصالحة » ، وهذه الأخيرة تتكون من الأطفال الناقصى التكوين ، أو المشوهين بعاهات مستديمة ، لا يجدى معها الطب ، ولا ينفعها الدواء ، كطبقة المقعدين ، ومكفوفى البصر ، والذين ورثوا ضعف الأجسام أو ضعف العقول . والذين هم فى حالات يستحيل معها العلاج ـ هذه الطبقة أن يجب تعزل فى مستوصفات معدة لهذا الغرض ، كما يجب أن يلاحظ بكل دقة انها لا تعقب خلفاً ، ولا تترك بعدها جيلاً يعانى آلام الحياة . فلا يجنون على غيرهم ما جناه عليهم آباؤهم .

أما الطبقة الصالحة فسأرجع فى تربيتها إلى فلسفة الأغريق القديمة وهى « العقل السليم فى الجسم السليم » ويجب أن يكون للتربية غرضان . تربية الجسم ، وتربية الروح بغذائها وتموينها بكل شىء جميل كالموسيقى ومختلف الفنون الجميلة . سأخرجها إلى حقول تعد لذلك ، وسأطلق عليها « حقول التربية الجسمانية » وفيها لا يسمح لهم إلا بارتداء الضروري

جداً من الثياب التى تكفى لحفظ أجسامهم من الطوارىء الجوية .

سيلقن الأطفال تحت خيام مضروبة فى هـــذه الحقول -لافرق بين انثى منهم أو ذكر- القراءة ، والكتابة ، والحساب ، وأصول الدين الصحيح ، وبعضـــاً من القصص التى تبعث فيهم روح الحمية والغيرة على مصرهم العزيزة - لن يكون هنـــاك عدا ذلك دروس خاصـــة ولا فروع من العلوم الأخرى - وإنما سيكون هناك تقوية للمواهب الطبيعيـــة - كل بحسب ميله - فسيبذل القائمون على أمرهم جميع جهودهم فى ممارســـة مبادىء أنواع العلوم والفنون وجميع سبل الحياة حتى يوقظوا فى نفس كل طفـــل استعدادها الخاص وقوتها الكامنة ومبلغ ميلها . - بعد ذلك يأخذ القائمون على أمر هـــذه الحقول تنمية الرغبات المختلفة كل بحسب ميله واستعداده .

سيذكر القائمون على هـــذه الحقول دائماً تلك الحكمة المأثورة فى كتاب السير ولیم سکوت « كنلورث » « لا تعط طعاماً الا لمن يرغب فيه » أو ماقاله أناتول فرانس « فن التعليم فن ينحصر فى أيقاظ الرغبـــة الطبيعية لفضول العقل الصغير الناشىء ، وحبه للاستطلاع ، ثم العمـــل على تنمية هذه الرغبة لدرجة يكون معها العقل قانعاً وسعيداً .... الخ »

ثم قال فى موضع آخر ماترجمته « التعليم الذى لا يكون

غرضه الأساسي تقوية العزيمة في نفس الناشيء، وتنمية الرغبة فيها، هو تعليم يضعف العقـــل والتفكير. وعلى ذلك فأول واجبات المعلم أن يعلم تلميذه «كيف يرغب ويختار ثم يعزم».

ولن يقتصر الأمر على ايقاظ الشعور فيهم حتى يظهروا رغباتهم الكامنة، ومبلغ استعدادهم، ولكن سيبذل القائمون على أمرهم الجهد ليخلقوا في الأطفال تشوقاً جديداً، ورغبات جديدة. فاذا تقدمت بهم الأيام على هـــذه الحقول وجاء طفل منهم يسأل مدربه عن شيء، سيكون جـــواب الأخير في كثير من الأحيان «اني لا أعرف - هنـــاك آراء مختلفة في الموضوع، واذا كانت هـــذه الآراء في متناول الأطفال طلب منه قراءتها - والا قصها عليه - ثم بعـــد ذلك يقول له اختر لنفسك الرأي الذي تحب - أو كون لنفسك رأياً تعتقده صواباً وتقنع به في هـــذه المسئلة. ربما يكون رأيك هو الصواب وليس كل من كتب في هذا الموضوع قد أصاب».

فهب أن أحد الأطفال طرح سؤالا كالآتي «لماذا تكون السماء زرقاء صافية الأديم....؟؟».

اني انتظر من المدرب على هـــذه الحقول أن يكون جوابه «أكون سعيداً لو كنت أعـــرف السبب الحقيقي - ثم يسكت برهـــة - يستطرد بعدها الحديث ويقول «الآن

طبقات الهـــواء المشبعة بذرات الرماد الدقيقـــة ليست محدودة عملياً ...؟ أو لأن الله قد خلق السماء كذلك ...؟ ان كثيراً من الآراء قد كتبت لتفسر هذه الظاهرة تجـــد بعضها فى ... كذا ... وكذا ... من الكتب وربما أصاب أحـــد كتابها جادة الحق ، فاذا ماقرأت وتمعنت ، وبحثت ودققت ، ربما نهتدى الى تفسير حقيقي لهذه الظاهرة وهى كون السماء زرقاء » .

إذا ماتم لى تعميم إنشاء هـذه الحقول فى جميع بلاد القطر وأجبرت جميع الأطفال على دخولها بتشريع يفرض العقوبات القاسية على المخالفين ، فسأصل عند هذا الحـد إلى نتيجة مرضية فى تكوين النشء ، وإيقاظ الرغبـــة فيهم كل بحسب ميله ، والعمل على تنمية هذه الرغبات ، ثم تعلم الناشئـة كيف يمعنون النظر فى كل مايخطر ببالهم ، ويكشفون لأنفسهم عن السبب والمسببات وما يعتقـدونه الحق لا ما قاله النـــاس أنه هو الحق لـكل ماتقع عليـــه أنظارهم فى وسطهم من ظواهر الحيـــاة الطبيعيـة أو الأنسانية أو كل ما يراد منهم تصـديقه والأعتقاد به ـ فلن يكون هناك :

« خذ هـذا الشيء على علاته ولا تجادلنى » ولن يكون هنـــاك « هكذا وجدنا أجـــدادنا يقولون ويعملون ولقد ورثوه عن الأقدمين .... أو .... أو .... ألخ

مانسمعه ونحفظه عن ظهر قلب دون أن يتيسر لنا فهم معناه الحقيق .... !!!

هذه الحقول سيلحق بها الأطفال فى سن السادسة وسيتركونها فى تمام الحادية عشرة - ونفوسهم مشبعة بكل شىء جميل فى الحياة . ولقد أخذوا بنصيبهم من التعليم المادي الذى بمواصلته يستعدون للكفاح فى الحياة ، والتعليم الفنى بتدريبهم على التصوير والنحت والرسم والموسيقى وغيرها .

سيتركون هذه الحقول وهم لايعرفون كيف يكون الكذب ولا الجبن ولا .... إلى آخر أصناف الرذائل ، فهم عن كل ذلك بعيدون نقيون .

من سن الحادية عشر إلى الثالثة عشر لافرق بين أناثهم وذكورهم سيفرقون إلى فرق محدودة العدد . وعلى رأس كل فرقة مدربوها الأمناء ، يخرجون بها إلى منعزلات فى الهواء الطلق ، ومثلها سيكون مثل الوحدات العسكرية اليوم . يحملون معهم كل مايحتاجون إليه من طعام وشراب وستكون مأواهم الخيام المضروبة فلا يلجأون إليها إلا عند الليل - فى هذه المدة سيتمرنون على حفر الأرض وزرعها وعلى حبها لأن عليها تتوقف ثروة مصر وحياتها وعلى الصيد وركوب الخيل والعوم وجميع أصناف الرياضة البدنية وسيدربون تدريبا

عمليا على إقامة السدود والكبارى وتعبيد الطرق فذلك يربى أجسامهم ويبعث فيهم الصحة والقوة - بعد كل ساعتين من ساعات الأجهاد الجثمانى يسمح للتلاميذ بالاستراحة ، وفى أثنائها يقدم إليهم غذاء كاف لعقولهم ، وهو دراسة علوم الحياة (العلوم البيولوجيه) وتطبيقها على ماحولهم من الظاهرات الطبيعية : سيغرس فى نفوسهم حب الطبيعة وماخلعته على هذه الحياة الدنيا من آيات الجمال ، ومن غرائب ومدهشات ، وسيمثل لهم ذلك فيما حولهم من نبات وزهر ، وطير ، ومختلف الحيوان .

سيثمر فى نفوسهم هذه الغرس وسيعشقون الخلاء كلما وجدوا لذلك سبيلا ، يطلبون الراحة فى الفضاء ، وينعمون بالنبات والأزهار ، وسيجدون لذة مصحوبة بالرأفة والشفقة والعناية فى جميع أصناف الطيور والحيوان - فلن يكون هناك بعد ذلك تدمير ، أو خراب ، لبقعة طبيعية جميلة ، وان يكون هناك عذاب أو قتل لحيوان لم يجن فى الحياة ذنباً سوى أنه خلق ليسخره الانسان .

سيكون كل شيء جميلا ، وستكون الحياة حلوة جميلة .

وهنا سينتهى أجل التعليم الالزامى .

بعدسن الثالثة عشر سيبدأ تعليم الأجر لمن أراد ذلك وسيكون

نتيجته أن يتخلف جزء كبير من الشبان والفتيات الذين تستدعيهم حاجة أهلهم لمعونتهم ومؤازرتهم على أعباء الحياة ، فينكمش معظم الفتيات المتخلفات إلى منازلهن ليؤازرن أمهاتهن على القيام بأعباء المنزل ، ومساعدتهن على أداء ما حق عليهن من واجب فى مجتمعنا الجديد .

أما الفتيان فسيكونون بجانب آبائهم فى الصناعة والزراعة وأخص بالذكر الأخيرة منها . لأنها كما هى اليوم ستكون أهم مرافق حياتنا وثروتنا ، ولن تكون هناك غضاضة فى الاحتراف بها لأن مستواها سيرتفع الى جميع الحرف الأخرى بل ربما أخذ شكلا أهم وأرقى لأهميتها فى تكوين موارد الأمة ، وستكون جميع طرقها قد تغيرت عما هى عليه الآن . فستستخدم فيها جميع ماوصل اليه العلم من تجارب ، وما أخرجته لأجلها الصناعة من الآلات لتوفير جهود الانسان . وانى أرى أن الآلات ستستخدم فى جميع مرافقها . وفوق ذلك فان من أكبر العوامل التى ستحبب الى الشبان العمل فى الأرض ، وبذل الجهود فيها ، هو أنهم سيكافئون بقدر مايكدون ، وأن هذه الأراضى ملك لهم أو لأقاربهم ، فانهم ليسوا إذن مسخرين لغيرهم بأجر يومى زهيد كما هى الحال الآن .

أما ما بقى من الفتيات والشبان الذين يريدون استمرار

دراستهم والذين تسمح لهم ظروفهم بذلك مع استبقاء كل من أظهر نبوغاً طبيعياً فى فن من الفنون ، وكان من أبناء الطبقة التى لا تسمح مواردها باستمرار أولادهم وبناتهم فى دراستهم ، وهؤلاء ستكفلهم الحكومة برعايتها . ثم يوجه الشبان والفتيات كلٌ إلى المدارس الخاصة به ؛ وسيكون أساس التعليم فى هذه المدارس تنمية المواهب والميول التى أظهرها التلاميذ أو التلميذات فى أثناء دراستهم الالزامية ، فتقسم العلوم والآداب والفنون والصناعات ، إلى وحدات متقاربة يندمج فى سلك أحدها كل من له رغبة فيها ، ومن أظهر ميلا خاصاً فى أثناء تعلمه الالزامى - وفوق ذلك فان القائمين على أمر التلاميذ والتلميذات سيلقنونهم كثيراً من المعلومات العامة ، وسينصحونهم بالقراءة كثيراً ، وسيظهرون عناية خاصة بتعليمهم وتعليمهن علوم الرياضيات واللغتين الأغريقية واللاتينيه .

هذه المدارس ينتهى أمدها فى سن الثامنة عشرة . وفى تمامها سيطالب جميع الفتيان إلى التجنيد الاجبارى . فيتعلمون تعليما عسكرياً حتى سن العشرين ، أما الفتيات فلا بأس من أن يمضين هذين العامين فى دراسة العلوم الاجتماعية والتدبير المنزلى وواجبات المنزل والزوجية وتربية الأطفال . . .

وغيرها . بعـــد سن العشرين تختلط الفتيـــات بالشبان فى الدراسة الجامعية فى مختلف فروعها على قدم المســـاواة فى الحقوق والواجبـــات ، وسيكون أســـاس التعليم الجامعى «روح البحث والتنقيب ، وتشجيع المبتكرين والمخترعين والمجددين فيما اختاروه دراسة لهم » سيسمو التعليم الجـــامعي على هذا الأساس عن مجرد الحفظ للتقـــدم للامتحان ونيل الشهادات ، وانمـــا يكون من أجل الفن أو العـــلم لذاته ، لأنها هى الرغبة الطبيعية التى دفعت بصاحبها أو صـــاحبتها إلى دراسة ذلك الفن أو العلم ـ وما دامت الرغبـــة . . . فالنجاح والابتكار ينتظران صاحبهما . . . . !

عند هـذا الحد لم أكن قد حددت مدة الدراسة الجـامعية لمختلف الفنون والعلوم ، ولم أمهـــل حتى أضع الاستعدادات اللازمة لضمان منهج التعليم فى المستقبل وكفايته لحاجة العصر ونجاحه . . . حتى دخلت على سيدة المنزل !

قالت : حسبتك غارقاً فى نومك منذ مدة طويلة ـ ورأيت ان أتركك دون إزعاج فقـــد تكون متمتعاً بحلم لذيذ ، فلم أشأ أن أقطعه عليك سريعاً .

قلت : أنه يا سيدتى ليس حلم نائم ، ولكنه حلم اليقظـــة وأملها . . . . كم الساعة الآن ؟ .

قالت : قاربت الثانيـــة صباحاً . . . وإنى أستحلفك بالله أن تذهب إلى مضجعك لتستريح . . . . !

قلت : ـ وقد شعرت بألم فى ظهرى عنـــد نهوضى ـ قاتل الله الفكر فانه متى جال فى الفضـــاء بنى آمالا لذيذة ، سرعان ما يحسبها الانسان حقيقة تأخذ ببصره ، وتملك عليه عقـــله ، فلا يلبث أن يشيد عليها . . . وهى لا أساس لها .

قالت . وقـــد وضعت يدها على كتفى الأيسر مشفقة ـ حقق الله آمالك يا بنى ـ ولكن يجب أن تعـــلم أنه ليس كل أمل فى الحيـــاة تبتغيه يمكنك تحقيقه . . . وليس يضيرك أن تعمل والله المعين .

قلت : شكراً ياسيدتى . . فانى مؤمن بما تقولين . . ! !

Liverpool

ECHO

Last Edition June 25th.

Liverpool Girl Student

Attempts a Record Solo Flight To Australia

نحن الآن وقد انتهى موسم الامتحـــانات فى ٢٥ يونيـــه وظهـــر كثـــير من النتـــائج

بعض النتــائج النهـائية ، التى كـنت أترقب ظهورها ـ ولكنى لا زلت أواصل بحثى وعمـــلى منفرداً فى إحـدى غرف المعمل .

فى مساء هـذا اليوم تركت المعمل حوالي منتصف السـابعة وفى طريقى الى المــنزل ابتعت جريدة « ليفربول ايكو » المسائية التى اعتدت قراءتهـا خلال السنوات الثــلاث الماضية ـ وإذا فى صفحتها الأولى عنوان ضخم كما هو ظــاهر بعاليه وترجمته بالعربيه :

« طالبـة من ليفربول تحــاول الطــيران بمفردها إلى استراليا لتضرب الرقم القياسى » .

لفت نظرى هذا العنوان ، ومن تكون تلك الفتاة يا ترى . . ؟ !

بدأت أقرأ ، وإذا اسم الفتـــاة كلير . . . القاطنـــة بحي . . بمنزل . . . ويصفها المراسل للقراء بالجرأة والمهارة لما سمعه من رجال المطار عنها ، وبقوة البيان وفصـاحة الحجة وقد تركت ذلك الأثر فى نفسه عند مثوله أمامها لتفضى اليه بحديث .

المحرر ـ متى بدأت الطيران . . ؟

هى ـ فى صيف العام الماضى .

المحرر ـ ولـكنك لم تمارسيه مدة طويلة فلقـــد علمت أنك طالبـة تستغرق دروسك وقتاً طويلا . .

هى كنت أقضى وقت الفراغ بالمطار فكلما اعتدل الطقس كنت فى الهواء .

المحرر - أتظنين أن تلك المدة القصيرة التى أمضيتها فى تعليمك كافية لأن تجازفى وتحاولى الطيران إلى استراليا ؟

هى - أتعشم ذلك .

المحرر - ولم تصممين على الذهاب وحيدة - وفى إمكانك أن تستصحبى أحداً ممن مارسوا الطيران الى تلك البلاد النائية . . ؟

هى - ثقتى بالله وبنفسى .

المحرر - ما هى الدوافع التى من أجلها تقدمين على هذه المجازفة الخطيرة . . ؟

هى - حبى الشديد للطيران ، ورغبتى فى أن تأخذ المرأة بنصيبها فى هذا الميدان ، فهذه فرصتها إن أرادت منافسة الرجل أو على الأقل مساواته فيما يقدم عليه من ضروب الشجاعة والجرأة - وطالما فكرت فى المساهمة بنصيب فى سبيل رفعة المرأة ووصولها إلى المستوى الذى يليق بها فى عين الرجل ، وأخيراً يجب أن تذكر ان استراليا جزء من أمبراطوريتنا العظيمة وكل محاولة مهما كلفت من روح ومال فى سبيل تقريب المسافات بين أجزاء الأمبراطورية المترامية الأطراف ، تكون نتيجتها توثيق العلاقات ، وتعلق أجزاء

الأمبراطورية بالأم « انجلترا » وشعور الجميع بشعور واحد ـ ولا يخفى عليك ـ أن قدر الله لى النجاح ـ أننى سأستعمل طائرة بريطانية الصنع ، فاذا ما انتهت الرحلة ، أعلن النصر عن نفسه ، وأثبت للعالم أجمع قوة محركاتنا ومتانة صناعتنا ـ وفى هذا كثير من الفائدة للصناعة ، فاننا نعيش فى عصر الدعاية والاعلان ـ وما مثل مس إيمى جونسون ببعيد ـ فانى أستمد جرأتى وعزمى من شجاعتها وإقدامها . . . !

هذا الحديث كان حقاً مفاجأة ، ولكننى لم أندهش منه كثيراً لما عهدته فى كلير من قوة الارادة والعزم والحزم ـ ولكنى عجبت لهذا التصرف السريع وخصوصاً أنها قد عودتنى أن تخبرنى بأشياء كثيرة مما يتعلق بحياتها الخصوصية . . . فلماذا أمسكت عنى هذا الخبر . . . ؟

تركنى هذا السؤال فى حيرة . . . ، وأخيراً فكرت فى نفسى وقلت « قد تكون أشفقت علىّ حتى لا ينشغل بالى ، وأخاف عليها هذه المجازفة الجريئة ، فألح عليها فى العدول » .

كنت قد وصلت إلى المنزل ، فأسرعت فى استبدال ملابسى وتناول طعام العشاء على عجل ، لأنى على موعد مع كاتلين . . . فى تمام الساعة الثامنة ـ لأنى قد انتهيت من تقديم رسالتى لدكتوراه العلوم ، وقد أثنى عليها

الأستاذ الذى انتدبه مجلس الجامعة من إحدى الجامعات الأخرى لمناقشتى فيها وفحص دقائقها الثناء الجميل، حتى دفعه كرمه وعطفه فتطوع من تلقاء نفسه أن يكون واسطة لنشرها لما تحويه من حقائق طريفة فى إحدى مجلات لندن العلمية الكبرى.

وعلى هذا كنت مستريح الضمير فقد وفقنى الله إلى نتيجة مرضية ثمرة لذلك الجهد المتواصل الذى بذلته عن طيب خاطر فرحاً مستبشراً خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة - والآن أخليت نفسى من كل عمل فى المساء ووقفت جل ليالى على مقابلة كاتلين، فى منزلها أو خارجه - فلقد أصبحت هى سعادتى وهنائى وكل ما أريده فى هذه الحياة - زاد ذلك من تعلق الأسرة بى، تعلقاً كبيراً حتى غمرنى عطف والديها وأشعرنى أنى ابن لهما، فالمنزل يرحب بى فى أى وقت أشاء.

بعد نزول الستار وانتهاء الفصل الأول من روايه تمثيلية كنا نشهدها سوياً هذا المساء، التفت إلى كاتلين وقلت:

« ان لدى خبراً عظيما قد نسيت أن أقوله لك ....

هى - وما هو، عله خير ...؟

هو ... كلير ... تعتزم أن تطير وحيدة إلى ... استراليا

هى ـ أظنك هازلاً فيما تقول ـ حقاً أن كلير تتعلم الطيران ، وقد تحدثت بشأنه أمامى . . . ولكنى لست أعرف أنها تتسرع ويبلغ بها طيش الشباب إلى هذا الحد . . . . أستراليا . . . أستراليا . أتعرف كم من آلاف الأميال التى يجب أن تقطعها . . حتى تصل الى . . . استراليا . . . ؟

هذا صحيح . . ! !

هى ـ انى لا أريد ان أصدقك هذه المرة . . . فعذراً . . . !

ألك فى ذلك رهان . . ؟

هى ـ لابأس ، فسأنقدك شلنين ان صح ماتقول !

قبلت الرهان . .

رفع الستار عن الفصل الثانى ثم أعقبه الثالث وانتهت الرواية وغادرنا المكان . . . وفى الشارع ناديت بائع الجرائد فاشتريت « الأيكو » لثانى مرة ، وقد تركت النسخة الأولى بالمنزل على مائدة الطعام .

أشرت بأصبعى إلى الاسم والعنوان . . . فصاحت كاتلين . . إذن صحيح ـ صحيح ما تقول . . يا لها من طائشة . . . ولكن أتمنى لها من قلبى كل نجاح . . . !

قلت : بالله عليك أنقدينى . . فأعوض شراء الجريدة أضعاف أضعاف الثمن .

قالت : وفتحت حقيبة صغيرة ومدت يدها ـ خـــذ ولا تراهنى مرة أخرى .

سرنا سوياً فى سكينة وهدوء حتى موقف الترام الذى أقلنا إلى المنزل وقد جلست بجانبها . بعد لحظة همست كاتلين قائلة :

ألم يصل إلى علمك هذا الخبر إلا عن صفحات الجرائد ؟

قلت : نعم

قالت : هذا غريب . . . . كنت أعتقـــد دائماً أن كلير لا تـكتم عنك سراً

قلت : هذا هو اعتقـــادى . . ولـكنى أعلل ذلك بأنها ربما آثرت أن تحتفظ به لنفسهـا وتخرجه للناس دفعـــة واحدة . . حتى تكون مفاجأة لى ولأصحابها .

قالت : اظنك ذاهبا غداً لتهنئتها . . . . !

قلت : مبكراً إن شاء الله . .

قالت : لا تنس أن تبلغهـا أطيب تمنياتى . . وســـأنتهز الفرصة للذهاب اليها بنفسى لأؤدى هذا الواجب .

قلت : ســـأفعل .

حوالى الساعة العـاشرة من صباح اليوم التـالى كنت بباب منزل كلير ـ فتحت الخادمة ، وقادتنى إلى غرفـــة الاستقبال ، ثم أخبرتنى أن الآنسة كلير ـ ترتدى ملابسها لأنهـا على موعـد

قريب بالمطار ـ وستكون فى لحظة معى .

بعد دقيقتين دخلت كلير وهى فرحة ضاحكة الثغر ممتلئة قوة ونشاطا .

هى ـ هالو .. صباح الخير

أنا ـ صباح الخير ... جئت ا ... ا ....

هى ـ على الفور : أعرف تماماً لماذا جئت ، دفعك إخلاصك لى أن تحضر إلىّ مبكراً لتتعرف مبلغ مانشرته جريدة « الايكو » من صحة .

أومأت إليها بالموافقة .

قالت ـ نعم . هذا الخبر صحيح والحديث المنشور بينى وبين المحرر قد حصل فعلا ولكنى أتوسل إليك أن تفهم الحقيقة كما حصلت :

أعرف جيداً مبلغ إخلاصك لى وعطفك علىّ ، فأشفقت عليك من أن أكاشفك بالخبر من مدة لئلا تضطرب نفسك من أجلى ، وتفكر فيما سيئول إليه حالى من جراء هذه المحاولة ، هذا هو السبب الوحيد الذى منعنى من أن أطلعك على كل شىء ، زد على ذلك أنى احتفظت به لنفسى دون غيرى حتى أن والدتى لم تعلم به سوى أمس ، ولقد نذرت فى نفسى أن أذيعه مفاجأة طريفة لأصدقائى وللناس أجمعين

يوم حصولى على شهادة بكالوريوس العلوم .

قلت فى بهجة وسرور : إذن ظهرت نتيجه الامتحان . . . !

قالت : لم تعلق بعد على لوحات الجامعة الخارجية ولكن أخبرنى بها أحد الأساتذة أمس الأول . . !

قدمت يدى إليها مصافحا ومهنئا بالنجاح والفوز وتمنيت لها النجاح فى محاولتها الخطرة ولما أعهده فيها من صدق العزيمة فلن يثنيها عن عزمها شىء ، شجعتها كثيراً وتحدثت إليها من نقطة إلى نقطة فى تفاصيل مشروعها الجديد حتى أوصلتها إلى استراليا تحمل أكليل الفخار على رأسها وكادت تصدق أن أملها قد تحقق فعلا . . . ! !

نظرت إلى ساعتها وقد قاربت الحاديه عشرة فنهضت تستأذن لانها ذاهبه إلى المطار .

صحبتها الى الخارج وفى أثناء السير طرحت عليها السؤال الآتى :

نسيت أن أسألك متى يمكنك البدء فى هذه الرحلة . . ؟

فأجابت : لست أعرف بالضبط متى يكون ذلك ولكنى أتعشم أن أجهز نفسى فى مدى شهر من الآن .

قلت : اذن أنت الآن مجدة فى تجهيز نفسك .

قالت : أشتغل فى ذلك ليل نهار مع ما أجده أمامى

من صعوبات - وتعرف مبلغ حب والدتى لى وخصوصاً أنى ابنتها الوحيدة فهى تعارضنى شديد المعارضة .

قلت : سهل الله أمامك كل صعب وأرجعك الى أمك غانمة سالمة ... ثم انصرفنا .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الى البناء الرئيسى بالجامعة وأول مالفت نظرى جموع من الطلاب محتشدة ، فأيقنت أن النتائج النهائية قد ظهرت رسمياً ، وما أن اقتربت منهم حتى أقبل علىّ ثلاثة أعرفهم وقدموا الىّ تهانيهم بنجاحى - تقبلتها منهم شاكراً وكنت كما ذكرت مطمئناً الى هذه النتيجة ألا أن ظهورها رسمياً يجعلها حقيقة ملموسة - فحمدت الله وتقدمت نحو الكشوف لأرى ما كان من أمر بعض الاخوان .

كدت أطير فرحاً عندما رأيت مارى بين الناجحين والحائزين لدرجة الشرف وكانت هذه هى خاتمة النجاح الثلاثى كلير ، ومارى وأنا . وهى خاتمة كنت أتمناها من صميم قلبى .

أمضيت اليوم أشتغل كالمعتاد لأنه لايزال لدى من العمل مايستغرق شهراً على الأقل . ولايمكننى التفكير فى أجازة أو غيرها ألا اذا انتهيت ، لتشوقى الى نتيجته النهائية .

بعد العشاء ذهبت الى منزل كاتلين وقصصت عليها الخبر

وقـــد فرحت به كثيراً ثم استأذنت منها ومن والديها قاصداً التوجه الى مارى .

فتحت لى الباب شابة متوسطة القـــامة فى مقتبل العمر ، وفى ملابس الخـــدم . تراجعت إلى الوراء وأخذتنى دهشة ، ثم نظرت إلى رقم المنزل فوجدته صحيحاً .

ترددت ثم قلت ، أليس هذا منزل الدكتور « چونس » .

قالت الفتاة ـ نعم يا سيدى ـ أقول مَن ؟

أخرجت بطاقتى وناولتها إياها ثم حملتها لهم .

مرت فى نفسى خواطر سريعة . . . ماذا حدث ياترى . . . ؟

ليس عندهم من الخـــدم سوى مارى . . . . ! ! ! أتركت المنزل . . . ! ! أم أصيبت بمرض . . . ! ! أم . . . أم . . . إلخ ! ! !

ربما لا يكون شىء من هذا كله ، وسينجلى الخبر عن قريب .

بعد برهة عادت الخـادم ، وطلبت الىَّ فى أدب أن أدخل ـ وما كدت أنتهى من خلع معطفى وتعليقـــه مع القبعة بجوار الباب « على الشماعة » المعدة لذلك ، حتى اقتربت منى مسز چونس بثغر باسم ـ قادتنى إلى غرفة الاستقبال وحيتنى أحسن تحية وما هى إلا لحظة حتى دخلت مارى فى ثوب قشيب جذاب . . . لم أره عليها من قبل . . . . !

قلت : مساء سعيد ، جئت لأهنئـــك بنجاحك الباهر مع

الإجازة بدرجة الشرف - وأتمنى لك فى الحيـــاة نجاحا مضطرداً ، ومستقبلا سعيداً .

قالت : أشكرك - كما أتمنى لك من صميم قلبى مثل تمنيـاتك الطيبة لى .

بدأنا الحـديث عن الحياة الجامعية وما فيهـا من لذة ، وعن الامتحانات وما فيها من خوف ورجاء ، وحمـــدنا الله على انتهائها على هذا الحـــال ، ثم استطردنا الكلام فى مشروع كلير وقد قرأت أخباره مارى فأثنت عليها الثناء الجميـــل ، ثم قالت أنها كبيرة الأمل بل تكاد تكون متأكدة من نجـاح كلير ، وذكرت أن لديها قلباً كبيراً ، فبقليل من الحظ ربما تصل الى بغيتها .

دخلت الخـــادم تحمل كؤوس البراندى ... ومارى جالسة لا تحرك ساكناً .. قدمتها ثم انتظرت حتى أخذتها ... !

طلبت مارى من الخادم استحضار الحلوى .. وكان طلبها فى صورة الآمر .

قلت فى نفسى ما هـــذا التغيير ؟ وجلست أضرب أخماساً فى أسداس علنى اجد حلا .

مارى تلبس ثوباً فخمـــاً ... تجلس مع سيدتها بالأمس مسز جونس جلسة الند للند .. تطلب الشىء من المنزل فى صيغة الأمر .. ! ولكن لاسبيل الى السؤال فيجب أن أتريث .. !

استمر الحديث فى شؤون كثيرة لا أذكر منها سوى حديثنا عن الجو والألعاب الرياضية ومباريات التنس .... ثم قطع الحديث دخول كارل ، وكأنه كان بالمنزل أو دخله من الباب الخافى لأنى لم أسمع صوتاً لجرس الباب الخارجى أو صوت فتحه وحجرة الاستقبال ملاصقة للردهة التى يفتح عليه هذا الباب .

حيانى وأعقب تحيته بتهنئى ، فرددت له التحية شاكراً . ثم سألنى عما أنا فاعل الآن بوقتى ـ فقلت له أنى لا أزال أذهب الى العمل لأن لدى عملا ربما يستغرق شهراً .

قال : وبعد ذلك .. ؟

قلت : لا أدرى ماذا أنا فاعل ، أأعود الى بلادى ... أم أبقى ... كل ذلك رهن الظروف .

طال الحديث وأنا عنهم لاه بالتغيير الذى طرأ على مارى وأخيراً فكرت أنها ربما اعتزمت الرحيل بعد أن حققت ماجاءت من أجله . وإن ذلك سر تغيير حالتها فأصبحت ضيفاً عليهم أياماً معدودات ... !

انتصفت الحادية عشر ويجب علىّ أن أستأذن ـ ولكنى لن استأذن حتى أكشف سر هذا التغيير ... !

قلت : موجهاً الكلام الى مارى ـ نعم ان العام الدراسي

انتهى بسرعة ... ألا تظنين ذلك ... ؟

قالت : نعم ـ أوافقك .

قلت : وأظنك الآن تستعدين للرجوع الى المانيا وستمضى الأيام سريعاً حتى تكونى بين أهلك وأقاربك ... ؟

لم تنطق ببنت شفة وعلت وجهها حمرة الخجل .. نظرت اليها مستغرباً .. فردت الى النظرة بزفرة عميقة ـ انه لغز ... !

نظر الي كارل وقال فى صوت بطىء :

« انها لن تعود الى المانيا ... ! »

قلت : وكيف كان ذلك ... فوضع يده اليمنى على يدها اليسرى وكان يجلس بجانبها ثم رفع يدها اليسرى لكى أراها ... !

قلت فى لهفة واستغراب : خاتم الخطوبة ... أليس كذلك ... ؟

قالت مسز چونس : نعم ـ حسبتك رأيته منذ حضرت ـ وانتظرت أن تهنئها ... على ذلك .

قلت : عفواً يا سيدتى فانى قليل الملاحظة جداً ... ولكن من هو الزوج السعيد ... نظرت الى مارى وقد اشتدت حمرة الخجل على وجهها وانعقد لسانها وجلست دون حركة ـ ثم حولت نظرى عنها الى مسز چونس فاومأت بحركة

من رأسها نحو كارل .

قلت ـ إذاً أنت السعيد يا كارل ـ تهنئتي القلبيـــة وأتمنى لـكما حياة ملؤها الحب والسعادة .

قال : شكراً . فأنت صديق وفيّ .

قدمت يدى إلى مارى لأصافحهـــا مهنئاً ـ فصافحتنى دون أن تتكلم .

استأذنت فى الخروج ، فتطوع كارل أن يوصلنى بسيارته إلى المنزل . فقبلت شـــاكراً .

أثناء الطريق فهمت منه أنه لم يقـــدم خاتم الخطوبة إلا صباح اليوم بعـــد أن سمعت مارى بنجاحها ـ وأخبرنى انها كانت مترددة جداً فى قبول الخـــاتم . ثم سألته متى يكون الزفاف ـ قال بأسرع ما تسمح لنا الظـــروف بذلك ، لا سيما وان اجازته السنوية ســـتبدأ فى اول اغسطس وهو يتمنى أن يقضيها شهراً للعسل بجانب مارى .

وصلت الى المنزل فالفراش ، وحاولت النوم فلم تجـــد المحاولة ـ وصرت افكر فى تلك التطورات السريعـــة التى مرت على صاحبىّ خلال بضعة الأيام المنصرمة .

هذه كلير تنجح ـ ثم تعقد العزم على تحقيق رغبتهـــا ، وتحاول الطيران منفردة إلى استراليا .

وهذه ماري تنجح ـ ثم تقبل خاتم الخطوبة من كارل توطئة لزفافها اليه ـ وبذلك ستعيش مع من تحب ، تسعد بجانبه وترى في الحياة لذة ونعيماً بجواره .

وأما أنا فأنجح فقط . . . . ! ! !

ولِمَ لم أتوج نجاحي بنجاح آخر في الحياة إن استطعت ؟

إن قلبي معذب ، ولن يغنيه ألف نجاح ونجاح كالذي أحرزته اليوم عن شيء . فهو إن كان نجاحاً . . فلا يخرج عن كونه مادياً . . . وليس روحياً ، ذلك الذي يتطلبه القلب ـ ان قلبي ينشد سعادته في حب كاتلين .

هي حسناء جميلة ، كثيراً ما عجبت لأمرها ، وأشفقت عليها لأني لا أرى في نفسي أي جمال . . . فقامتي القصيرة لا تشجع الحسان على النظر الىَّ ـ ولكن بالرغم من ذلك كله فهي تحبني . . . وتريني ذلك في كل لحظة وكل وقت . . . وتتمنى أن تكون بجانبي . . . !

هي العناية الالهية ارادت فدبرت ـ سلبتني الجمال ـ وخلقت في نفسي حباً للجمال ، وعاطفة لتقديره في كل شيء يقع عليه نظري ـ فلم تشأ أن أعيش معذباً لا لذنب جنيته ، فعطفت على مثلي وأشفقت ، وعوضتني جمالا في كاتلين التي وهبتني حبها وقلبها . . . . . . !

لِمَ لَمْ أتقدم فأطلب يدها حتى يسعد بها قلبى ... فهى فرصة نادرة فى حياتى ! إنى على استعداد أن أضحى فى سبيلها ما استطعت عن طيب خاطر .

هى على استعداد أن تشاركنى الحياة بخيرها وشرها ... لقد أقسمت على ذلك ؛ إنى لم أعشمها ولم أغرر بها يوماً ما فكشفتها على حقيقة أمرى . فهى تعرف كثيراً من أمورى الخاصة ـ تعرف عيشة أهلى القروية وما يأكلون وما يشربون ـ تعرف انى لست ابن وزير أو أمير ـ ولكن ابن مزارع متوسط الحال وخريج الازهر الشريف .... تعرف أن والدتى لا تتكلم إلا العامية ، وليست حتى العربية أواحدى اللغات الافرنجية . تعرف كثيراً من هذا كله ، بما يعرفه الجميع عن الحياة القروية . ولكن بهذا كله هى راضية قانعة ....

إذاً قررت أن أسعد وأنعم بجوارها وأكافح العيش فى ظلها ، وسأتحين الفرصة المناسبة فأفاتحها ... ولكن قاتل الله خجلى وجبنى ... مهما يكن الأمر فانى سأفاتحها ... ولو عن طريق والدتها التى ربما دفعتنى الشجاعة للكلام معها فى هذا الموضوع .

الخاتمـــة

سارت الأمور فى مجراها كما ذكرت . وكلير تستعد لرحلتها فهى تصل من أجل ذلك الليل بالنهار وتعمل جهدها ، فقد أعلنت أنها ستبدأ فى اغسطس القادم . ومارى تلازم كارل فهما الآن يقومان بتجهيز منزل صغير استأجراه فى أحدى ضواحى المدينة ، وهما الآن يكثران من الخروج إلى المدينة فيستعرضان مختلف الموديلات لحجر النوم والاستقبال والمائدة . . . . ثم الملابس وغيرها وما إلى ذلك مما تحتاج إليه العروس عند زفافها .

وأما أنا فلقد بذلت جهدى حتى انتهى ما لدى من عمل بالجامعة فحرصت على كل دقيقة من وقتى ، كى أتمكن من أن أقوم ببعض مما يجب علىّ نحو صديقتىّ مارى وكلير وأقف بجانبهما فى ظروفهما المستقبلة ، لاسيما وأن مارى تحرص أكثر الحرص على أن تكون كلير الوصيفة الأولى التى تسير وراءها فى حفلة الأكليل والزفاف . لقد فاتحت مارى «كلير» بذلك وقبلت بشرط أن يتم هذا قبل تاريخ ١٠ اغسطس بأيام . فأذاً لابد لمارى أن تزف قبل هذا الموعد .

وفعلا اتفقت هي وكارل على أن تكون حفلة الزفاف في أواخر شهر يوليه .

وأما كاتلين وأسرتها فلقد أظهروا الرغبة في أن يبدأوا أجازتهم السنوية ويتركوا المدينة إلى أحد المصايف على شاطىء البحر في أوائل أغسطس كعادتهم . ولكني رجوتهم أن يرجئوا ذلك حتى منتصف أغسطس لأتمكن من مرافقتهم بعد أن أكون قد انتهيت مما يجب عليّ نحو ماري وكلير - ولقد قبلوا الرجاء ووعدوني بالانتظار . وكنت كلما اعتزمت مكاشفة كاتلين أو أمها بما في دخيلة نفسي ملك عليّ الخجل جميع حواسي فانعقد لساني واضطررت إلى تحويل مجرى الحديث .

على هذا كنت أعتقد أن ساحل البحر وماءه وأمواجه ، وشمسه وهواءه ، ستملؤني ثقة بنفسي ، وعقدت العزم على أن أكاشف كاتلين بأمري - وقلت في نفسي أنه لاضرر في أن أتحمل هذا السكوت من الآن إلى أن تحين تلك الفرصة لاسيما وقد أصبحت غير بعيدة .

كانت الأفكار تتضارب في ذهني عندما أحدث نفسي عما سيؤول إليه حالي في مستقبل الأيام إذا مارضيت « كاتلين » أن تشاطرني الحياة . وكنت دائماً ، ولو عن طريق التحيز ، أرى السبيل لتذليل ماقد ينجم في طريق سعادتنا من صعاب وما

يمكن أن تخلفه وجهات نظرينا المختلفة. فلقد ولدت كاتلين، ونمت، وتعلمت، وعاشت، في بيئة تختلف كل الاختلاف عن البيئة التي نشأت وعشت فيها. ولابد أن يؤثر ذلك في وجهات نظرينا إلى ماحولنا من أمور. كل ذلك قد نظرت إليه بمنظار الأمل في السعادة، والرغبة في الإشفاق على قلبي المعذب، ورأيت أن أول واجب عليّ هو أن أحافظ بقدر ما أستطيع على الحب القلبي، والعمل على إبعاد يد العبث عن الوصول إليه لكيلا يبرد ويفتر. لأني أعتقد أنه مادام في القلوب حب فسيكون هناك دائماحسن التفاهم، ووسيلة للخروج من كل تنازع وشقاق. لذلك استرحت، واستراح ضميري لما أنا عازم عليه، وعولت على الاقدام دون نظر إلى أي اعتبار آخر مهما كان. فسعادتي أولا، وواجبي، وأهلي، وأقاربي، وبلدي، والناس أجمعون، ثانيا - لأن الانسان وُلِدَ بطبيعته محباً لنفسه، يؤثرها على غيرها في الحقوق والواجبات. حتى لو كان هذا الحب لشهوة في نفسه سريعة الزوال، وربما أعقبت نتائجها الآلام والأحزان، في حياته المستقبلة.

في صباح يوم ٢٦ يوليه وصلتني رقعة الدعوة لحضور زفاف ماري إلى كارل يوم ٣٠ منه الساعة الحادية عشر صباحا بكنيسة... بشارع... فملأت قلبي بشرا وسرورا

لأنى اغتبطت كثيرا لمارى وفرحت لها ، ولقد منّ الله عليها بالشاب الذى أحبته . والتى صرحت عنه بأنها لا ترى سعادة إلا بجانبه ، ولا هناء من العيش إلا فى ظله ـ دعوت لها بالسعادة والهناء

فكرت ماذا تكون هديتي التى سأتقدم بها إلى مارى ؟ ؟ وأمر اختيار هدية ـ توافق الظرف ، وتناسب المقام ـ ليس أمراً هيناً على نفسى ... ففيه كثير من التردد والخوف ... ربما كان هذا لا يليق بالمقام ... ربما كان ذلك يدل على عدم الذوق ... ! ربما كانت تلك لا تصلح لهذه المناسبة ... ! وهلم جرا مما يتبع الاختيار ... ، خصوصا على من كان مثلى وما معى من نقود محدودة ، وتلك هى أول تجربة لى فى هذا المضمار .

انتهى عملى بالجامعة يوم ٢٧ يوليه . ثم تفرغت يوم ٢٨ منه للبحث عن هدية مناسبة ، ولكنى لم أوفق ، فجددت ذلك فى اليوم التالى . وأخيرا ابتعت لها الهدية وكنت بالمنزل حوالى الثامنة مساء . ولم أكد أستريح فى حجرتى حتى دخلت الخادم وقالت مستر كارل يريد أن يراك .

قلت فى لهفة وأين هو ؟ قالت بالباب

عدوت عدواً سريعا نحو الباب ، وما أن وقع نظرى

على كارل حتى بدا لى ممتقع الوجه ، مضطرب الأعصاب ، فأوجست خيفة .

دخل كارل وطلبت إليه الجلوس ففعل ثم ابتسمت له وقلت :

خيراً إن شاء الله ، إنى أراك على غير عادتك .. ؟

قال - هى ... هى ... مارى ... ؟ جئت لأسألك عنها ؟

قلت - فى دهشة واستغراب - أين هى ؟؟ انى اعتقد أنها بجانبك تستعدان لحفلة الزفاف فى الغد . وكنت ساحضر إليكما الآن .

قال - فى صوت متهدج - لا أدرى ... حسبتها حضرت إليك لأنها كثيرا ماقالت عنك أنك من أعز أصدقائها .

قلت - لم أرها من خمسة أيام - ولكن متى تركت المنزل ، أو لم تترك لك خبراً ؟

قال - لا ... لا شىء سوى أنها أخذت أمتعتها الخاصة .. ولم تترك سوى ... خاتم الخطوبة .

قلت - هذا غريب ... خاتم الخطوبة ... أحدث بينكما نزاع وشقاق أدى إلى ...

قال - أؤكد لك أنه لم يحدث بيننا سوى الحب والوفاء ولذلك تجدنى فى حيرة من أمرى ... وماذا سيقول الناس

عنا غـــداً ؟

قلت ـ وقد حاولت أن أخفف عنه عبء هــــذه الصدمة العنيفة ـ خفف عن نفسك ياصديق ربما دفعها طيش الشبـاب الى ان تحدث مفاجأة كهذه لتجعلنا جميعا فى حيرة من أمرنا . فأنا أعرف أن مارى هى ملك لك دون ســـواك ، وهى من أسعد مخلوقات الله فى اليوم الذى تنعم فيه شرعا بهذه الملـكية . أقول لك ذلك لأنها كثـــيراً ما كشفت نفسها عن هـــذه الحقيقـــة ، وكنت أحفظها سراً فى نفسى إلا أنى لا أرى ضرراً من اطلاعك عليها . وثق أننا سنجدها فى هذه المدينـــة وستتم لكما السعادة فى الغد .

قال ـ أتعشم أن يكون ذلك .

فى لحظة كان علىَّ معطفى لأن جو المساء قد تغير وصار أكثر برداً مما كان عليـــه فى الصباح ، خصوصا وأن بالسماء مطرا كثـــيرا ، ولقد تجمعت السحب وسرعان ما تمطـــر فى هذه الأيام .

صحبت كارل وتوجهنا إلى منـــازل كل من فكرنا فى احتمال ذهابها إليه .

استمر بحثنا حتى منتصف الثانية عشر ولم نعثر لهـا على أثر أو نستدل من أحد اصدقائها وصـــديقاتها على طريق سلـكته

أو فكرة اعتزمت تنفيذها .

لم أجد بداً من أن أرافق كارل إلى منزله ، وقد اشتد قلقه ، وساءت حالته النفسية . وخصوصاً من أجل ما سيكون من أمره في غده ... ؟ أن الناس لن يعتقدوا أنه ومارى جزء لايتجزأ ، وأنه وهبها قلبه وحبه كما فعلت هى ذلك بدورها .. !!

إنهم لن يصدقوا أن مارى أخذته على غرة وأنه لاذنب له ولا جريمة ... !! لأن الناس لا يريدون دائماً أن ينظروا إلى حقيقة الأمور ، ولا يريدون التريث فى مناقشة النتائج حتى تظهر أسبابها ، ولكنهم دائماً يتعجلون كل شيء ، ويفسرون كل ظاهرة حسب مايتخيرون .

سيجتمعون غدا بالمنزل وبالكنيسة ليحضروا حفلة الزفاف ، وليشاهدوا ماذا تلبس العروس من جلباب ، وماذا تلبس وصيفاتها ...... ولكن أين العروس .. ؟ أختفت .... !! سيضحكون ماشاء لهم الضحك ... ثم يرجعون إلى منازلهم ساخطين هازئين .... وسيتركونه موضع سخريتهم ولومهم ...... !

أللهم أنزل عليه من الحكمة مايتدبر به أمره .... فهو مظلوم ولكن ليس فى أعين الناس . وهو أعزل :

فمهما دافع وقدم من حجج وبراهين فلن تجدى معهم نفعا .

وأخيراً ماذا يصيب حبه ، وقلبه ، وآماله ، وسعادته التي بنـــاها بجانب مارى . . ! أن شيئاً آخر في الحيـاة لن يكون عوضاً . . ! ! فمارى كانت ولا تزال كل شيء يطلبه .

آثرت أن أمكث الليل معه أهدئه وأواسيه وأمنيـه بظهور مارى فجأة فى الصباح الباكـر ، وسيـكون فى ذلك سعادة له وفرح ، وأن هذه السعادة وذلك الفرح سيتوجانه بعد بضع ساعات بسعادتهما الأبدية . . . التى سيتعاقدان على أن ينهلا من منهلها سويا بعد الحادية عشر صباحا .

مرت ساعات الليـل وكانت جد طويلة ، فكأن كل ساعة منها يوم على نفسى ـ وأصبح الصباح ، وقـــد فكرنا فى ثلاثة منازل أخـــرى لم نزرها فبادرنا بزيارتها ، فلم يجد ذلك نفعا .
انتظرنا إلى العاشرة صباحاً وحضرت الوصيفـات وبينهن كثير ، وكثر التخمين والتعليــل ، وانتشرت الأقاويل، وتهـــامس المدعوون وكثر الغمز .

وأخـــيراً استقر الرأى على أنه إذا لم تظهر مارى فى تمام الحادية عشر ، يعلن المدعوون بتأجيل حفـلة الزفاف . . ولكن إلى متى . . ! ! يحسن أن يكون إلى أجـــل غير مسمى . . . . ! !

لم تظهر مارى ... وكان التأجيـــل ، وتمت عمليته على ما فيهـا من مشقة للنفس ، وشعور بالهزيمة والتقهقر ، وليس كل تقهقر وألم للنفس مما يمكن احتماله .

ساءت حالة كارل النفسية بعد تلك الصدمة يوما بعـد يوم وصـــار يستنشق الأخبار علـه يجـــد فيها مايفسر له السبب ، ويكشف له عن حقيقة الأمر ، وكنت فى أغلب الأوقات بجانبه ، ولـكن عبثا حاولنا .... جلست إليه مرة .

قلت : ربما سافرت مارى إلى أهلها لتستشيرهم فى الأمر .. !

قال : يحتمل ، ولـكن إن كان ذلك فلا بد أن تعود .. !

قلت : أنك تجزم بعودتها ؟ ؟ .

قال : متأكد من ذلك فإنها لا يمكن أن تغـالط قلبها وتنكر حبها . وقد وهبتنيهما .

قلت : أتعشم أن تـكون هذه هى النتيجة .

مر يومان .. وثلاثة .. واربعة .... وسبعة وكلمـــا ذهبت إلى كارل أو حادثته تليفونيا عمـــا إذا كان قد اهتدى إلى مكانها أو وصل إلى علمه شيء عنها . ؟

أجاب بالنفي وأعقب ذلك بزفرة عميقـة ملؤها الحـــزن والأسى .... وربما قال فى بعض الأحيان أن الصبر خير دواء لحالة كهذه ، أو دعنا ننتظر ونحن نرى .

فى يوم ٨ أغسطس شعرت بقرب اعتزام كلير القيام برحلتها فصممت على أن أذهب إليها لأسألها عما وصلت إليه من استعداد وعن موعد قيامها وهل لاتزال مصممة على بدء رحلتها يوم ١٠ منه .

كنت بالباب حوالى منتصف الرابعة مساء ولو أنى كنت أشعر ان هذا ليس وقت مناسب للزيارة إلا أنه استفسار أكثر منه زيارة ، طرقت الباب فجاءت الخادم ورجتنى أن أدخل ففعلت .

لاحظت على وجه كلير الشحوب ، وعلى عينيها التعب ، وعلى وجهها الحزن والكآبة ، ولكنى آثرت السكوت الآن .

جلست صامتاً حتى فاتحتنى كلير فى الكلام وسألتنى عما إذا كان هناك أخبار من مارى أو عنها . فأجبت بالنفى . ثم قالت أن ذلك لغز لاتستطيع حله ، فوافقتها على ذلك خصوصاً وأننا أعلم الناس بحبها ووفائها لكارل ... ثم تغدر به فى آخر لحظة ... !! سكتنا وتثاءبت كلير مرتين فى أقل من ثلاث دقائق ...

قلت : متى تنتظرين البدء فى رحلتك ... ؟

قالت : لا أعرف ... متى ... ثم تثاءبت .

قلت : يظهر أنك تجهدين نفسك كثيرا فى الاستعداد

لهذه الرحلة ، ولكن ما بالك مكتئبة حزينة . . . ؟ ؟

قالت : أن لى ليلتين الآن لم يغمض لى فيهما جفن .

قلت : ولم ذلك ، أتشتغلين كل نهارك . . وليلك ؟

قالت : أن أمى قد مرضت ليلة أمس الأول مرضاً فجائياً فاضطررت الى أن أكون بجانبها واستدعيت الاطباء لها .

قلت : وأى نوع هذا المرض . . ألم يشخص بعـــد . . وما أمل نجاحهم فى المداوة . . . .

قالت : لم يشخص بعد . . أن الاطبـاء قالوا أنه لا يمكنهم التأكد من تشخيصه الحقيقي إلا بعد ثلاثة أيام من ملاحظاتهم سير المرض والتغيرات التى تطرأ باستعمال مختلف الدواء .

قلت : وأى ألم تشكو ؟ ؟

قالت : لا يمكنهـا تحريك نصفهـا الأسفل . . . ثم تنهدت عميقاً . . واستطردت فى الحـــديث . . إنى أخاف أن يحول ذلك دون رغبتي فى القيـام برحلتي ـ لأنى كما تعلم وحيدة أمى وليس أحد فى هذا العالم احق مني بالجلوس بجانب سريرها وملازمتها ، خصوصا وأنى فقدت والدى منـــذ أمد بعيـــد فكفلتني أمى برعايتها وعطفها . وكثيراً ماضحت فى سبيـــلى بسعادتها وهنائها . فأنا مدينة بكل شيء أمتلكه فى هـــذه الحياة إلى غرس يدها وكدها وجدها . . . ثم أجهشت فى البكاء .

قلت : لا تبكى فسوف تشفى والدتك قريباً مما ألم بها .

قالت : كلنا معرضون للأخطار والأمراض . . . ولكنى أتألم جداً كلما فكرت فى أنى ربما كنت سبب ما تعانيه والدتى الآن من سقام وآلام . فهى كثيراً ما عارضت فى قيامى برحلتى المزمعة لأنها تشفق علىّ ، وقد أوقفت حياتها علىّ ، وكثيراً ما صرحت لى بأنى محط آمالها وسعادتها ـ وربما كانت كثرة تفكيرها فيما سيؤول اليه حالى من جراء هذه المحاولة قد جرت عليها ما تعانيه الآن . . . . سامحنى الله . . . فيالى من فتاة طائشة . . . وكيف يمكن أن أكفر عن هذا الذنب . . . ! !

قلت : أرجو ألا تذهبى بأفكارك بعيداً . . . وأتعشم أن يكون ذلك مرضاً طارئاً سيزول قريبا باذن الله . ويجب أن تبتسمى دائماً أمام والدتك ، عل ذلك يبعث فيها قوة على مقاومة المرض ، وأملا فى أن تواصل الحياة بجانبك ، وأنت لا تزالين تبتسمين .

قالت : شكراً لك أيها الصديق ـ أتمنى لوالدتى الشفاء العاجل فان قدر الله لها بشىء مكروه فسوف لا أتخلص من عذاب نفسى ، ومن تأنيب ضميرى .

قلت : لاحظت أن جريدة الأيكو تكتب عنك تقريبا فى كل مساء لتقدمك للقراء . فادارتها مهتمة بأمرك كثيراً ،

وفى عدد أمس تاريخ قيامك يوم ١٠ أغسطس ، أليس من المستحب أن تطلبي التأجيل أسبوعاً حتى نرى ما يكون من أمرك ؟

قالت : لست فى موقف أستطيع الآن معه أن أطلب التأجيل أو أحدد موعده للناس . . ولكن أتعشم أن أصل إلى رأي قاطع فى هذا الموضوع بعد صدور قرار الأطباء الذى أنتظره مساء الغد أو فى صباح اليوم التالى .

قلت : أرجو أن يكون خيراً . . . ثم استأذنت فى الخروج .

سرت بخطوات بطيئة متثاقلة وقد تأثرت نفسى لما ألم بأم كلير وما يمكن أن ينشأ عن ذلك فى حياة كلير ومستقبلها . . وقد قاربت أن تخطو خطوة واسعة عن جدارة واستحقاق نحو شهرة عالمية ، واشباع نفسها الوثابة الطموحة بما يمكن أن تحرزه من نصر إن قدّر لها النجاح فى محاولتها - ثم اختلط علىّ تفكيرى وصرت أُقَلِّبْ حالَتَىْ زميلَىّ مارى وكلير - أما الأولى فهى لا تزال لغزاً لم أتوصل بعد الى حله . وأما الثانية فلعلى بتفصيل ما نزل بأمها من خطب ، لم أتمالك نفسى من وضع مختلف الفروض . وما يمكن أن يؤول اليه حالها ان صح بعضها .

قبل أن أصل الى منزلى دعوت الله وتمنيت أن مانزل

بصديقيّ - طارىء لايلبث أن يزول ، وسحابة صيف لاتلبث أن تنجلى . ثم بعدها ترجع الأمور الى مجراها الطبيعي .

فى صباح اليوم التـــالى اتصلت بكارل تليفونيا وسألته عما اذا كان قد وصل الى علمه شيء عن مارى - فأجاب بالنفى .

وبعد ظهر اليوم نفسه طلبت كلير بالتليفون واستفسرت منها عن صحة والدتها وعما اذا كان قـــرار الأطباء صدر أم لا - فأخبرتنى أن صحة والدتها لاتزال على ماهى عليــــه وان قرار الأطباء لم يصدر بعد .

قابلت كاتلين فى المساء ، وكنت مثقلا بالهموم من جــــراء ظروف مارى وكلير الغامضة ، ولكنى آثرت السكوت وحاولت أن أظهر أمامها بمظهرى العـــادي . ولقد خاننى مرتين تصنعى هذا المظهر حتى لحظت علىّ تغـــيراً ، فسألتنى ماسببه - قلت لاشيء . وصممت فى نفسى على الكتمان حتى ينجلى الموقف .

فى مساء ١٠ أغسطس اشتريت جريدة الايكو « Echo » كعادتى واذا بها عنوان ضخم كما يأتى :

« Liverpool Girl Student Sacrifices Her Ready Chance To Fame for the Call of Duty. »

وترجمته « فى سبيل نداء الواجب تضحى فتاة طالبـــة من ليفربول بفرصة سانحة للشهرة » عند - وقوع نظرى على هذا

العنوان ـ لم أشك فى أنه بخصوص كلير ، فهى ورحلتها كانت قد أخذت مكاناً واضحاً فى الاسبوعين الأخيرين على الصفحة الأولى لهذه الجريدة . بدأت أقرأ فى لهفة ما كتبه المحرر .

واذا هو يقدم كلير للقـــراء بالفتاة الباسلة التى لا تعرف الخوف ، ولا تعترف بالخطر .

ولقد أظهرت فى أثناء هـــذا الشهر الأخير دراية واسعة فى فن الطيران ، حتى ان القائمين بتجهـــيز طائرتها الى رحلتهـا الخطـــيرة كانوا أكثر الناس تفاؤلا بنجاحها ، والكل كانوا ولا يزالون يعترفون بان أعصاب هـــذه الفتاة من حديد وأن لاشيء يقف فى سبيل نجاحها الا أسوأ الحظوظ ـ ثم يستطرد المحرر كلامه ويقول :

هـــذه الفتاة كما يعرف القراء جميعاً كانت قد اعتزمت القيـام برحلة منفردة الى استراليا وحددت موعـــداً لقيامها اليـوم . وكانت فعـــلا على أتم استعـداد لذلك . إلا أنه حصل ما لم يكن فى الحسبان . مرضت والدتها منذ ثلاثة أيام وقرر الأطباء اليوم أن ما ألم بها هو شلل لا حيـــلة للطب فى مداواته .

لم يكد يعلن الأطبـــاء قرارهم لكلير حتى اتصلت بادارة هذه الجـــريدة تليفونياً وطلبت مراسلا لتفضى اليه بحديث

فى موضوع رحلتها .

أسرعت اليها فأطلعتنى على الخبر بكل شجاعة وصبر وجلد - وطلبت إلىّ أن أشكر بالنيابة عنها على صفحات هذه الجريدة جميع من عطفوا عليها ، وتمنوا لهـا الفوز والنجاح . وانها ان ضحت اليوم بفرصة نادرة الوجود ، سانحة الى طريق الشهرة وعطف الجمهور ، واسترخصت التنازل عن رغبتها فى تحقيق مأرب طالما منت نفسها به وشيدت عليه آمالا جساماً ، الا انها تذعن فى هذه الساعة إلى صوت الواجب ، وتقوم بكل ما يفرضه عليها وما يمكن أن يتطلبه اداؤه ، مهما عزّ على نفسها وغلا - فهى من أنصار اداء الواجب بقلب عامر بالايمان لا يتطرق اليها اليأس ، مستبشرة بالمستقبل مهما غمض ، باذلة فى سبيله كل تضحية وراحة نفسية .

لم أكد أنتهى من قراءة ما ذكره المراسل عن كلير حتى شعرت بلوعة وحسرة ، وكيف أن أول أمل لهذه الفتاة الممتلئة حماسة ، المتقدة شجاعة وإقداماً يتحطم على صخرة لم تكن فى الحسبان - يعلم الله مبلغ تأثرى وما وصلت اليه حالى ، ولكن لا راد لقضائه ، وليس لى من حول أو قوة أكثر من اسأله الرأفة والرحمة بهذه الفتاة وبأمها .

بعد يومين عدت الى منزلى كالمعتاد فى منتصف السابعة

لتنـاول طعام العشاء ، وبعـــد أن استرحت قليلا فى حجرتى دخلت الخـادم وسلمتني بطـاقة ـ وإذا البطـــاقة تحمل اسم كارل . . . ويطلب منى فيها أن أذهب اليه ان أمكننى ذلك حوالي الثامنة مساء ـ اسرعت فى تناول الطعـــام ، وكنت على باب كارل . . . فى الموعد المضروب ، يحـــدونى الأمل بسماع ما قد يدخل على نفسى بعض السرور من اخبـــار مارى . . . وعن سبب اختفائهـــا . . . ثم اين هى الآن . . . ومتى تعود إلى حظيرة حبها ، وتتمع بحياتها بالقرب من الشاب الذى وهبته قلبها . .

وجدت كارل ينتظرنى ـ فهو الذى فتح لى البـــاب وقادنى إلى غرفة الاستقبال ـ وكان همى أول ما رأيتـــه أن أحقق النظر فيه علنى استمد من ملامحه ما يبـــدو عليها من أثر ، دليلا على ماوصلت اليه حالته النفسية من سعادة أو شقاء .

لم يظهـر كارل . . . بمظهر الفرح الطـروب . . . حتى أؤمل خيراً . . . ولـكن ظهر بالمظهر الذى عهدت أن أراه عليه منذ اختفت مارى . . . ويمـكن القول أنه فى هـذه الليـلة زاد حزناً واكتئاباً . آثرت الصمت ، وقلت فى نفسى أن ذلك خـــير لى حتى يبدأنى بما يريد الافضاء به الىّ .

فاتحنى الحـــديث فى موضوع كلير والغائها القيام برحلتها وعما كتبته الصحف عنها . فأظهـــر عليها عطفاً كبيراً ، وأثنى

على همتها وشجاعتها ووفائها ثناء عاطراً ... ثم تمنى لوالدتها الشفاء العاجل حتى يتيسر لكاير، أن تنال بغيتها.

ثم سكت ... فسكت معه ... دخلت الخادم بأطباق الحلوى فأخذت منها بمقدار، ثم اختفت - وبعد برهة قال كارل :

ذهبت الى منزلك بعد ظهر اليوم.. ولكن للأسف لم أجدك !

قلت : خيراً إن شاء الله.

قال : قد وصلني خطاب صباح اليوم.... فأردت أن أطلعك عليه.

قلت في لهفة : أفيه شيء عن ماري...؟

قال : بصوت منخفض - هو منها

قلت : هو منها... وأين هي... ولماذا لم تحضر.... ولم اختفت...؟

قال : وقد مد يده اليمنى في جيبه وأخرج الخطاب ثم سلمني إياه - لا فائدة - وإني أتمنى لها السعادة في مستقبل أيامها.

أمسكت الخطاب وأول ما وقع نظري على طابع البريد وعليه صورة الرئيس هندنبرج ومدينة التصدير هي كيل فأيقنت أنها سافرت إلى ألمانيا

انتزعت الخطاب من غلافه بحركة سريعة، وكان مكتوباً بالانجليزية فبدأت أقرأ :

عزيزى كارل . . .

ان قلبى ينفطر ، وعيونى تدمع ، ونفسى تتألم ، وليس من سبيل أن أطلعك على دخيلة نفسى وما أشعر به ، غير انى أسجل على سطور هذا الخطاب أسفى الشديد لتركى اياك ، ومغادرتى ليفربول دون أن أطلعك على السبب ، وأقص عليك الخبر . ربما تتعجب وتندهش . . . ويذهب بك هذا العجب والدهش الى حد الضحك والسخرية ثم تقول فى نفسك « يالها من كاذبة خادعة . . كيف تحبنى وتخلص لى وكم وددت الاقتراب منى لتبث غرامها ، وتكشف عن لوعة قلبها . . . حتى صدقتها وكنت على وشك أن أهبها قلبى وأشاركها حياتى . . ثم هى تختفى بدون سبب ، وتغادر بدون خبر » ـ لك ياعزيزى ان تفكر وتقول عنى ما شئت . . فانى أغتفر لك كل قول ، وأتجاوز عن كل ظن . طالما استجمعت ماعندى من شجاعة وجرأة لأقص عليك عدم استطاعتى . . . ولكنى لم افلح ، ولن افلح مادمت أرى وجهك الجميل ، وعينيك الساحرتين ـ كثيراً ما وددت مفاتحتك فى الموضوع ، ولكن كلما وقع نظرى عليك تغلبت عاطفة قلبى بما يحمله من حب اليك على ما سوى ذلك من تأنيب الضمير والشعور بالواجب ، فأيقنت أن مواجهتك أمر عسير على نفسى بل يكاد يكون مستحيلا .

عزيزى ـ أنت أعلم الناس بظروفى ، وكيف حضرت الى بلادكم ، وما هى الأسباب التى دفعتنى الى الاغتراب والوحدة ، والرضاء بأى عمل حتى الخدمة فى منزل مسز جونس . كما تعرف أيضاً ما آل اليه حال والدى من الضعف ، والتقدم فى السن ، وقلة المقدرة على مكافحة الحياة ، ثم تذكر ان لى اخوة لا يزالون بالمدارس فهم فى سن يحتاجون فيه الى الأخذ باليد والمساعدة والعون .

ليس أحق مني بالقيام بهذا الواجب ، ولقد وقفت نفسى عليه ووهبته إياها قبل مغادرة وطني العزيز . ضحيت فى سبيل الاستعداد ـ لأتمكن من أدائه ـ براحتى فكم ، من نهار طويل اشتغلت . . . وكم من ليل سهرت . . . وكم . . . وكم . . ولكنى دائماً كنت مبتهجة القلب ، مستريحة الضمير ، كلما رأيت نفسى انى اسير فى طريق التحقيق والوصول الى اى امر كبير لأداء ما فرض عليّ من واجب

حضرت الى ليفربول وسارت حياتى فى مجرى عادي ، وآثرت الوحدة على الاختلاط ، وقنعت بذل الخدمة ومسئوليتها ، وكنت كلما شعرت بتعب أو عناء فكرت فى اللذة التى تنتظرنى والتي سأجنى ثمارها إن قدّرت لى العودة للقيام بواجبى نحو أسرتى ـ وسرعان ما تستحيل الوحدة والغربة ، والتعب والعناء

الى راحة ضمير ، وعزاء روحيٍّ لذيذ . تلك كانت حيـــاتى . . .
قبل أن أتشرف بمعرفتك .

تذكر أيضـاً انى كثيراً ما تعمدت مغالطـة نفسى فتجاهلت حبك ، وغضضت النظر عمـا كانت تشع به عينـاك من عطف علىّ وحب لى . . . حتى ضاق صـــدرى ذرعاً بذلك التصنع ولم أعد أستطيع اليه سبيلا ، فجئت اليـــك اكاشفك بدخيـلة نفسى ، وعزمت على أن أنعم بقـــربك ولو الى حين ، ما دمت قد غرقت فى حبك الى الأبد

عزيزى كارل : ثق تمـاماً انك أول من أحببت وأخـلصت له الحب والوفاء ، فقد وهبتـــك قلبى غير آسفة أو نادمة بما فيه من شعور وإخلاص ـ ولو كان أمرى بيدى ولم يكن فى الحياة من يتطلب منى واجباً لكنت على أهبة واستعداد ان اهبك جسمى ، وان اقف بجانبك أكافح الحيـــاة الى آخر رمق فيها ـ وانا فى ذلك اسعد الناس واهنأهم عيشاً واخلاهم بالاً

تذكر أيضـاً انى كثيراً ما ترددت فى قبول خاتم الخطوبة ولـكنك الححت وكنت بجانبي ، فـــلم أر سبيلا الى الرفض أو الامتناع .

يجب ان أصارحك الآن ان شـــعورى بالواجب لم يمح يوماً من ذاكرتى ، فكان قوة كامنة فى نفسى تحـــارب شعور

قلبي بحبك والاخلاص اليـــك ، واللذة الشخصية المنتظرة ، وسعادة نفسي المستقبلة من الاقـــتران بك ـ على ذلك كان جسمي مسرحاً لنضال العـــاطفتين الحب والواجب ، وميداناً للقتال ، وكان الحرب بينهما سجالا لا تخلف في نفسي غير عذاب الضمير ، والشعور بعدم الاستقرار .. أيهما كتب الله له النصر .. !!

وأخـــيرا . . . . بعد أن أوشك الحب ان ينتصر وما هي الا ساعات قلائل حتى يعلن الفوز بنعيم القلب ويندحر الشعور بالواجب . . . غـــير ان الحال قد بدلت وانعكست آية النصر بفضل تحكيم العقـــل المجرد عن اللذة والشهوة . . . وانتصر الواجب فأذعنت ، وناداني فأجبت .

قررت العودة فجأة على مضض وأنا حزينة أسيفة ولكني فكرت ان انا تركت لك في حجرتي خطـــاباً أنبأتك فيه بما فعلت ، ربما لا تحتمل أعصابك هذه الصدمة العنيفة ، خصوصاً وان كل شيء قد تم ، ولم يبق سوى ان أصاحبك الى الكنيسة .

آثرت ان اتركك بين الرجاء واليأس ، للحدس والتخمين ، حتى تهدىء الأيام من ثورة نفسك ، وحتى لا يكون ما أفضيت اليك به في هذا الخطاب من أسباب بجديد على تفكيرك .

وأخيرا ثق . . . ياعزيزي كارل . . . اني لازلت احبك للعبادة ، واني أتوسل اليك وأتضرع جاثية أن تعفو عني وتصفح ،

لأنى مذنبة فى تحطيم حبك ، والعبث بقلبك ، وما اوجدتك فيه من مركز حرج والشعور بالقلق والاضطراب .

أتوسل اليك وأستحلفك بكل عزيز لديك .. ألا تكرهنى ولا ذنب لى ، فأنا كما ترى فريسة الظـــروف .... ورهن تصرف القدر .... !!

أختم خطابى بقبـــلات حارة أبعثها اليك من قلبي المعذب وتمنيات طيبة فى حياتك المستقبلة وان تكون السعادة والرفاهية حظك فى هذه الحياة .

المخلصة الى الأبد

ماری ...

ملحوظة : أتعشم أن أحظى منك قريبا برد يطفىء غليلي ، ويخفف من عذاب قلبى ، اقرأ فيه خبر صفحك عنى ، وعفوك عن خطيئتى ... والانتصار لفكرتى ... !!

كانت عملية قراءة هـــذا الخطاب شاقة على نفسى فملكت على حواسى وشعرت بما تعانيه مارى من لوعة وحسرة وعذاب يظهر ذلك جليا فى كل كلمة من كلماته .

سلمت الخطـــاب لكارل وأظهرت له أسفى الشديد على ما أحاط بهما من ظروف قاسية .

ثم سألته : هل كتبت لها ردا .... ؟؟

قال : لا ... ولكنى سأفعل ذلك فى أول فرصة تسنح .

قلت : أتعشم أن تعفو عنها فهى على مايظهر فى عذاب نفسى أليم .

قال . أنا أعلم الناس بذلك فأنى أعرف حقاً أنها تحبنى حبا يكاد يكون عبادة ... أنى أشاركها فى كل ماذهبت إليه ... وسأظل إلى الأبد أحبها وأحترمها وأقدسها .. فهى بحق شخصية نادرة فى انكار الذات .... والقيام بما يفرضه الواجب .

عمدت إلى تغيير مجرى الحديث بالحديث عن الجو والألعاب الرياضية ... وبعد قليل من الزمن استأذنت فى الخروج .

تركت هذه الصدمة فى نفسى شعورا بالحزن العميق لما آلت إليه حالة مارى .. وزادت هذا الحزن ظروف كثير ... التى أقعدتها عن الاقدام .... فكان فيها مثل التضحية وإنكار الذات وتلبية نداء الواجب .... فلقد ضحيا بالأمل فى السعادة والرجاء فى تحقيق الرغبة والشهرة تلبية لنداء الواجب .

وصلت إلى المنزل مثقلا بالهموم وذهبت إلى الفراش ، ولكن عبثا حاولت النوم ، وقد جال فكرى وسبح ، واستعرضت أمام نفسى حياتى ، وآمالى ، وما كنت أشعر به

فى أيامى الماضية ، وما أشعر به الآن ، والذى أنا قادم عليه أستمد وحيا من شجاعة صديقيّ النفسية ، وتضحيتهما ، والأغضاء عن شهوة النفس وسعادة القلب ، بما هو أحق وأولى من راحة الضمير والشعور بأداء الواجب .

تمثل أمامى حب كاتلين وتصميمى على مفاتحتها فى الاقتران بى والرضاء بالعيش بجانبى ، فى الأيام المقبلة خصوصاً وأننا اعتزمنا الرحيل إلى المصيف بعد يومين. . . . ثم بدت لى نتائج هذا العمل وما يمكن أن يجلب على نفسى من سعادة إلى قلبى المعذب فى حبها من راحة واطمئنان . ولكن إن أردت تحكيم عقلى ، كما فعلت صاحبتاي من قبل مجردا عن الشهوة واللذة النفسية ـ وجدت أن شعورى القديم بواجبى نحو أهلى ووطنى قد تغلب عليه ، وفى بعض الأحيان محاه ذلك الطارىء الجديد على نفسى وقلبى ، وهو حب كاتلين .

لبثت أقلب صفحات الماضى وما كنت أشعر به كواجب عليّ يجب أداؤه مهما كلفنى من تضحية وعناء . قبل أن يعبث بقلبى حب كاتلين .

ثار لذلك عقلى وكأنه فى ذلك لا يريد التقهقر بل أراد الانتصار على النفس وما تبتغيه ، وله فى ذلك أسوة حسنة بما حصل من زميلتيّ وصديقتي ، وأمطرنى العقل بوابل من

الاسئلة ، ولكن هيهات فأنا أضعف منهما !! يذكرني بالآمال وما كنت أشعر به في ماضيّ القريب... أين تلك الآمال التي نشأت في نفسي منذ أول عهدي بالجامعة .... ؟ ؟

كثيرا ما تمنيت أن يكون لي نصيب في إصلاح مجتمع مصر ، فأجهدت نفسي في التفكير عن أسباب علته ومبلغ إعوجاجه ، علني بعد البحث والدرس أتمكن من أن اساهم بنصيبي في تقويم هذا الاعوجاج ، والتخلص من الداء العضال .

أين ذلك العهد الذي قطعته على نفسي في الساعة التي وطأت قدماي فيها « الباخرة الفرنسية » التي اقلتني إلى الديار الأوربية ، وهو أن اعمل لخير مصر وسعادتها ويجب ان اذكر دائماً مصر في كل خطوة اخطوها . كما يجب ان لايغيب عن ذهني اني ما وصلت إلى هذه الديار الأوربية لأرتشف من مناهل العلم وأتخلق بأحسن الأخلاق ، إلا بفضل دافعي الضرائب من سكان مصر .... ولا يخفى ان اساسها عرق جبين الفلاح المسكين .. !! إذاً حق عليّ ان اعمل جهدي ،وأضحي براحتي وسعادتي محاولا في ذلك ان ارد بعضا مما يجب عليّ نحو مصر واهلها ...... ولكن ... هل يغير هذا الموقف زواجي بكاتلين ، وهل تتحول حياتي عن هذا المجرى الذي شققته لها والذي دفعني إليه الشعور

بالواجب ..؟؟.

هنا تحكم العقل صراحة وفى غير تحيز وجاء الجواب العميق من نفسى.

ربما يتغير الموقف كثيراً ....!! ولم ذلك ....؟

لأن كاتلين انكليزية وحياتها جزء من الحياة الانكليزية؛ فهى لابد أن تشعر بشعور أهلها مهما بعدت الديار، ومهما حاولت الاندماج فى وسط أجنبى... لابد أن تحن إلى معيشة أهلها، وان تفكر بأفكارهم، فهى جزء منهم وستظل كذلك إلى الأبد - وأما انا فمصرى، وحياتى جزء من الحياة المصرية، وعلى ارض مصر نشأت وتربيت، فتأصلت عاداتها وأخلاقها فى نفسى، ومهما حاولت التصنع لاتخلص من هذه العادات، فلن يجدى ذلك نفعا وسأظل إلى الأبد مصريا.

سأظل أذكر القرية وحياة سكانها وما يعانونه من بؤس وفاقة ....!، سأظل أذكر حياتى الأولى فى المنزل والكتاب والمدارس المختلفة ....! سأظل أذكر رفاقى بالقرية والمدينة ومجتمعاتهم وطرق عيشهم ولهوهم ....! سأظل أذكر الشىء الكثير من ادوائنا الاجتماعيه ....!

وأخيراً سأظل أذكر مصر.. وأذكر معها احلامى

وآمالى . ثم العهد الذى قطعته على نفسى ... سيخفق لذلك قلبى وتثور ثائرتى ... وربما انهـض للعمل ... ولكن كيف اصل وكاتلين بجانبى ... ؟

ان مصر فريسة الامتيازات والمصالح الاجنبية ، وكل عمل ايجابي فى سبيل سعادة اهلها ، يجب ان يبدأ برفع هذا الظلم عنها حتى يتمتع اهلها بجميع خيراتها ومواردها ....

هب أنى يوما ما ناديت بذلك ... ! ستثور ثائرة الأجانب بمصر ... وسيغضبون وربما - بل الأرجح - أن تعطف كاتلين عليهم . وتغضب لغضبهم - ولا لوم عليها فى ذلك - لأنها منهم ولها أن تحس بشعورهم وتغار على مصالحهم .

الخطوة الثانية فى سبيل تحقيق آمال البلاد ستدفعنى الى مناوأة النفوذ البريطانى فى مصر وسودانها ، حتى يسترد النيل من أعاليه الى مصبه العزة والكرامة ، فتجرى مياهه فى واد حر طليق . ويأخذ ما يجب أن يكون له من مكانة فى مصاف الدول الأخرى - وبذلك يقف أهله وساكنوه مع غيرهم على قدم المساواة فى الحقوق ، وبسط يد الصداقة لمن يرغب فيها ويحفظ لهم عهدها ....

ولكن كاتلين انجليزية صميمة . تفخر بجنسيتها . وتذكر أهلها بالشجاعة والحزم ، وتفكر دائما فى رفاهيتهم ، وتدعو

الله أن يزيدهم قوة على قوتهم . وأن يحفظ لهم امبراطوريتهم العظيمة - لاشك عندى أنها ستغضب إن أنا حاولت مناوأة نفوذهم . وليس لى أن ألومها فى ذلك الغضب ، لأن دمها يجرى بحب أهلها وبلادها ، فكثيراً ماشربت نخب الصحة والقوة والسعادة لأمبراطوريتهم العظيمة .

فوق كل الاعتبارات التى ذكرت - أطرح على نفسى السؤال الآتى :

ما الذى سيكون من أمر أولادى - إن قدِّر لى ذلك - حالة زواجى بكاتلين . . ؟؟ سيتربون أحسن تربية ، وسيشبون على الفضيلة ، وسيقدرون الجمال فى كل شىء ، وسينظرون إلى كل شىء حولهم بعين الحب والعطف . وربما يحسدنى عليهم أصدقائى المتزوجون بمصريات . . . ولكن هناك شىء واحد سينقصهم ، وهو مصريتهم الصميمة ، وعدم تنميتهم عاطفة الحب لبلادهم ، والتفانى فيها وشعورهم بالفخر انهم مصريون - ولا لوم عليهم فى ذلك - لأن هذه عاطفة يعهد بتنميتها الى الأم وقت الطفولة والغرس . . . وأمهم كاتلين ستكون فى حيرة من أمرها . . . أى العاطفتين تغرس . . . حبها لبلادها . . . أم حب زوجها لبلاده . . . أم هناك سبيل للتوفيق . . . ؟؟

حسبت أن تعمق فى هذا التفكير سيجلب على نفسى

التعس والشقاء ... ؟

الساعة الآن تدق الحـــادية صباحاً وأنا لا أزال أفكر فأتردد - برهة أنتصر لدليل العقل ، وأخـــرى لأمل السعادة التى تنتظرنى من حب كاتلين فى المستقبل . قلبت الأمر على وجوه كثيرة وقلت : هب أنى تركت كاتلين الحسناء فكيف أعوض قلبى بحب آخر ، وربما هى فرصتى الوحيدة فى الحياة ؟

يجب أن لا أنسى انى أعزل من السلاح فى ميدان الحب والغرام فلست أملك جمالا أو مالا مما يستهوى غاداتنا الحسان . !

ترددت ويعلم الله مبلغ ترددى .

دقت الثانية صباحاً ... لازلت فى ترددى .. ثم الثالثة وكانت هذه خاتمة التردد فنهضت من الفراش مسرعاً - جلست الى مكتبى وأمسكت بالقلم فى عزم أكيد ثم كتبت خطاباً الى جناب مدير البعثات بلندن أرجـــو السماح لى بسرعة العودة الى مصر وقد انتهيت من دراستى التى أوفدت من أجلها .

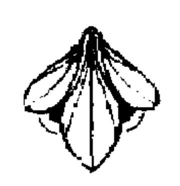
بعد ظهر اليوم التالى فاتحت احـــد اصدقائى بنية العودة الى مصر فضحك وحسبنى هازلا ثم علق على الأمر .

« ياشيخ ياريتنى اقعد العمر كله هنا - حـــد طايل - لك سنتين فاضلين وعائلتك ليست فى حاجة ماسة اليـــك ومرشح لجائزة أدبية من الجامعة » .

ولكنى أكدت له ذلك .. فأصر من جانبه على الضحك الى درجة السخرية .. !!

بعد يومين وصلنى رد مدير البعثات يهنئنى بما وفقت اليه من نجاح ، ثم لايرى مانعاً من عودتى ولكنه يذكرنى أن مدة بعثتى لم تنته بعد ، وأن لى الحق فى سنتين أخريين حسب مالديه من برنامج . ويطلب ملاحظاتى على النقطة الأخيرة . . . .

كتبت اليه شاكراً تهنئته فطالما عهدته أبا رءوفا غمرنى واخوانى الطلاب بعطفه ورعايته وسديد نصحه . ثم ذكرت له أنى ماوصلت الى هذه الدرجة الا بفضل مصر وأهلها علىّ ، وليس أحق بمجهودى الآن فى البحث والدرس من المساهمة فى تنمية موارد مصر العلمية والاقتصادية وما يفرضه علىّ الواجب نحوها ، فلقد قطعت على نفسى عهداً ان أعيش من أجل مصر .



« تمت »